الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة شؤون المكتبات - قسم المخطوطات
رقم التسجيل الخاص
التاريخ / / ١٤هـ

المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم الدراسات العليا
شعبة التفسير

استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره

٢١٢/٢
م ١٥٣

إعداد

أحمد عمر عبد الله الغافي

رسالة مقدمة لنيل درجة العالمية العالية

«الدكتوراه»

إشراف فضيلة الدكتور

السيد محمد دسوقي

عام ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

شکر وتقدیر

شـــكر وتقـــدير

عملا بقوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صنع اليكم معروفا فكافئوه ، فان لـــم تجدوا ماتكافئونه به فادعوا له حتى تروا أن قد كافأتموه " .

فانني أشكر الله الكريم على نعمه الظاهرة والباطنة ، التي لا تعـــد ولا تحصى ، ومن أهمها نعمة الاسلام ، وأجدد له شكري على توفيقـــه اياي باعداد هذه الرسالة ، كما أسأله تعالى المزيد من التوفيـــق والاخلاص في القول والعمل .

ثم أتقدم بجزيل الشكر الى جميع الذين أكرمني الله بتلقي العلـــم عنهم أصحاب الفضيلة الأساتذة الكرام ، جزاهم الله عني وعن زملائـــي خيرا .. وأخص منهم بالذكر فضيلة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي ، الذي ساعدني كثيرا حتى عند اختيار هذا الموضوع والاشراف عليـــه واعترافا بالحق وفعل الجميل .. فانني أذكره بكل خير ، ولا أنســـى جهوده الموفقة ورحابة صدره وقوة صبره وكرم أخلاقه ، وتوجيهاتـــه السديدة التي افادتني كثيرا .

وبالجملة فانه شاركني مشاركة فعالة في هذا الموضوع بكل ماتضمنتـــه المشاركة من معنى فجزاه الله خير الجزاء وشكر له سعيه .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة الدكتور/ السيد محمد دسوقي الذي تولى الأشراف على الرسالة بعد الدكتور محمد سيد طنطاوي - لانتهاء

عمله فى الجامعة الاسلامية قبل انتهاء الرسالة - أشكره على ماقدمه لى فضيلته من أوقاته الغالية ، ونصائحه المخلصة ، وتوجيهاته السديدة وملاحظاته القيمة .فجزاه الله خير الجزاء وشكر له سعيه . .

كما أتقدم بالشكر الى كل من أسهم فىانجاز هذه الرسالة من الاخوة والاصدقاء المخلصين لما قدموه لى من مشورة علمية ونصائح طيبة فأجزل الله مثوبتهم .

وأشكر القائمين على قسم الدراسات العليا من أساتذة ورئيس القسم ووكيله وأمين المكتبة وكل العاملين بالقسم لما لاقيته منهم من صدق واخلاص فى العمل ورحابة الصدر وحب الخير لكل طالب . .

وأخيرا أشكر الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة على ماهيئت لى ولكثير من أمثالى من فرصة ثمينة للدراسة فيها فترة طويلة ، مع تسهيل وتوفير وسائل الدراسة ، فجزا الله القائمين عليها خير الجزاء ، وسدد خطاهم ووفقهم لما يحبه ويرضاه . . انه سميع مجيب)

المقدمة

" بسم الله الرحمن الرحيم "

= * =

المقدمة :

== * ==

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخليله وصفوته من خلقه صلوات الله وسلامه عليه وعلى أصحابه وأتباعه الى يوم الدين . . . أما بعد :

فان الله سبحانه وتعالى أنعم على هذه الأمة بانزال كتابه الكريم " الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " (١) ، على أفضل رسله وخاتم أنبيائه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فهدى به من الضلال ، وأخرج به من الظلمات الى النور . ، فسعادة الناس فى دنياهم واخراهم متوقفة على اتباعه والايمان به والعمل بمقتضى أحكامه .

وقد أنزل الله - تعالى - هذا القرآن على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم لمقاصد عالية وحكم سامية وأغراض . . .

من أهمها أن يكون هذا القرآن هداية للانس والجن فى كل زمان ومكان الى الصراط المستقيم ، والى السعادة التى تصبوا اليها النفوس وتتطلع اليها الأفئدة والقلوب .

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٤٣) .

وقد أودع الله - تعالى - فى هذا الكتاب من العقائد السليمة والعبادات القويمة ، والأحكام الجليلة ، والآداب الفاضلة ، والتوجيهات الحكيمة ما به قوام الملة الكاملة ، والأمة الفاضلة ، والجماعة الراشدة ، والفرد السليم فى عقيدته وسلوكه ، وفى كل شئونه ، فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية ، وأوفاها بحاجة البشرية وأجمعها للخير ، وأبقاها على الدهر وأعمها وأتمها وأوضحها فى هدايته للناس الى مايصلحهم فى معاشهم ومعادهم

قال الله - عز وجل - : " ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا " (١) .

وقال - تعالى - : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم " (٢) .

وقال - تعالى - : " قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا " (٣)

وكذلك من أهم المقاصد التى من أجلها أنزل الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم هذا القرآن : أن يكون هذا القرآن معجزة ناطقة يصدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولقد جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى الناس فدعاهم الى وحدانية الله ، والى مكارم الاخلاق ، وكان أكبر معجزته هذا القرآن الذى تحدى به

---

(١) سورة الاسراء : الآية (٩) .
(٢) سورة المائدة : الآية (١٥ - ١٦) .
(٣) سورة الجن : الآية (١ - ٢) .

بلغاء العرب بأن يأتوا بعشر سور من مثله أوسورة واحدة من مثله فأخرسوا وانقلبوا صاغرين ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "[1] .

قال الله - جل ذكره - : " وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين"[2]

هذه من أهم المقاصد والحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم : ان يكون هداية للناس ، وأن يكون معجزة خالدة باقية شاهدة بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه .

ولقد تكفل الله - تعالى - بحفظ هذا القرآن وصيانته من التحريف والتبديل والتغيير ، قال - تعالى - " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون"[3]

وكان من مظاهر عنايته - سبحانه - بكتابه ان جعله محفوظا فى كل العصور بالتواتر الصادق القاطع ، يرويه الخلف عن السلف بالكيفية المروية عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وان وفق له فى كل عصر حفاظا متقنين جمعوه فى صدورهم وعمروا به ليلهم ونهارهم .

وان فيض له رجالا قضوا معظم أيام حياتهم فى خدمته ودراسة علومه فمنهم من كتب فى اعجازه وبلاغته ، ومنهم من كتب فى قصصه وأخباره ، ومنهم

---

(١) سورة النساء : الآية : (٨٢) .
(٢) سورة البقرة : الآية (٢٣ - ٢٤) .
(٣) سورة الحجر : الآية (٩) .

من كتب نزوله ، ومنهم من كتب في قراءته ورسمه ، ومنهم من كتب في محكمه ومتشابهه ، ومنهم من كتب في ناسخه ومنسوخه . . .

الى غير ذلك من ألوان علومه .

كما كتب كثير منهم في تفسيره ، وتوضيح معانيه ومقاصده وألفاظه ، وذلك لأن سعادة الأفراد والأمم لا تتأتى الا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وتوجيهاته ، وهذا الاسترشاد لا يتحقق الا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عليه ألفاظ القرآن ، وهو مايسمى بعلم التفسير .

فتفسير القرآن هو المفتاح الذى يكشف عن تلك الهدايات السامية والتوجيهات النافعة ، والكنوز الثمينة التى احتواها هذا الكتاب الكريم وبدون تفسير القرآن تفسيرا صحيحا لا يمكن الوصول الى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات وتوجيهات ، مهما قرأه القارئون ورد و ألفاظه المرددون .

قال اياس بن معاوية : مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا ، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة لأنهم لا يدرون مافى الكتاب ، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤا مافى الكتاب[1] .

ويكفى أهل تفسير القرآن شرفا الذين يقومون بمهمة تبصير الناس بهذا القرآن ودعوتهم اليه يكفيهم شرفا قول الله - تعالى - " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا . . . "[2]

---

(١) أنظر : تفسير القرطبي جـ ١ / ص ٢٦ .

(٢) سورة فاطر : الآية (٣٢) .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه "[1]

وقوله عليه الصلاة والسلام : " أهل القرآن هم أهل الله وخاصته "[2] جعلنا الله منهم بمنه وكرمه ، ونظرا لأهمية التفسير ومكانته بين سائر العلوم فقد رأينا ان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشطوا منذ فجر الاسلام الى دراسة القرآن وتفسيره ، قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لا يجاوزونها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل فتعلمنا العلم والعمل جميعا[3] .

وكان أحدهم يمكث على حفظ السورة الواحدة سنين ، كما روى ابن عمر أنه أقام على حفظ سورة البقرة ثماني سنين ، ولا يعقل أنه مكث على حفظ ألفاظها بهذه المدة ، وانما الذي يستدعي هذه المدة هو فهم معانيها واستنباط أحكامها وحكمها .

وقد تلقى التابعون القرآن الكريم بمثل هذا الاهتمام ، يدل على ذلك قول مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت[4] .

---

(١) أخرجه البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتاب فضائل القرآن من صحيحه : ج ٣ ص/ ٢٢٢ .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ج ١ ص ٩٣ بحاشية السندي ، ورواه الحاكم في مستدركه : ج ١ ص / ٥٥٦ .

(٣) أنظر تفسير ابن جرير الطبري : ج ١ ص / ٢٨ .

(٤) أنظر تهذيب التهذيب : ج ١٠ / ص ٤٣ .

وهكذا كان القرآن وتفسيره يتلقى بهذا الاهتمام فى مر العصور يأخذه كل جيل عن الجيل الذى سبقه .

ان هذا القرآن قد خدمه العلماء عن طريق تفسيره خدمة لم ولن تتأتى لكتاب آخر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء الذين قاموا بخدمة القرآن الكريم عن طريق تفسيره : الامام ابن جرير والامام ابن كثير .

والذى يراجع بتأمل وتدبر تفسير ابن كثير يراه قد استفاد كثيرا ممن سبقوه ولا سيما ابن جرير الطبرى .

الا أننى بطالعتى لتفسير ابن كثير أراه أنه مع استفادته من تفسير ابن جرير لم يسلم له كل ماقاله ، وانما تارة يؤيده ، وتارة يعارضه - هذا موضوع بحثنا - وهذا ليس بدعا من ابن كثير - رحمه الله - فان الله تعالى قد خلق العقول متفاوته ، ومختلفة فى اتجاهاتها وفى ميولها وفيما تحبه وفيما تكرهه .

وصدق الله اذ يقول : " ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم "[1] .

واستدراكات ابن كثير على ابن جرير - رحمهما الله - تمتاز بالموضوعية وبالأدب الذى هباه الله - تعالى - للعلماء ، فابن كثير يجل شيخه ابن جرير ويحترمه مع مخالفته له فى كثير من الأحيان .

---

(١) سورة هود : الآية (١١٩) .

((سبب اختياري لهذا الموضوع))

ولقد كان من أسباب اختياري لهذا الموضوع هو أنني لما أردت الالتحاق بقسم الدراسات العليا في سنة ١٣٩٧هـ كان هناك لجنة مكونة من قبل الجامعة لاختيار الطلاب المستحقين للالتحاق بهذا القسم .

فلما دخلت الى اللجنة كان أول سؤال طرحه على المرحوم الدكتور أمين المصري هو : ماذا تعرف عن تفسير الطبري ، وتفسير ابن كثير وما الفرق بينهما ؟

وكان السؤال مفاجئا بالنسبة لي ، لأنني - حقيقة - لم أكن أعرف عن هذين التفسيرين غير اسميهما ، وكنا في الكلية لا نهتم الا بتفسير واحد فقط وهو فتح القدير للشوكاني ، لكونه مقررا في السنة الأولى الى السنة الرابعة .

وبعد هذه المقابلة قررت أن اطلع على هذين التفسيرين لعلي بذلك أستطيع أن أجيب على ذلك السؤال الذي فوجئت به .

وبعد اطلاعي عليهما وجدت انهما من أعظم التفاسير قاطبة بما يتميزان به من التزام بمنهج السلف الصالح في تفسيريهما .

الا أنني لاحظت بعد التدقيق والمقارنة بين التفسيرين ان ابن كثير كثيرا مايستدرك على ابن جرير في تفسيره في كثير من المجالات ، وخاصة فيما يتعلق بتفسير معاني الآيات .

ولذا أحببت أن تكون رسالتي التي أتقدم بها للحصول على شهادة العالمية العالية " الدكتوراه " في شعبة التفسير في موضوع اخترت له هذا العنوان " استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره " .

وأقصد من وراء ذلك تتبع هذه الاستدراكات والمعارضات ثم الحكم والبيان بما أراه صوابا فيما ذهب اليه كل من الشيخين الكبيرين .

خطة البحث: ولقد رتبت هذا الموضوع على ثلاثة أبواب : -

أما الباب الأول فقد جعلته لترجمة الامام محمد بن جرير الطبرى ويتكون هذا الباب من تسعة فصول :

تحدثت فى الفصل الأول عن نسبه ومولده ، وفى الفصل الثانى عن حياته العلمية ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن مكانته العلمية وثناء العلماء عليه ، وفى الفصل الرابع تحدثت عن شيوخه ، وفى الفصل الخامس عن تلاميذه ، وفى الفصل السادس تحدثت عن مؤلفاته ، وفى الفصل السابع تحدثت عن مذهبه الفقهية ، وفى الفصل الثامن تحدثت عن عقيدته وأما الفصل التاسع فقد خصصته للكلام فى تفسيره ومنهجه فى ذلك .

وأما الباب الثانى : فقد جعلته كذلك لترجمة الامام اسماعيل ابن كثير ، ويتكون هذا الباب من ثمانية فصول : -

تحدثت فى الفصل الأول عن نسبه ومولده ، وفى الفصل الثانى عن حياته العلمية ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن مكانته العلمية وثناء العلماء عليه وفى الفصل الرابع تحدثت عن شيوخه ، وفى الفصل الخامس عن تلاميذه وفى الفصل السادس تحدثت عن مذهبه الفقهية ، وفى الفصل السابع عن عقيدته ، وأما الفصل الثامن فقد خصصته للكلام فى تفسيره ومنهجه فى ذلك ، كما خصصت فصلا تاسعا للمقارنة بين التفسيرين .

وأما الباب الثالث فقد خصصته للاستدراكات التى استدركها ابن كثير على ابن جرير فى تفسيره .

وهذه الاستدراكات - حقيقة - تنقسم الى قسمين : -

أولا : استدراكات تتعلق بسند الحديث ومتنه .

ثانيا : استدراكات تتعلق بتفسير الآيات .

وقد اهتممت فى بحثى هذا بالقسم الثانى اهتماما خاصا ، لأن القسم الأول فيما أظن أكثر الصاقا بزملائنا طلاب شعبة السنة ، ومع ذلك فانى لم أغفل هذا القسم ، وانما سقت له الكثير من النماذج والأمثلة المتنوعة .

ولقد سلكت فى كتابتى لهذه الرسالة مسلكا أرجو ان يكون نافعا ، وهو انى أنقل كلام ابن جرير ، كما أنقل كلام ابن كثير فى المسألة التى حصل فيها الاستدراك ، ثم أقارن بين الرأيين مقارنة موضوعية ، ثم أحكم بعد ذلك بالحكم الذى أراه مناسبا مع التعليل والتدليل على صحة ماذهبت اليه .

والقارئ الكريم يرانى تارة أرجح ماذهب اليه ابن جرير ، وتارة أرجح ماذهب اليه ابن كثير .

وسندى الوحيد فى الترجيح هو ما أيدته الأدلة سواء أكانت نقلية أم عقلية دون أن أنحاز الى أحدهما بأى لون من ألوان الانحياز . .

ولقد بذلت أقصى ما أستطيع بذله لمن جهد لكى أحكم على تلك الاستدراكات حكما صادقا أمينا .

فان كنت قد أصبت فى ذلك فهذا من فضل الله وتوفيقه ، وان كانت الأخرى فأرجو أن أكون مأجورا بسبب اجتهادى فى نقل الخير والنفع عن هذين الامامين الجليلين .

الباب الاول

((البـــاب الأولـــ))

= * =

"" ترجمة ابن جرير للطبرى ""

=== * * ===

الفصل الأول :

---------- نسبه ومولـده :

هـو : محمد بن جرير بن يزيد ، والى جده اتفق المؤرخون فى نسبه ثم اختلفوا :

فمنهم من قال : "يزيـد" هذا هو ابن كثير بن غالب ، وعلى هـذا الرأى جمهرة من المؤرخين (١) .

ومنهم من يرى أن "يزيد" هو ابن خالد ، وعلى رأس هؤلاء "ابـــن خلكان فى وفيـاته (٢) .

على ان الطبرى نفسه لم يكن يزيد فى نسبه اسما آخر على أبيه فقـــد سئل يوما عن نسبه فقال : محمد بن جرير ، فقال السائل : زدنا فى النسب فأنشده قول روبة بن العجاج :

فقد رفع العجاج ذكرى فادعنى باسمى اذ الانساب طالت يكفـــنى (٣)

---

(١) معجم الادباء جـ/١٨ ص/٤٠ ، وطبقات الشافعية جـ/٢ ص/١٢٥ ، وتاريخ بغداد جـ/٢ ص/١٦٢ ، والبداية والنهاية جـ/١١ ص/١٤٥ والانساب للسمعانى ص/٣٦٧ ، انباء الرواة جـ/٣ ص/٨٩ .

(٢) وفيات الاعيان جـ/٤ ص/١٩١ ، انظر الفهرس ص/٢٢٤ .

(٣) معجم الادباء جـ/١٨ ص/٤٧ .

وكان مولده في نهاية سنة ٢٢٤ هجرية أو في مستهل سنة ٢٢٥ .

وقد وضح الطبري سبب هذا الخلاف عندما سأله تلميذه أبو بكر بن كامل قائلا له : كيف وقع لك الشك في ذلك ؟ فقال : كان أهل بلدنا يؤرخون بالاحداث دون السنين فأرخ مولدي بحادث كان في البلد ، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون ، قال بعضهم كان ذلك في آخر سنة أربع وعشرين ومائتين ، وقال آخرون : بل ذلك كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين [1] ، والقول المجمع عليه هو أنه ولد رحمه الله بآمل من مقاطعة طبرستان [2] .

---

(١) طبقات الشافعية ج/٢ ص/١٢٥ ، ولسان الميزان ج / ٥ ص/١٠٢ .

(٢) آمل : بضم الميم ، وطبرستان : بفتح أوله وثانيه وكسر الراء ، وهي مؤلفة من مقطعين : "طبر" وهي آلة من آلات الحرب التي اشتهرت بصنعها تلك المنطقة ، و"ستان" معناها : الارض ، والطبر نوع من السلاح يشبه الفأس ، ومعنى "الطبرستان" : بلاد الاطبار وموضع الاطبار .

انظر : الرائد ص/٩٦٢ .

((الفصل الثانى))

= * =

" حيـــاته العلميـــه "

=== * ===

بدت على الامام الطبرى مخايل الذكاء وعلامات النجابة منذ الصغر ، وهذا ماجعل والده يهيئه للعلم ويهيئ له أسباب الاتصال بالعلماء والاخذ عنهـــم وفوق ذلك فقد رأى له والده رؤيا كانت حافزة للطبرى على البحث والدرس وفـــى ذلك يقول : " رأى لى أبى فى النوم اننى بين يدى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، وكـان معى مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمى بين يديه ، فقال لـــــه المعبر : أنه ان كبر نصح فى دينه وذب عن شريعته فحرص أبى على معونـــتى على طلب العلم ، وأنا حينئذ صبى صـغير "[1] .

ثم حكى ابن جرير عن نهوضه المبكر وقوة حفظه واقباله على العلم وهو لـــم يتجاوز بعد مرحلة الصبا فيقول : " حفظت القرآن ولى سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ... "[2] .

لقد نشط الطبرى فى طلب العلم والسفر من أجله وهو ابن اثنتى عشـــرة سنة[3] ، وكان والده يملك ضيعة كبيرة ويرسل له نفقته أينما حل ، فكفـــــاه بذلك مؤنة البحث عن الرزق وامتداح الخلفاء والامراء .

وكانت أولى رحلاته الى الرى وماجاورها والتقى بكثير من العلماء ، وكتـب كثيرا عن محمد بن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الأبلى ، ويقول الطـــبرى

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ / ص ٤٩ .
(٢) المرجع السابق والجزء والصفحة .
(٣) لسان الميزان لابن حجر : ج ٥ / ص ١٠٢ .

في ذلك : " كنا نكتب عن ابن حميد فيخرج الينا في الليل مرات ويسألنا عما كتبناه ويقرؤه علينا "[١] .

وفي هذه المنطقة درس التاريخ على محمد بن أحمد بن حماد الدولابي مع حرصه الشديد على مجالس ابن حميد ، قال : " كنا نمضي الى أحمد بن حماد الدولابي ، وكان في قرية من قرى الري ، ثم نعدو كالمجانيين حتى نعود الى ابن حميد فنلحق مجلسه "[٢] ، فقد أخذ عنه مايزيد عن مائة ألف حديث مع دراسة التفسير أيضا عليه[٣] .

وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالري ، ومغازي محمد بن اسحاق عن سلمة بن الفضل وعليها بنى تاريخه فيما بعد .

ولما كان الامام أحمد بن حنبل - رحمه الله - قد ظهر علمه وسارت الركبان بأخباره فقد شخص الطبري الى بغداد ليتتلمذ على الامام أحمد ولكن المنية عاجلت الامام قبل دخوله اليها وبموت الامام ذبلت آمال الطبري للوصول الى بغداد ، وحول وجهة شطر البصرة ، ولم يثن عزيمته الجبارة موت الامام أحمد بل سار في طريق تحفة الرحمة وتضع له الملائكة أجنحتها رضى بما يصنع .

وسمع من بعض علماء البصرة الشيء الكثير منهم محمد بن موسى الحرشي وعمار بن موسى القزاز ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني وبشر بن معاذ وأبي والاشعث ومحمد بن بشار المعروف ببندار ومحمد بن المثنى وغيرهم .

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ / ص ٥٠ .
(٢) المرجع السابق والجزء والصفحة .
(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة .

وانتقل بعدها الى واسط فسمع من شيوخها ، ثم انتقل الى الكوفه وفيها التقى بامام السنة أبي كريب محمد بن العلاء الهمدانى ، واسماعيل ابن موسى وهناد السرى ، وأخذ عن الجميع الحديث ، كما أخذ القراءات على الشيخ سليمان الطلحى .

ويتبين زملاؤه فى الكوفة أنه اقدرهم وأحفظهم ، ثم يتبين أبو كريب ان الطبرى أنبغهم ، فقد كان أبو كريب من كبار علماء الحديث ، لكن كانت فيه شدة ، وقد وصف الطبرى لقاءه لتلاميذه مرة فقال : " حضرت الى داره مع طلاب الحديث ، فاطلع من باب خوخة له ، وطلاب الحديث يلتمسون الدخول ويصيحون ، فقال : أيكم يحفظ ماكتبه عنى ؟ فالتفت بعضهم الى بعض ، ثم نظروا الى وقالوا : أنت تحفظ ماكتبت عنه ؟ قلت : نعم ، قالوا : هذا فاسأله ، فقلت : حدثنا فى كذا بكذا وفى يوم كذا بكذا فأخذ أبو كريب يسألنى الى ان عظمت فى نفسه ، فقال لى : ادخل الى ، فدخلت فمكننى من حديثه " [1] .

ويقال انه سمع من أبى كريب أكثر من مائة ألف حديث ، ثم ودع الطبرى الكوفة متوجها نحو بغداد والتقى بالشيخ أحمد بن يوسف التغلبى وقرأ عليه قراءات القرآن الكريم ، وتفقه الشافعى عن الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى ، وكذلك عن الشيخ أبى سعيد الاصطخرى وغيرهما [2] .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١٨ / ص ٥٣ .

وبعد هذه الجولة المباركة عزم على أن يتوجه الى مصر ، فانه مازال يسمع عنها وهو فى بلاد المشرق الشئ الكثير مع أنه ذلك الرجل أوقف نفسه ووقته وجهده فى سبيل العلم والتحصيل ، فتوجه صوبها .

وفى طريقه مر بالشام فأقام بها أياما اتصل فيها بمقرئ الشاميين الشيخ العباس بن الوليد البيروتى فأخذ عنه القرآن بقراءة الشاميين .

ثم توجه الى مصر ووصل اليها سنة ثلاث وخمسين ومائتين فى أوائل عهد أحمد بن طولون [1] ، وكان بها بقية الشيوخ وأهل العلم فأكثر عنهم الكتابة ، ثم رجع الى الشام ولما حقق فيها أهدافه عاد الى مصر وذلك سنة ٢٥٦ هجرية .

وكان بمصر وقت دخوله اليها أبو الحسن على بن سراج المصرى وكان أديبا فاضلا ، وكان جميع من دخل مصر من أهل العلم اذا ورد لقيه وتعرض له فوافى أبو جعفر الى مصر وبان فضله فى القرآن والفقه والحديث واللغة والنحو والشعر ، فلقيه أبو الحسن بن سراج فوجده طما بكل هذه الفنون محيطا بها حتى سأله عن شعر الطرماح بن حكيم ، وكانت مصر خالية ممن يحفظه فاذا بالطبرى يحفظه فطلب منه أن يمليه ويشرح غريبه فأملاه عند بيت المال فى الجامع .

---

(١) هذا ماقاله الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه " الطبرى " ص/ ٣٢ الا ان الحافظ ابن كثير ذكر فى تاريخه أن أحمد بن طولون ولى الديار المصرية سنة أربع وخمسين ومائتين . (أنظر البداية والنهاية جـ ١١ / ص ١٤ والكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٧ /ص ١٨٧) .

وفيها التقى بالشيخ الربيع بن سليمان بن داود الجيزى أبى محمد الأزدى ، فأخذ عنه فقه الشافعية ، وأخذ فقه مالك عن تلاميذ بن وهب كما لقى يونس بن عبد الأعلى الصدفى شيخ القراء بمصر ، فأخذ عنه قراءة حمزة وورش .

وقد ناقش الطبرى أسماعيل المزنى فى عديد من المسائل منها الكلام فى الاجماع فظهر فضل الطبرى وتفوقه على المزنى ، ولذلك يقول أحد تلاميذ الطبرى : فلا تسأل كيف استظهاره عليه ؟ يقول أبو بكر بن كامل : سألت أبا جعفر عن المسألة التى تناظر فيها هو والمزنى فلم يذكرها لأنه كان أفضل من أن يرفع نفسه وان يذكر ظفره على خصم فى مسألة ، وكان يفضل المزنى فيطريه ويذكر دينه (١) .

أقام الطبرى بمصر سنوات قضى منها وطره وحقق أهدافه واشبع نهمه وتزود بما كان ينشده من العلم والمعرفة رجع بعدها الى بغداد ثم قصد طبرستان مسقط رأسه وديار آبائه ، ولكن حنينه الى ديار العلم وحلقات الدرس كان أشد فغادر موطنه متوجها الى بغداد .

وفى عام ٢٩٠ هـ توجه صوب طبرستان للمرة الثانية ومكث فيها ماشاء الله أن يمكث ، ثم توجه الى بغداد فألقى عصا الترحال ، وبها أقام حتى وافته منيته عام ٣١٠هـ . رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٥٤ .

((الفصل الثالث))

= * =

"" مكانته العلمية وثناء العلماء عليه ""

==== ** ===

ليس بنا من حاجة لبيان مكانة ابن جرير العلمية ، وما تميز به من مزايا يندر ان توجد في غيره .

اذ بعد الجهاد الطويل المتواصل في سبيل العلم والمعرفة أصبح — مفسرنا اماما عالما ، محدثا كبيرا ، مفسرا جليلا ، مؤرخا شهيرا ، فقيها قديرا ، غزير العلم والمعرفة ، عميق الفكر ، مستقل الرأى .

ومن تتبع تاريخ ابن جرير يجد أنه تلقى على الكبار علماء عصره وسمع من الشيوخ الثقاة الذين مر ذكر بعضهم ، وهناك كثير غيرهم من أصحاب الاسانيد العالية بمصر والشام وبغداد والكوفة والبصرى والرى .

فلا عجب اذن ان تنوعت نواحى ثقافته العلمية من تفسير وحديث وفقه وتاريخ ، وتعددت ميادين نشاطه العلمية من تدريس وتأليف .

ومما يدل أيضا على مكانته العلمية هو أنه لما أراد الخليفة المقتدر في بعض الأيام ان يكتب كتاب وقف تكون شروطه متفقا عليها بين العلماء فقيل له : لا يقدر على استحضار ذلك الا محمد بن جرير الطبرى ، فطلب منه ذلك فكتب له فاستدعاه الخليفة اليه وقرب منزلته عنده وقال له : سل حاجتك ، فقال : لا حاجة لى ، فقال : لابد ان تسألنى حاجة أو شيئا ، فقال : اسأل من أمير المؤمنين أن يتقدم أمره الى الشرطه حتى يمنعوا السؤال يوم الجمعة أن يدخلوا الى مقصورة الجامع ، فأمر الخليفة

بذلك وكان ينفق على نفسه من منزل قرية تركها له أبوه بطبرستان [١] .

وقد أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومترجموه وأجمعوا على الاشادة بحفظه وذكائه ، وعلو كعبه فى التفسير والتاريخ والفقه والنحو وغيرها ، كما أشاروا الى صدق لهجته واعتداله ، وسرعة خاطره ، وحسن مفاكهته ، وجم مروءته وخلقة الحسن الطيب .

فوصفه ابن النقديم بـ " علامة وقته وامام عصره وفقيه زمانه " [٢]

وقال عنه الذهبى : " محمد ابن جرير بن يزيد الطبرى : الامام الجليل المفسر أبو جعفر صاحب التصانيف الباهرة ثقة صادق " [٣] .

وقال عنه الحافظ ابن كثير : " كان من العباده والزهادة والورع والقيام فى الحق لا تأخذه فى ذلك لومة لائم ، وكان حسن الصوت بالقراءة مع معرفته التامة بالقراءات على أحسن الصفات وكان من كبار الصالحين [٤] .

وقال عنه أبو العباس سريج : " محمد بن جرير فقيه عالم " [٥]

وأما الخطيب البغدادى فقد وصف ابن جرير بأنه " كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ويرجع الى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم مالم يشاركه أحد من أهل عصره ، وكان حافظا لكتاب الله عارفا بالقراءات بصيرا بالمعانى ، فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : جـ ١١ / ص ١٤٦ .
(٢) الفهرست لابن النديم : ص / ٢٣٦ .
(٣) ميزان الاعتدال للذهبى : جـ ٣ / ص ٤٩٨ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير : جـ ١١ / ص ١٤٦ .
(٥) طبقات الشافعية : جـ ٢ / ص ١٣٧ .

من الخالفين فى الأحكام ومسائل الحلال والحرام ، عارفا بأيام الناس وأخبارهم[1]

وقال عنه ابن خلكان : " أنه كان من الأئمة المجتهدين ، لم يقلد أحد "[2].

كما نقل ان الشيخ أبا اسحاق الشيرازى ذكر الطبرى فى طبقات الفقهاء فى جمله المجتهدين[3].

هذا هو الامام ابن جرير الطبرى وهذه هى نظرات العلماء اليه وذلك حكمها عليه ، ومن كل ذلك يتبين لنا قيمته ومكانته العلمية .

---

(١) تاريخ بغداد : جـ ٢ / ص ١٦٣ .

(٢) وفيات الأعيان : جـ ٤ / ص ١٩١ ، طبع سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، دار صادر - بيروت / لبنان .

(٣) أنظر : التفسير والمفسرون للذهبى : جـ ١ / ص ٢٠٦ .

((الفصل الرابـــع))

= * =

"" شيوخ ابن جرير الطبرى ""

=== ** ===

التقى الطبرى بالمئات من العلماء اثناء رحلاته المباركة الى حواضـــر العالم الاسلامى ، واستقى منهم المادة التى جمع منها تفسيره ، وقد مـــــر الحديث عن بعضهم ، وسنذكر فيما يلى تعريفا اجماليا ببعض شيوخ ابن جرير مرتبة أسماؤهم حسب سنى وفاتهم : -

١ - محمد بن حميد بن حيان التميمى الحافظ أبو عبد الله الرازى المتوفى سنة ٢٤٨هـ .

روى عن يعقوب القمى وابن المبارك وجرير وغيرهم ، حدث عنه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبغدادى ، قال عنه عبد الله بن أحمـــــد : سمعت أبى يقول : لا يزال بالرى علم مادام محمد بن حميد حيا .

وقال أبو زرعة : من فاته ابن حميد احتاج ان ينزل فى عشرة آلاف حديث .

وقال ابن معين : ثقة كيس ، وقال البخارى : فيه نظر . .

وقال عنه الذهبى : هو من بحور العلم ، لكنه غير معتمد يأتى بمناكير كثيره (١) .

ويقول الشيخ أحمد شاكر : وأنكروا عليه أحاديث وأجاب عنه ابن معين بأن " هذه الأحاديث التى يحدث بها ليس هو من قبله ، وانما هو مـــن

---

(١) تذكرة الحفاظ : جـ ٢ / ص ٤٩٠ ، وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ٣٣٣ .

قبله ، وانما هو من قبل الشيخ الذى يحدث به عنهم " .

وقال الخليلى : كان حافظا عالما بهذا الشأن رضيه أحمد ويحيى وعرض عبد الله بن أحمد على أبيه ماكتبه عنه فقال : أما حديثه عن ابن المبارك وجرير فصحيح ، وأما حديثه عن أهل الرى فهو به أعلم[1] وقد بلغ ما أخذه عنه الطبرى من الحديث مائة ألف حديث الى جانب التفسير[2] .

٢ - محمد بن العلاء بن كريب الهمذانى الكوفى الحافظ الثقة شيخ الجماعة المتوفى سنة ٢٤٨ هـ .

سمع ابن عيينة وابن المبارك وهشيما وعمرو بن عبيد وحاتم بن اسماعيل وغيرهم من طبقتهم .

وروى عنه عبد الله بن أحمد والفريابى وابن خزيمة وأبو عروبة ومحمد ابن القاسم المحاربى وخلق كثير .

قال عنه ابن نمير : ما بالعراق أحد أكثر حديثا من ابن كريب ولا أعرف بحديث بلدنا منه .

وكان ابن عقدة يقدم أبا كريب فى الحفظ والكثرة على جميع مشايخهم ويقول : ظهر له فى الكوفة ثلاثمائة ألف حديث .

وقال موسى بن اسحاق : سمعت من أبى كريب مائة ألف حديث .

وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال الحاكم : سمعت أبا الفضل محمد

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٣ / ص ١٨١ هامش .

(٢) أنظر معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٥٠ .

ابراهيم سمعت ابراهيم بن أبي طالب يقول : قال لي محمد بن يحيى من أحفظ من رأيت بالعراق ؟ قلت : لم أر بعد أحمد مثل أبي كريب .

وقال أبو عمرو النيسابوري الحفاف : ما رأيت في المشايخ بعد ابن راهوية أحفظ من أبي كريب .

وقال النسائي : لا بأس به ، وفي موضع آخر : ثقه [1] .

وبلغ ما أخذ عنه الطبري مائة ألف حديث [2] .

٣ - محمد بن بشار بن عثمان العبدي البصري أبو بكر الحافظ وهو أحد أوعية العلم والسنة المتوفى سنة ٢٥٢ هـ .

روى عن المعتمر ويزيد بن زريع وغندر ويحيى القطان وجماعة من طبقتهم .

وروى عنه ابن خزيمة وابن صاعد وابن أبي داود وغيرهم . .

قال الخطيب : كان يحفظ حديثه ، وكان ابن خزيمة يقول : حدثنا الامام محمد بن بشار .

وقال العجلي : بندار [3] ثقة كثير الحديث ، وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال النسائي : لا بأس به ، وقال الذهبي : انعقد الاجماع بعد على الاحتجاج ببندار [4] .

وقد ذكره السبكي في طبقاته من شيوخ ابن جرير الطبري [5] .

---

(١) أنظر تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٤٩٧ وخلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥٥ .

(٢) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٥٢ .

(٣) وكان يلقب محمد بن بشار ببندار .

(٤) خلاصة تذهيب الكمال : ص ٣٢٨ .

(٥) أنظر طبقات الشافعية الكبرى : جـ ٣ / هامش رقم ١ ص ١٢١ .

٤ - محمد بن المثنى الحافظ الحجة أبو موسى العنزى محدث البصـــرة المتوفى سنة ٢٥٢هـ .

سمع يزيد بن زريع و بحتمر بن سليمان وسفيان بن عيينـــة .

روى عنه النسائى وابن ماجه وابن خزيمة والمحاملى وغيرهـــم . .

قال عنه أبو عروبة الحرانى : ما رأيت بالبصرة أثبت من أبى موســـى ويحيى ابن حكيم ، وقال عنه محمد بن يحيى : حجة .

وقال النسائى : لا بأس به ، وقال أبو حاتم : صالح الحديث صدوق (١) .

وأضافة الى هؤلاء العلماء الافاضل سمع ابن جرير من أحمد بـــن المقدام بن سليمان الاشعث العجلى المتوفى سنة ٢٥٣هـ ، والربيـع ابن سليمان الأزدى المتوفى سنة ٢٥٦هـ وأخذ عنه فقه الشافعى بمصر كما سمع من الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى أبو على البغدادى المتوفى سنة ٢٦٠هـ وأخذ عنه فقه الشافعى ببغداد ، وسمع كذلـــك من عبيد الله بن عبد الكريم مروخ المخزومى المتوفى سنة ٢٦٤هـ ، - ويونس بن عبد الأعلى الصدفى أحد الاعلام المشهورين المتوفى سنة ٢٦٤هـ ومن شيوخه فى النحو والأدب واللغة : أحمد بن يحيى ثعلب امـــام نحاة الكوفه فى عصره المتوفى سنة ٢٩١هـ .

وهناك شيوخ آخرون تلقى الامام الطبرى العلم على أيديهم ، وقد اكتفينا بذكر من ذكرنا خشية اطالة البحث .

---

(١) أنظر تهذيب التهذيب : ج ٩ / ص ٤٢٥ - ٤٢٧ .

((الفصل الخامس))

= * =

تلاميـــــــذه

—

لعل فى ذكر بعض أسماء تلاميذه تقع الاستفاده أولا لمعرفة الطريـق التى عنها وصلتنا مؤلفاته ، وتفسيره لكتاب الله خاصة ، ثم الادراك مدى تأثير ابن جرير فى المحافل العلمية ، ما كان منها مختصا بالتفسير والحديث والتاريخ وما كان منها مختصا باللغة والأدب ثانيا ، وأخيرا لابراز نوعية هذا التأثـــر والتأثير على مر الزمان .

والمتتبع لتاريخ هؤلاء التلاميذ يجد أنهم تأثروا بأستاذهم تأثـــرا بالغا حيث سلك كثير منهم طريق استاذهم فى التأليف ، وفى كثرة الانتاج ويجد بعضهم قد نصبوا أنفسهم للدفاع عن مذهبه ، والملاحاة عن آرائه ، وآخـرون منهم أرخوا حياة استاذهم فى تفصيل تارة وفى اجمال تارة أخرى .

ومن أبرز هؤلاء التلاميذ وأخلصهم لابن جرير الطبرى : -

(١) القاضى أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف المتوفى سنة ٣٥٠هـ ، وقـــد اشتهر بعلمه فى الفقه والقراءات والتفسير والأدب والتاريخ ، وله مؤلفات عدة منها : كتاب فى السير ، وكتاب فى غريب القرآن ، وكتاب فى القراءات وكتاب فى التاريخ ، وكتاب الشروط الكبير ، وكتاب المختصر فى الفقـه ، وكتاب جامع الفقه وغيرها ، ولـه كتاب فى الترجمة للطبرى يعد أوفـى كتاب فى تاريخه ، نقل ياقوت معظمه عند ما ترجم للطبرى فى معجـــم الأدبـاء [1] .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٤ /ص ٣٥٧ ، وأنباء الرواة : جـ ١ / ص ٩١ .

(٢) ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن حبيب الطبرى المتوفى سنة لـه كتاب فى التاريخ موصول بكتاب الطبرى ، ضمنه من أخبار أبى جعفر وأصحابه شيئا كثير ، وله كتاب الرسالة ، وكتاب جامع الفقه [١] .

(٣) ومنهم أبو الحسن أحمد بن يحيى بن على بن يحيى ابن أبى منصور المنجم المتكلم ، المتوفى سنة ٣٢٧هـ .

كان أديبا شاعرا فاضلا أحد رؤساء زمانه فى علم الكلام ، وفى العلوم الدينية ، وهو صاحب كتاب " المدخل الى مذهب الطبرى ونصرة مذهبه " ، وكتاب " الاجماع فى الفقه على مذهب أبى جعفر " وكتاب " اخبار بأهلة ونسبهم " و " كتاب الأوقاف " كما أتم كتاب الذى بدأه أبوه المسمى " فى أخبار الشعراء المخضرمين " [٢] .

(٤) ومنهم أبو الفرج المعافى بن زكريا النهروانى القاضى المعروف بابن طراز ، وصفه ابن النديم بأنه كان أوحد عصره فى مذهب أبى جعفر وحفظ كتبه ، وكان متفننا فى علوم كثيرة ، مضطلعا بها ، مشهورا فيها وكان فى الغاية من الذكاة ، وحسن الحفظ وسرعة الخاطر ، وله من الكتب : كتاب " الحدود والعقود فى أصول الفقه " وكتاب " المرشد فى الفقه " وكتاب " المحاضر والسجلات " و " شرح كتاب الخفيف للطبرى " وكتاب الشروط ، وكتاب الرد على داود بن على ، وكتاب القراءات وغيرها [٣] .

---

(١) الفهرست : ص/ ٣٢٨ .

(٢) الوافى بالوفيات للصفدى : جـ ٨ / ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) أنظر الفهرست لابن النديم : ص/ ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٥) ومن هؤلاء التلاميذ أيضا طن بن عبد العزيز بن محمد الدولابـــى مؤلف كتاب القراءات وكتاب أصول الكلام ، وكتاب الأصول الأكـــــبر وكتاب الأصول الأوسط ، وكتاب اثبات الرسالة .

(٦) ومنهم عبد العزيز بن محمد الطبرى ، وقد ألف كتابا فى سيرة الطبرى[1] نقل صاحب معجم الأدباء كثيرا منه أثناء حديثه عن الطبرى .

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعى ومخلد بن جعفر وأبو عمـــر محمد بن أبى الحسيرى ، وأبو شعيب الحرانى ، وعبد الغفار الحصينى وأبو عمرو بن حمدان ، وابن الحداد ، وأبو سلم الكجى[2] ، وغيرهم ممن تتلمذوا عليه ، فانتهجوا نهجه ، وضبطوا بضبطه ، فصار الطابع المميز لكل منهم أنه تخرج فى مدرسة الطبرى .

---

(١) هامش أنباء الرواة : ص/ ٩٠ .

(٢) أنظر الانساب : ص/٣٦٧ ، وطبقات الشافعية : ج ٢ ص ١٣٦ والفهرست : ص/٢٢٥ .

((الفصل السادس))

= * =

مؤلفاتـــــه

اشتهر الطبرى بقوة الحافظة ، ونفاذ البصيرة ، وحدة الذكاء ، . . والانقطاع للعلم ، وقد وضح ذلك كله من خلال دراستنا لتاريخ حياته المباركة لذلك فلا غرابة فى ان تصدر عن هذا الرجل المؤلفات العديدة التى كانت ولا تزال مصدرا هاما من مصادر العلم والمعرفة ، وقد كان لمؤلفاته هـــذه أثرها العميق فى توجيه الفكر الاسلامى بمفهومه الشامل وخدمة الشريعـــــة والدفاع عنها وبيانها فى أوسع نطاق للناس ، وما عطه فى تفسيره القيم ليـــس عنا ببعيد .

ولم يكن انتاجه العلمى عبارة عن جمع من هنا وهناك فحسب بل كـان يعتمد على التحليل الدقيق والاستنباط المتقن ، لـذا فان المطلع يجد فى كتبه من غزارة فى المادة ووفاء بالغرض مايشبع مراده ويفى بغرضه ، وهبه اللـه عقلية متقدة فجمعت ووعت ثم لم تبخل بما أعطاها الله ، فكانت تلك الثـــروة العلمية الضخمة .

فقد مكث الطبرى يكتب أربعين سنة وفى كل يوم يكتب حوالى أربعـــين ورقة [1] ، وقد قسم بعض تلاميذه جميع ما ألفه على مجموع عمره منذ البلوغ الـى الممات فبلغ ما يكتب فى اليوم الواحد خمس عشرة ورقة فى سبعين سنة [2] . .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ /ص ١٦٢ ، أنظر البداية والنهاية لابن كثير جـ ١١ ص ١٤٥

(٢) أنظر غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى جـ ٢ /ص ١٠٨ طبعـة سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م .

وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق الا بحسن عناية الخالق .

واذا كانت هذه المؤلفات قد ضاع أغلبها ولم يبق منها الا القليل فحسبنا كتاباه في التفسير والتاريخ وقد صار بكل واحد منهما اماما يحتذى به ويترسم خطاه وينتفع به كل من يجيء من بعده .. وهذه أسماء مؤلفاته :

١ - جامع البيان في تفسير القرآن :

تفسيره المعروف بـ (تفسير الطبري) وقد أملاه الطبري ببغداد على تلاميذه من سنة ثلاث وثمانين الى تسعين بعد المائتين [1] وقد اختصره جماعة منهم : أبو بكر الأخشيد [2] وغيره .

وترجم الى الفارسية بأمر منصور بن نوح الساماني كما ترجم الى التركية كذلك [2] .

وسنتكلم عن هذا التفسير بشيء من التوسع بعد قليل ..

٢ - تاريخ الأمم والملوك :

تاريخه المشهور ، وقد قسم الطبري الكتاب الى قسمين : -

القسم الأول : تحدث فيه عن بدء الخليقة وعن حقيقة ابليس وتحدث فيه عن آدم ، ومن جاء بعده من الأنبياء والرسل ذاكرا لأخبارهم وما جاء في قصصهم من القرآن الكريم مفصلا القول في تاريخ

[illegible]

صلى الله عليه وسلم وصفته من سيرته [illegible]

---

(١) هذا ما قاله أبو بكر بن بالويه كما جاء في معجم الأدباء جـ ١٨ ص ٦٢ وقال تلميذه أبو بكر بن كامل : أنه قرأه على تلاميذه في سنة سبعين ومائتين ، ومن المعقول ان يكون الطبري قرأه على مجموعتين من تلاميذه

(٢) الفهرست : ص/ ٢٣٥ . (٣) بروكلمان : ٢١٢ ملحقة .

أما القسم الثاني : فهو القسم الاسلامي ، وقد رتبه على حسب السنين وذلك من عام الهجرة حتى نهاية تأليفه الكتاب ، وقد ذكر في كل سنة ما وقع فيها من أحداث هامة ، وكان فراغه من تأليف الكتاب في بداية سنة ثلاثمائة وثلاث للهجرة ، وذلك بعد انتهائه من أملأ التفسير .

٣ - اختلاف الفقهاء :

في الفقه - وقد عرض فيه الفقه الاسلامي عرضا رصينا وبخاصة فقه مالك والشافعي وأبي حنيفة ، وأما أحمد بن حنبل فلم يذكر مذهبه في هذا الكتاب ، لأنه كان يعتبر أحمد محدثا لا فقيها ، وكان الطبري يفضل كتاب الاختلاف وهو من أوائل ماصنف من كتبه ، وكان كثيرا مايقول : لي كتابان لا يستغني عنهما فقيه : الاختلاف واللطيف .

٤ - كتاب ذيل المذيل :

وهو المشتمل على تاريخ من قتل أو مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته أو بعده على ترتيب الأقرب فالأقرب منه أو من قريش من القبائل ، ثم ذكر من مات من التابعين والسلف بعدهم ثم - الخالفين الى أن بلغ شيوخه الذين سمع منهم وجملا من أخبارهم ومذاهبهم ، وتكلم في الذب عمن رمي منهم بمذهب هو منه بريء مثل : الحسن البصري وقتادة وعكرمة وغيرهم .

٥ - لطيف القول في أحكام شرائع الاسلام :

في الفقه - ألفه بعد اختلاف الفقهاء - وفي هذا الكتاب ذكر المسائل التي تفرد بها وحفظت عنه ، وهو من أنفس كتبه ، وكان أبو بكر بن راميل

يقول : " ما على كتاب في مذهب أجود من كتاب اللطيف لأبي جعفر .. "[1]

٦ - الحفيف في أحكام شرائع الاسلام :

وهو مختصر كتاب اللطيف الفه ليسهل تناوله لمن قصرت همته عن المطولات ولمن أحب من الكلام أخصره .

٧ - تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار ، وقد ألفه على ما أداه اليه اجتهاده في الحديث - رتبه ترتيبا عجيبا اذ بدأ بالعشرة فذكر ما روى عنهم ثم تناول ذلك بالتدقيق للسند ، وما فيه من الفقه وغريب المعاني وخلاف الفقهاء مات ولم يتمه .

قال فيه ياقوت : وهو كتاب يتعذر على العلماء على مثله ويصعب عليهم تتمته قال أبو بكر بن كامل : لم أر بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكنه من العلوم منه ، لأني كنت أروض نفسي في على مسند عبد الله بن مسعود في حديث منه نظير ما عمله أبو جعفر فما أحسن عمله ولا يستوي لي[2] .

٨ - بسيط القول في أحكام شرائع الاسلام :

تاريخ للفقه الاسلامي وتطوره وتدرج مراحله مع ذكر بعض أبوابه .

٩ - كتاب آداب القضاة :

وهو أحد الكتب المعدودة المشهورة بالتجويد والتنسيق ، فقد ذكر فيه بعد خطبة الكتاب الكلام في مدح القضاء وما ينبغي للقاضي ان يعمل

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧٣ - ٧٤ .

(٢) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧٥ .

بـه اذا ولى القضاء وتكلم فيه عن السجلات والشهادات والدعـــاوى والبينات ، كما ذكر فيه كيفية ادارة القضاء [١] .

١٠ - كتاب أداب النفس الجيدة والأخلاق النفيسة :

وقد وصفه ياقوت : بأنه من جياد كتبه ، وقد بدأ فيه بالكلام فـــى الوسوسة وأعمال القلوب ثم ذكر شيئا من الدعاء وفضل القرآن وأوقـــات الاجابة ودلائلها ، وماورد من السنن وأقوال الصحابة والتابعين فـــى ذلك ، وتحدث عن الورع والاخلاص والشكر والخشوع والصبر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مات ولم يتمه [٢] .

١١ - كتاب المسند المجرد :

حديث ، قرأه على الناس وهو مما أخذه عن مشائخه .

١٢ - كتاب الرد على ذى الأسفار :

يرد الطبرى فيه على داود بن على الأصبهانى ، وكان سبب تأليف هذا الكتاب أن ابا جعفر كان قد لزم داود بن على مدة وكتب منه كثيرا وجرت مسألة يوما بين داود وبين أبى جعفر فوقف الكلام على داود فشق ذلك على أصحابه وكلم أحدهم أبا جعفر بكلمه مؤلمة فقام من المجلس وعمـــل هذا الكتاب وأخرج منه شيئا بعد شىء الى أن أخرج منه نحو مائـــة ورقة وهو من جيد ما عمله [٣] .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق : جـ ١٨ / ص ٧٧ .

(٣) معجم الأدبـاء : جـ ١٨ / ص ٧٦ .

١٣ - كتاب القراءات وتنزيل القرآن :

ويشتمل على كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام ، وقد تحدث عنه أبو علي الحسن بن علي الاهوازي بقوله : وله في القراءات كتاب جليل كبير رأيته في ثماني عشرة مجلدة الا أنه كان مخلوط كبار ، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشاذة ، وعلل ذلك ووجهه واختار منها قراءة لم يخرج بها المشهور (١) .

١٤ - البصير في معالم الدين :

وهي رسالة صغيرة كتبها الى أهل طبرستان فيما وقع بينهم من الخلاف في الاسم والمسمى وفي مذاهب أهل البدع ، وتقع في نحو ثلاثين ورقة .

١٥ - صريح السنة :

وهي الرسالة التي ذكر فيها مذهبه وعقيدته وما يدين الله به في هذا المجال .

١٦ - فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

حاول فيه أن يصحح حديث غدير خم ثم عقب بفضائل علي ولكنه مات ولم يتمه .

١٧ - فضائل أبي بكر وعمر :

لما علم ان بعض أهل طبرستان بسطوا السنتهم في سبهما ألف هذا الكتاب لبيان فضائل الخليفتين الكبيرين والرد على هؤلاء الروافض .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٤٥ .

وبهذا الكتاب يرد طى من زعم أن أبا جعفر متشيع .

١٨ - فضائل العباس :

ألفه لما طلبه بعض أمراء آل عباس ان يؤلف فى فضل العباس وان يبين فضله ومنزلته .

١٩ - كتاب فى عبارة الرؤيا :

جمع فى أحاديث حول الرؤيا وتعبيرها ثم مات قبل اتمامه .

٢٠ - كتاب مختصر الحج [١] : فى الحج .

٢١ - كتاب مختصر الفرائض [٢] .

٢٢ - كتاب الموجز فى الأصول .

بدأه برسالة الاخلاق - مات - ولم يتمه .

٢٣ - العمود والتنزيل :

ذكره الذهبى [٣] وغيره .

٢٤ - مسند ابن عباس .

٢٥ - كتاب المسترشد [٤] .

٢٦ - اختيار من أقاويل الفقهاء .

٢٧ - طرق الحديث :

وقد تحدث عنه الذهبى بقوله : رأيت مجلدا من طرق الحديث لابن جرير ، فاندهشت له ولكثرة تلك الطرق [٥] .

---

(١) ، (٢) الوافى بالوفيات : جـ ٢ ص/ ٢٨٥ .

(٣) تذكرة الحفاظ : جـ ٢ ص ٧١٢ .

(٤) الفهرست : ص/ ٢٢٧ .

(٥) تذكرة الحفاظ : جـ ٢ / ص ٧١٢ .

٢٨ - كتاب الشروط :

تحدث عنه ياقوت بقوله : وهو من جيد كتبه التى يعول عليها أهل مدينة السلام ، وكان أبو جعفر مقدما فى علم الشروط قيما به [1] .

هذه أهم مؤلفات الامام الطبرى - رحمه الله - وهى مؤلفات تدل على سعة علمه ، ودقة فهمه ، وتنوع ثقافته ، وهناك مؤلفات أخرى غير هذه ولكنى لم أذكرها اكتفاء بذكر ماتقدم .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧٣ .

((الفصل السابع))

= * =

"" مذهبه ""

-

أما مايتعلق بمذهبه فقد عرف أنه درس الفقه على المذاهب كلها ، قرأ : الفقه على داود ، وأخذ فقه الشافعي عن الربيع بن سليمان بمصر وعن الحسن ابن محمد الزعفراني ببغداد ، وأخذ فقه مالك عن يونس بن عبد الأعلى ، وبني الحكم ، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي مقاتل بالري (١) .

غير أنه قد اعتنى بفقه الشافعي وتعمق فيه وأفتى به ، يقول عن نفسه في هذا المذهب : اظهرت فقه الشافعي وأفتيت به ببغداد عشر سنين وتلقاه مني ابن بشار الأحول استاذ أبي العباس بن سريج (٢) .

ثم أداه اجتهاده الى انفراد بمذهب فقهي مستقل سمي بالمذهب الجريري اختص فيه بآراء جديدة واتجاهات تشريعية لم يسبقه اليها سابق وايدها بشواهد من الكتاب والسنة ، غير أنه لم يكتب لهذا المذهب الفقهي الدوام ، وتفرق أصحابه وأتباعه ، وبادت معظم كتبه الفقهية التي دون فيها مذهبه وآراءه الفقهية حسب نظارته اليها واجتهاده فيها .

يقول تلميذه أبو بكر بن كامل : خرج الينا أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد فوجدنا نتناظر في (بسم الله الرحمن الرحيم) مع بعض اخواننا الشافعيين ، وهل هي من فاتحة الكتاب أم لا ؟ وكان المجلس -

---

(١) الفهرست لابن النديم : ص/ ٣٢٦ - دار المعرفة للطباعة ، بيروت/لبنان

(٢) طبقات الشافعية : ج ٢/ص ١٢٧ ، الطبعة الأولى - المطبعة الحسينية : بمصر .

حافلا بجماعة من الفقهاء من أصحاب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأصحابنا ، - وكان يسمعني في بعض الأوقات لقراءتي عليه (الكسائي) فقال لي : كسائي فيم أنتم ؟ فعرفته ، فقال : وعلى مذهب من تتفقه ؟ فقلت : على مذهب أبي جعفر الطبري ، فقال : رحم الله أبا جعفر (١) .

وقد درس مذهب الطبري في الفقه كثير من العلماء وألفوا فيه الكتب ومن أشهرهم : أبو الفرج المعافى بن زكريا الفهرواني ، وهو الذي نشر مذهبه وحفظ كتبه وشرح كتابه الخفيف (٢) .

ومنهم أبو الحسن أحمد بن يحيى المنجم وله كتاب المدخل الى مذهب الطبري وكتاب الاجماع في الفقه على مذهب أبي جعفر ، وأبو بكر بن كامل وله من الكتب على مذهب الطبري كتاب جامع الفقه وكتاب الشروط وكتاب الوقوف (٣) .

ومن كتب الطبري الفقهية كتاب (اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الاسلام) قصد به ذكر أقوال الفقهاء وهم : مالك بن أنس فقيه المدينة وعبد الرحمن الأوزاعي فقيه أهل الشام ، ومن الكوفة : سفيان الثوري ، ثم محمد ابن ادريس الشافعي ما حدث به الربيع بن سليمان عنه ، ثم من أهل الكوفة أبو حنيفة النعمان وأبو يوسف الأنصاري وابن الحسن الشيباني ، وقد ألف هذا الكتاب ليتذكر به أقوال من يناظره ، ثم انتشر ، وطلب منه فقرأه على أصحابه (٤) .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ٦ / ص ٤٣٣ ، الطبعة الثانية - طبعة هندية بمصر سنة ١٩٣٠ .

(٢) ، (٣) الفهرست : ص/ ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٤) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧١ - ٧٢ .

وكان يقول : لى كتابان لا يستغنى عنهما فقيه : الاختلاف واللطيف[1] وكان كتابه (الاختلاف) فى قرابة ثلاث آلاف ورقة ، أما (اللطيف) أى لطيف القول فى أحكام شرائع الاسلام فهو مجموع مذهبه الذى يعول عليه جميع أصحابه[2] .

لذا كثيرا ما نجد الطبرى فى معالجته لآيات الاحكام يسلك طريق الايجاز ويحيل على كتبه فى الفقه وأصول الفقه من يريد التوسع والوقوف على التفصيلات .

ومثلا عند تفسيره لقول الله تعالى : " ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ... "[3] ، يقول : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله (متعوهن) هل هو على سبيل الوجوب أو على الندب ؟ فقال بعضهم هو على الوجوب يقضى بالمتعة فى مال المطلق كما يقضى عليه سائر الديون الواجبة عليه لغيره ، وقالوا : ذلك واجب عليه لكل مطلقة كائنة من كانت من نسائه .

ثم يذكر - الطبرى - أصحاب هذا الرأى وهم : الحسن البصرى وأبو العالية وسعيد بن جبير ، ثم يعرض رأيا ثانيا فيقول : وقال آخرون : المتعة للمطلقة على زوجها المطلقها واجبة ولكنها واجبة لكل مطلقة سوى المطلقة المفروض لها الصداق اذا طلقت قبل الدخول بها فانها لا متعة لها وانما لها نصف الصداق المسمى .

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ / ص ٧٢ .
(٢) معجم الأدباء : ج ١٨ / ص ٧٣ .
(٣) سورة البقرة : الآية (٢٣٦) .

ثم يذكر أصحاب هذا الرأى وهم : عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب ومجاهد وغيرهم .

ثم يعرض الرأى الثالث فيقول : وقال آخرون : المتعة حق لكل مطلقة غير أن منها مايقضى به على المطلق ومنها مالا يقضى به عليه ويلزمه فيما بينه وبين الله اعطاؤه ، وممن قال بهذا الرأى ابن شهاب الزهرى .

والرأى الرابع : يقول فيه : وقال آخرون : لا يقضى الحاكم ولا السلطان بشىء على المطلق وانما ذلك من الله تعالى ذكره ندب وارشاد الى أن تمتع المطلقة وهذا الرأى قضى به شريح حيث روى عنه أنه قال للذى قد دخل بها : ان كنت من المتقين فمتع .

ثم يختار الطبرى الرأى الأول الذى يوجب المتعة لكل مطلقة فيقول : والذى هو أولى بالصواب من القول فى ذلك عندى قول من قال : لكل مطلقة متعة ، لأن الله تعالى ذكره قال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) فجعل الله تعالى ذلك لكل مطلقة ولم يخصص منهن بعضا دون بعض فليس لأحد احالة ظاهر تنزيل عام الى باطن خاص الا بحجة يجب التسليم لها .

ثم يعود فيؤكد ذلك مرة أخرى بقوله : وأرى أن المتعة للمرأة حق واجب اذا طلقت على زوجها المطلقها على مابيناه آنفا - يؤخذ بها الزوج كما يؤخذ - بصداقها لا يبرئه منها الا اداؤه اليها أو الى من يقوم مقامها فى قبضها منه أو ببراءة تكون منها له ، وأرى ان سبيلها سبيل صداقها وسائر ديونها قبله يحبس بها ان طلقها فيها ، اذا لم يكن شىء ظاهر يباع عليه اذا امتنع من اعطائها ذلك ، وانما قلنا ذلك لأن الله تعالى ذكره قال :

(ومتعوهن) فأمر الرجال أن يمتعوهن ، وأمره فرض الا ان يبين أنه عنى به الندب والارشاد ، وكما بينا فى كتابنا المسمى (بلطيف البيان عن أصول الاحكام) لقوله (المطلقات متاع بالمعروف) .

ولا خلاف بين جميع أهل التأويل ان معنى ذلك : وللمطلقات على أزواجهن متاع بالمعروف ، واذا كان ذلك كذلك فلن يبرأ الزوج مما لها عليه الا بما وصفنا قبل من أداء أو ابراء على ماقد بينا [1] .

ولا غرو بعد ذلك ان وجدنا فى ثنايا تفسيره آثارا للأحكام الفقهية يعرض فيها آراء العلماء وأقوالهم ثم يعرض رأيه المختار المؤيد بالبراهين والشواهد من ذلك تفسيره لقوله تعالى " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون " [2] . فانه يعرض أقوال الفقهاء فى حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، ويعرض أدلة كل وأسانيده ، ثم يختار قول من قال ان الآية لا تدل على حرمة شىء من ذلك ، ويؤيد متجهه هذا فيقول : والصواب من القول فى ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثانى - وهو ان الآية لا تدل على الحرمة - وذلك أنه لو كان فى قوله تعالى (لتركبوها) دلالة على أنها لا تصلح اذا كانت للركوب للأكل لكان فى قوله تعالى (فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) دلالة على أنها لا تصلح اذا كانت للأكل والدفء للركوب ، وفى اجماع الجميع على أن ركوب ماقال تعالى (ومنها تأكلون) جائز حلال غير حرام دليل واضح على ان أكل ماقال (لتركبوها) جائز حلال غير حرام الا بما نص على تحريمه

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٥ / ص ١٢٥ - ١٣٣ .

(٢) سورة النحل : الآية (٨) .

أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء ، وقد وضح الدلالة على تحريم لحوم الحمر الاهلية بوحيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى المنهال بما قد بينا في كتابنا (كتاب الأطعمة) بما اغنى عن اعادته في هذا الموضع ، اذ لم يكن هذا الموضع من مواضيع البيان عن تحريم ذلك ، وانما ذكرنا ماذكرنا ليدل على أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس (١) .

من أجل ذلك كله اشار تلاميذه بسعة علمه ودقة تفكيره الفقهي . .

قال تلميذه أبو بكر كاملي : لم أر بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء والتمكن من العلوم من أبي جعفر ، لأني أروض نفسي في على مسند عبد الله بن مسعود نظير ماعمله أبو جعفر ، فما أحسن عمله ولا يستقيم لي (٢) .

وقال ابن خلكان : انه كان من الأئمة المجتهدين (٣)

وأبو اسحاق الشيرازي ذكره في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين (٤) .

وقال عنه السيوطي في طبقات المفسرين : وكان أولا شافعيا ، ثم انفرد بمذهب مستقل ، وأقاويل واختيارات ، وله اتباع ومقلدون ، وله في الأصول والفروع كتب كثيرة (٥) .

---

(١) أنظر تفسير الطبري : جـ ١٤ / ص ٨١ - ٨٣ .

(٢) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٧٥ .

(٣) وفيات الأعيان : جـ ٤ / ص ١٩١ .

(٤) أنظر طبقات الفقهاء للشيرازي ، تحقيق الدكتور احسان عباس ص/ ٩٣ دار الرائد العربي سنة ١٩٧٨م - بيروت .

(٥) طبقات المفسرين للسيوطي : ص/ ٩٦ ، تحقيق علي محمد عمر .

الفصل الثامن

=== * ===

عقيدته

====

كان الطبرى فى عقيدته سلفى النزعة ، جاريا على ماعليه أهل السنة والجماعة ، بعيداً كل البعد عن التيارات التى كانت سائدة فى ذلك العصر من الاعتزال والتشيع وما الى ذلك ، يقول عبد العزيز بن محمد الطبرى : " وكان ابو جعفر يذهب فى كل مذهب الى ماعليه الجماعة ، من السلف وطريقة أهل العلم المتمسكين بالسنة شديدا على من خالفهم ماضيا على منهاجهم لا تأخذه فى ذلك ولا فى شىء لومة لائم ، وكان يذهب الى مخالفة أهل الاعتزال فى جميع ماخالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر وخلق القرآن وابطال رؤية الله فى القيامة وفى قولهم بتخليد أهل الكبائر فى النار ، وابطال شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى قولهم ان استطاعة العبد قبل فعله وكان ابو جعفر يعتقد أن ماأخطأه لم يكن ليصيبه وان ماأصابه لم يكن ليخطئه وان جميع ما فى العالم لا يكون الا بمشيئة الله "[1] .

ومع ذلك فقد نسب الى الامام الطبرى بعض المؤرخين التشيع وميله اليه قال صاحب لسان الميزان : " كان فيه تشيع يسير ، وموالاة لا تضر "[2]

وقال صاحب معجم الادباء : " انه كان يتهم بالتشيع ، لذلك قيل انه لما مات دفن ليلا خوفا من العامة "[3]

---

(١) معجم الادباء جـ/ ١٨ ص/ ٨٢

(٢) لسان الميزان جـ/ ٥ ص/ ١٠٠

(٣) معجم الادباء جـ/ ١٨ ص/ ٤٠

وبالغ أحمد بن علي السليماني ، فأقذع في قوله : "كان الطبري يضع للروافض . . ."[1] .

والكلام عن ذلك يحتاج منا الى البحث عن بعض الاسباب التي أدت الى اتهام هذا الامام الكبير بهذه الاشياء الشنيعة ، ولعل مردها الى عدة أسباب : أولها ان المتتبع في تفسير الطبري يجد انه يميل - حقيقة - ميلا طبيعيا الى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويظهر هذا جليا عند تفسيره لقوله تعالى : "انما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون "[2] .

يقول الطبري : فان أهل التأويل اختلفوا في المعني به ، فقال بعضهم : عني به علي بن أبي طالب .

وقال بعضهم : عني به جميع المؤمنين ، ذكر من قال ذلك ، ثم أورد خمسة أحاديث كلها تدل على ان المعني به هو علي بن أبي طالب[3] .

---

(١) لسان الميزان جـ/ ٥ ص/ ١٠٠

(٢) سورة المائدة الاية/ ٥٥ - ٥٦

(٣) وبمراجعتنا لهذه الاحاديث وجدنا ان العلماء قد ضعفوها . ومن هذه الاحاديث التي ذكرها الامام الطبري :

١ - قال حدثنا اسماعيل بن اسرائيل الرملي قال ، حدثنا أيوب ابن سويد قال ، حدثنا عتبه بن أبي حكيم في هذه الاية : "انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . ." ، قال : علي ابن أبي طالب .

===

وسكت عن الرأى الثانى [1] .

وعند قوله تعالى : " وتعيها اذن واعية " [2] ، يقول الامام الطبرى :

حدثنا على بن سهل ، قال : ثنا الوليد بن مسلم على على بن حوشب قال : سمعت مكحولا يقول : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وتعيها اذن واعية) ثم التفت الى على ، فقال : سألت الله ان يجعلها اذنك ، قال على رضى الله عنه : فما سمعت شيئا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنسيته .

حدثنى ابن خلف ، قال : ثنى بن آدم قال : ثنا عبد الله بن الزبير قال : ثنى عبد الله بن رستم قال : سمعت بريدة يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى :

=== ٢ - قال حدثنى الحارث قال ، حدثنا عبد العزيز ، قال حدثنا غالب ابن عبد الله قال : سمعت مجاهدا يقول فى قوله : (انما وليكم الله ورسوله ...) الاية قال : نزلت فى على بن أبى طالب تصدق وهو راكع .

وكلا الحديثين ضعيفان لوجود أيوب بن سويد الرملى فى الاول ، وغالب بن عبد الله العقيلى الجزرى فى الثانى .

وأما ايوب سويد فقد ضعفه احمد وغيره ، وقال عنه النسائى : ليس بثقة ، وقال ابن معين : ليس بشىء ، وقال عنه ابن المبارك ارم به ، وقال عنه الامام البخارى : يتكلمون فيه (انظر ميزان - الاعتدال للذهبى جـ/ ١ ص/ ٢٨٧ ، وكتاب التاريخ الكبير للبخارى القسم الاول جـ/ ١ ص/ ٤١٧) .

وأما غالب بن عبد الله العقيلى فقد قال عنه ابن معين : ليس بثقة وقال عنه الدار قطنى وغيره : متروك (انظر ميزان الاعتدال جـ/ ٣ ص/ ٣٣١) .

(١) انظر تفسير الطبرى جـ/ ١ ص/ ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٢) سورة الحاقة الاية/ ١٢ .

" ياعلى ان الله أمرنى ان ادينك ولا اقصيك ، وان اعلمك ، وان تعى وحق على الله أن تعى " قال فنزلت (وتعيها اذن واعية) .

حدثنى محمد بن خلف ، قال : ثنا الحسن بن حماد ، قال : ثنا اسماعيل بن ابراهيم ابو يحيى التيمى عن فضيل بن عبد الله ، عن أبى داود عن بريدة الاسلمى ، قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلى ان الله أمرنى ان اعلمك وان أدينك ولا أجفوك ولا أقصيك " ثم ذكر مثله [1] .

وعند قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) [2] .

يقول الطبرى : اختلف أهل التأويل فى الذين عنوا بقوله (اهل البيت) فقال بعضهم : عنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم .

ثم أورد حوالى ستة عشر حديثا بهذا المعنى ، ثم قال : وقال آخرون : بل عنى بذلك أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر حديثا واحدا فقط فى هذا المعنى [3] رغم ان هذا الرأى الثانى هو الصحيح والموافق لسياق الاية [4] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٢٢ ص/ ٥٥ - ٥٦

(٢) سورة الاحزاب الاية/ ٣٣

(٣) تفسير الطبرى جـ/ ٢٢ ص/ ٦ - ٨

(٤) قد نص ابن كثير عند تفسيره للاية على ذلك فقال : " وهذا نص فى دخول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى أهل البيت ها هنا ، لانهم

هذا من أهم الاسباب - في نظري - التي جعلت بعض الناس يأخذون عليه الطبري بأن عنده ميلا الى التشيع !

وثانى هذه الاسباب أنه الف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب ورد على بعض علماء بغداد الذين انكروا ماروى حول غدير خم (١) .

= = =

سبب نزول الاية وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا ، اما وحده على قول او مع غيره على الصحيح . تفسير ابن كثير ج/ ٦ ص/ ٤٠٧ .

(١) غدير خم : بضم الخاء وتشديد الميم ، موضع بين مكة والمدينة ، يزعم الشيعة ان النبي صلى الله عليه وسلم عهد فيه الى علي ابن ابي طالب من بعده ، ودعا الله ان ينصر من ينصره ، ويخذل من يخذله وهم يتخذون ذلك اليوم عيدا .

وأما حديث غدير خم فهو ماجاء في مسند الامام احمد : قال عبد الله ابن احمد : حدثنا علي بن حكيم الاودي ، أنبأنا شريك عن ابي اسحاق عن سعيد بن وهب وعن زيد بن يثيع قالا : نشد علي الناس في الرحبة : من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم الا قام ؟ قال : فقام من قبل سعيد ستة ومن قبل زيد ستة فشهدوا انهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم :

أليس الله أولى بالمؤمنين ؟ قالوا : بلى ، قال : اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

(المسند للامام احمد بن حنبل تحقيق احمد محمد شاكر ج/ ٢ ، ص/ ٩٥١) .

ثالثا : ان بعض الناس خلطوا بين اسمه وأسم عالم آخر يماثلـــه ولا يخالفه الا فى اسم الجد ، هو أبو جعفر محمد بن جرير رستم الطـــبرى وقد كان هذا رافضيا ، وله مؤلفات منها كتاب الرواة عن أهل البيت (١) .

هذه من أبرز الأسباب التى جعلت بعض الناس ينسبون الى الطـــبرى التشيع .

والناظر المنصف لهذه الأسباب يجد أنها لا تجعل هذا الامام الكبير شيعيا ، لأن الشيعة معروفون بعداوتهم الشديدة لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

وتفسيره لتلك الآيات التى سبق ذكرها - وهو كما قلنا انه ميل طبيعى لأهل البيت كما هو معروف عن كثير من علماء هذه الأمة .

ومما يدل على ان هذه التهمة لا اساس لها من الصحة أمور من أهمها :

أولا : قال ياقوت نفسه نقلا عن تلميذ الطبرى عبد العزيز محمد الطـــبرى = = وكان أبو جعفر يذهب فى الامامة الى امامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلـــى رضى الله عنهم ، وما كان عليه أصحاب الحديث فى التفضيل ، وكان يكفر من خالفه فى كل مذهب اذ كانت ادلة العقول تدفع كالقول فى القـدر وقول من كفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرافضه والخوارج ولا يقبل أخبارهم ولا شهادتهم وذكر ذلك فى كتابه فى الشهادات وفـى الرسالة وفى أول ذيل المذيل .

---

(١) أنظر لسان الميزان : جـ ٥ / ص ١٠٣ .

وقد قال له تلميذه أبو بكر بن كامل : من سبقك الى اكفار أهل الأهواء ؟ فقال : امامان عدلان عبد الرحمن بن مهدى ويحيى ابن سعيد القطانى ، وكان اذا عرف من انسان بدعة أبعده وأطرحه (١).

ويشهد لرأيه فى الامامة ماجاء فى تفسيره عند تأويله لقوله تعالى من سورة الفاتحة " اهدنا صراط المستقيم " حيث يقول : والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى اعنى (اهدنا صراط المستقيم) ان يكون معنيا به : وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمر الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهج النبى صلى الله عليه وسلم ومنهاج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وكل عبد الله صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم (٢).

ثانيا : دافع العلماء الاثبات عن الامام ابن جرير تهمة الرفض ومن هؤلاء العلماء الحافظ الذهبى فقد قال - رحمه الله - عند ترجمته للامام الطبرى : أفذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال كان يضع للروافض ، كذا قال السليمانى ، وهذا رجم بالظن الكاذب ، بل ابن جرير من كبار أئمة الاسلام المعتمدين ، وما تدعى عصمته من الخطأ ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى ، فان كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يتأنى فيه ولا سيما فى مثل امام كبير .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٨٣ - ٨٤ .
(٢) تفسير الطبرى : جـ ١ / ص ١٧١ .

ثم قال - أى الذهبى - فلعل السليمانى أراد محمد بن جرير رستم أبو جعفر الطبرى رافضى ، له تواليف منها كتاب الرواة عن أهل البيت." [1]

وقال الحافظ ابن حجر العسقلانى - بعد ايراده لكلام الذهبى - :

" ولو حلفت ان السليمانى ما أراد الا ابن رستم لبررت اذ السليمانى حافظ متقن كان يدرى مايخرج من رأسه فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الامام بهذا القول الباطل [2] .

ثالثا : ترجم للامام ابن جرير كثير من الأئمة المعاصرين له ، فلم يصفه بذلك وانما ضره الاشتراك فى اسمه واسم أبيه ونسبه وكنيته ومعاصرته .

ومما لا شك فيه هو ان اتهام هذا الامام الكبير بالرفض من أكبر الكبائر وكيف يلصق مثل هذه التهمة الشنيعة بعالم دافع عن الاسلام بكل قواه بل دافع عن الشيخين أبى بكر وعمر .

وهذا ياقوت يروى ان أبا جعفر لما رجع الى طبرستان بعد غياب طويل وجد الرفض قد ظهر ، وسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهلها قد انتشر ، فأطلق فضائل أبى بكر وعمر حتى خاف أن يجرى عليه مايكرهه فخرج منها من أجل ذلك [3] .

وقال عبد العزيز محمد الطبرى : أخبرنى غير واحد من أصحابنا أنه رأى عند أبى جعفر شيخا سنيا فقام له أبو جعفر وأكرمه .

---

(١) ميزان الاعتدال : جـ ٣ / ص ٤٩٩ .

(٢) لسان الميزان : جـ ٥ / ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٨٥ .

ثم قال أبو جعفر : ان هذا الرجل نال فى ما قد صار له على به الحق الكثير ، وذلك أنى دخلت الى طبرستان ، وقد شاع سب أبى بكر وعمر فيها ، فسألونى ان أملى فضائلهما ففعلت ، وكان سلطان البلده يكره ذلك فاجتمع اليه من عرفه ما أمليته ، فوجه الى فبادر هذا وارسل الى من أخبرنى أنى طلبت فخرجت من وقتى عن البلد ولم يشعر بى وحصل هذا فى أيديهم فضرب بسببى ألفا قال : وكان شديد التوقى والحذر والنزاهة والورع ...(١)

أبعد هذا ياترى هل يكون هناك مجال لاتهام هذا الامام الكبير بالرفض والتشيع ؟

وفاته :

عاش الامام ابن جرير - رحمه الله - حياة حافلة بالعلم والتقى ، فقد تنقل من قطر الى قطر ، ومن بلد الى بلد لا من أجل متعة شخصية ، وانما من أجل خدمة العلم ونشره .

وأخيرا وبعد هذه الحياة الحافلة بالعلم والتقى انتقل اماما الى رحمه الله تعالى ، وكان ذلك وقت المغرب عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة عشر وثلثمائه ، وقد جاوز الثمانيين بخمس سنين أو ست سنين فاجتمع الناس من سائر أقطار بغداد وصلوا عليه بداره ودفن بها ، ومكث الناس يترددون الى قبره شهورا يصلون عليه .

رحم الله ابن جرير الطبرى وجزاه خيرا عما قدمه لدينه من خدمة .

---

(١) معجم الأدباء : جـ ١٨ / ص ٨٥ .

"" الفصل التاسع ""

= * =

((تفسير ابن جرير ومنهجه فيه))

=== ** ===

تفسير ابن جرير يعد بحق من أقدم التفاسير وأشهرها ، كما يعتبر من أمهات المراجع عند العلماء ، خصوصا فيما يتعلق بالتفسير المأثور ، ويقع في ثلاثين جزءا من الحجم الكبير .

قال صاحب التفسير والمفسرون : " وقد كان هذا التفسير من الكتب المفقودة ، ثم قدر الله له الظهور والذيوع ، فكانت مفاجأة سارة في الأوساط العلمية ، أن وجدت في حيازة أمير " حائل " الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من أمراء نجد ، نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب ، فطبع عليها الكتاب الذي يعتبر دائرة معارف في التفسير "[1] .

وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله ، ومن ذلك قول الامام النووي في التهذيب : " كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله "[2] .

وقال الشيخ أبو حامد الاسفراييني شيخ الشافعية : " لو رحل أحد الى الصين حتى يحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا عليه "[3] .

وقال الحافظ ابن كثير عند ترجمته لابن جرير : " وله التفسير الكامل الذي لا يوجد له نظير "[4] .

---

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الذهبي : جـ ١ / ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .
(٢) تهذيب الأسماء واللغات : جـ ١ / ص ٧٨ ، طبع بالطبعة المنيرية بمصر
(٣) شذرات الذهب : جـ ٢ / ص ٢٦٠ .
(٤) البداية والنهاية : جـ ١١ / ص ١٤٥ .

وقال الامام السيوطي : " وتفسير ابن جرير أجل التفاسير وأعظمها . . فانه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، كما يتعرض للاعراب ولستنباط الأحكام . . "[1] .

وقال فيه شيخ الاسلام ابن تيمية : " وأما التفسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبري ، فانه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن سليمان والكلبي "[2]

عن محمد بن عبد الله النيسابوري الحافظ قال سمعت أبا بكر بن بالويه يقول : قال لي أبو بكر محمد بن اسحاق - يعني ابن خزيمة - بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير ، قلت : بلى ، كتبت التفسير عنه املاء قال : كله ؟ قلت نعم . قال في أي سنة ؟ قلت : من سنة ثلاث وثمانين الى سنة تسعين ، قال فاستعاره مني أبو بكر فرده بعد سنين ، ثم قال قد نظرت فيه من أوله الى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد ابن جرير . . . "[3] .

وقد روى أنه حدث نفسه بهذا التفسير وهو صبي ، واستخار الله في عمله وسأله العون على ما نواه ثلاث سنين قبل أن يعمله وأعانه الله سبحانه[4] ، ثم أنه لما أراد أن يملي تفسيره قال لأصحابه : انتشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة فقالوا : هذا مما تفنى الاعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[5] .

---

(١) الاتقان في علوم القرآن : جـ ٢ / ص ١٩٠ ، دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٩هـ .
(٢) انظر رقائق التفسير لابن تيمية تحقيق محمد السيد الجليند : جـ ١ / ص ٨٨ . الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ، مطبعة التقدم بالقاهرة .
(٣،٥) تاريخ بغداد : جـ ٢ / ص ١٦٢ ، ١٦٤ .
(٤) مقدمة تفسير الطبري : تحقيق محمود محمد شاكر - جـ ١ / ص ١٧ .

منهجه فى هذا التفسير :

وقد نهج الطبرى طريقة خاصة به فى تفسيره التزمها ولم يحد عنها بدأ تفسيره بخطبة ، ورسالة التفسير تدل على ماخص الله به القرآن العزيز من البلاغة والاعجاز والفصاحة التى ناف بها سائر الكلام ، ثم ذكر من مقدمات الكلام فى التفسير وفى وجوه تأويل القرآن ، ومايعلم تأويله ، وما ورد فى جواز تفسيره وما حظر من ذلك والكلام فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " أنزل القرآن على سبعة أحرف " وفى الالسنة نزل ؟ والرد على من قال : ان فى القرآن أشياء من غير الكلام العربى ، وتفسير أسماء القرآن والسور وغير ذلك مما قدمه .

وعندما ينتصب للقول فى تفسير آية أو آيات من كتاب الله يسردها ثم يقول : " القول فى تأويل قوله - تعالى - كذا وكذا " ، ويفصح ببيانه عن المعنى المراد ، معتمدا ربط السياق والعود بمراجع الكلام الى مقاصدها الواردة فى مواضيع أخرى من القرآن العظيم ، ومتمسكا بما يدور عليه المعنى من دلالة المفردات اللغوية على المعانى التى هى مستعملة فيها مع بيان المعنى الأصلى للمفرد والمعنى المنقول اليه مع بيان مناسبة النقل والاستشهاد بالشعر العربى على مايثبت استعمال اللفظ فى المعنى الذى حمله عليه ويكون فى ذلك جازما غير متردد ، مستقلا غير مقلد ، ثم ينتقل الى دعم مذهبه بما ينقل عن المتكلمين فى التفسير قبله فيعنون بقوله : " ذكر من قال ذلك " ويورد الأسانيد مسلسلة عن شيوخه : ابن المثنى أو أبى كريب أو محمد بن بشار أو يونس ابن عبد الأعلى أو غيرهم الى ذوى القول فى التفسير

بالمأثور من الصحابة أو من موثق التابعين مثل مجاهد والحسن البصرى أومن دونهم مثل السدى أو وهب بن منبه ، فاذا كان المتفق عليه من بين تلك الأخبار شيئا واحد يؤيد المعنى الذى ابتدأ بتقريره اكتفى بذلك ، وربما جعل ابتداء سوق الاسانيد قول " وبمثل الذى قلنا من ذلك قال أهل التأويل " .

واذا كان المعنى غير متفق عليه يقول : " وبما قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل " فأورد الأسانيد عنهم .

واذا كان الأمر راجعا الى الاختلاف فى تعيين فهم لا يتوقف على تعيينه المعنى اشار الى الخلاف فى ذلك بعد تقريره المعنى الذى لا يختلف باختلاف تقدير المعنيين ، ففصل الأقوال وأورد على كل قول منها مايثبت عزوه من الاسانيد ثم يعقب ذلك كله ببيان ليس له غناء فى فهم معنى الكلام .

هذا مجمل المنهج الذى نهجه ابن جرير فى هذا التفسير ، ويمتاز هذا المنهج بأمور من أهمها :

١ - أنه لا يكتفى بسرد أقوال العلماء الذين سبقوه بل يوازن بينها ويرجح مايراه راجحا منها . .

ثم يتعرض أحيانا للاعراب ، والاستنباط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآية ، ولوجوه القراءات فيها . .

فأنت تراه - مثلا - عند تفسيره لقوله تعالى : " الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون "[1] .

---

(١) سورة البقرة : الآية (٤٦) .

يسوق أقوال العلماء في المراد "بالظن" هنا ، وهل معناه : الظن الراجح أو اليقين ، ثم يرجح ان المراد به هنا العلم واليقين فيقول : "ان قال لنا قائل : وكيف أخبر الله - تعالى - عمن وصفه بالخشوع له أنه يظن أنه ملاقيه ، والظن شك ، والشاك في لقاء الله كافر ؟

قيل له : ان العرب قد تسمي اليقين ظنا : . . كما في قول دريد الصمة : فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . . يعني تيقنوا بأن ألفي محارب مدجج بالسلاح ستأتيكم . . .

ثم قال : والشواهد من اشعار العرب وكلامها على ان الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصى . . ."[1] .

٢ - ان ابن جرير في تفسيره أحيانا لا يكتفي بسرد الأقوال في معنى الآية وترجيح الراجح منها ، بل يجمع بين الآيات التي ظاهرها التصادم والتعارض ويبين أنه لا خلاف بينها في الحقيقة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى : " واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون "[2] .

عند تفسيره لهذه الآية نراه يقول : وهذه الآية وان كان مخرجها عاما في التلاوة فان المراد بها خاص في التأويل لتظاهر الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، وأنه قال : ليس من نبي الا وقد أعطي دعوة ، وانى خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة منهم - ان شاء الله - من لا يشرك بالله شيئا . . .

---

(١) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر : جـ ٢ /ص ١٧ - ١٩ .
(٢) سورة البقرة : الآية (٤٨) .

ثم يقول : فقوله : " ولا يقبل منها شفاعة " ، انما هو لمن مات على كفره غير تائب الى الله عز وجل [١] .

٣ - ويمتاز هذا التفسير كذلك بأن مؤلفه يحترم التفسير المنقول عن الصحابة والتابعين نقلا صحيحا ، ويرى ان ذلك وحده هو علامة التفسير القويم .

أما التفسير بمجرد الرأى فيخاصم أصحابه ولا يؤيدهم . .

ومن أمثلة ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين " [٢] ، حكى قول مجاهد فى تفسير الآية وهو : " مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم . . " .

ثم عقب عليه بقوله : وهذا القول الذى قاله مجاهد ، مخالف لظاهر ما دل عليه كتاب الله . . . " [٣] .

٤ - ان ابن جرير فى كثير من الأحيان لا يكتفى عند تفسيره للآية بذكر قراءة واحدة ، وانما يذكر القراءات الصحيحة التى وردت فيها ، ثم يرد القراءات الشاذة .

ومن أمثلة ذلك أنه عند تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : " ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره . . . " [٤] ذكر ان عامة قراء الأمصار قرءوا " الريح " بالنصب على أنها مفعول لمضمرنا المحذوف . . .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٣٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية (٦٥) .
(٣) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ١٧٢ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية (٨١) .

وان عبد الرحمن الأعرج قرأ " الريح " بالرفع على أنها مبتدأ ..

ثم قال - أى ابن جرير - : والقراءة التى لا استجيز القراءة بغيرها فى ذلك ما عليه قراء الامصار لاجماع الحجة من القراء عليه [1] .

٥ - ومن مزايا المنهج الذى اتبعه ابن جرير فى تفسيره أنه لا يهتم فى تفسيره الا بما يفيد من المعانى ، أما الأقوال والمعانى التى لا فائدة من وراء معرفتها فهو يهملها ويتهكم بمن يهتم بها .

انظر اليه عند تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : " ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين " [2] تراه يذكر أقوال المفسرين فى اسم هذه الشجرة ونوعها ...

ثم يقول : والصواب فى ذلك أن يقال : ان الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن لا ولا فى السنة الصحيحة ...

وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل : كانت شجرة العنب : " وذلك علم اذا علم لم ينتفع العالم به ، وان جهله جاهل لم يضره جهله به .. " [3]

وأمثال هذا القول نراه فى كثير من المواضع التى تعرض المفسرون فيها للخوض فى أشياء لا ينفع العلم بها ، ولا يضر جهلها .

---

(١) تفسير الطبرى (غير المحقق) جـ ١٧ / ص ٥٦ ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى / مصر .
(٢) سورة البقرة : الآية (٣٥) .
(٣) تفسير الطبرى : جـ ١ ص ٥٢٠ - ٥٢١ (تحقيق محمود شاكر) .

وان شئت المزيد فراجع تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة المائدة :

" اذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء ... "[1] .

وتفسيره لقوله - تعالى - فى سورة يوسف : " وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ... "[2] .

٦ - انه كان يهتم بذكر أسباب النزول ، لأنه يعين على فهم الآية فهما سليما .

فمثلا عند تفسيره لقوله - تعالى - : " وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة "[3] تراه يذكر الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية فيقول ما ملخصه : قال الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود : أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ... من أهل النار ؟ فقالوا : ان ربنا غضب علينا غضبة فنمكث فى النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم والله لا نخلفكم فيها أبدا ، وأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ... "[4] .

٧ - انه كان يهتم فى مواضع كثيرة من تفسيره بتفصيل القول فى الاحكام الفقهية وفى الرد على بعض أصحاب المذاهب الكلامية .

فمثلا عند تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة النحل " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون "[5] تراه يسوق أقوال الفقهاء فى حكم

---

(١) سورة المائدة : الآية (١١٢) .
(٢) سورة يوسف : الآية (٢٠) .
(٣) سورة البقرة : الآية (٨٠) .
(٤) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٢٧٧ (تحقيق محمود شاكر) .
(٥) سورة النحل : الآية (٨) .

أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، ويذكر قول كل قائل بسنده ... ثم يختار في النهاية الرأى الذى يراه مناسبا [1] .

وعند تفسيره لقوله - تعالى - : " غير المغضوب عليهم ولا الضالين " نراه بعد ان يفسر الآية على طريقة أهل السنة والجماعة ، ... يقول : وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن فى وصف الله النصارى بالضلال واضافة الضلال اليهم دون اضافة اضلالهم الى نفسه ... دلالة على صحة ماقاله اخوانه من جهلة القدرية ... ثم يقول : فالله - تعالى - هو المضل وهو الهادى دون غيره ... " [2] .

وعند تفسيره لقوله - تعالى - : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " [3] قال : ذكر الآراء المختلفة فى تفسير الآية :

قال بعضهم : لا تحيط به الأبصار وهو يحيط بها ، وقال آخرون : لا تراه الأبصار وهو يراها ، وقال غيرهم : لا تدركه أبصار الخلائق فى الدنيا وأما الآخرة فانها تدركه ، والمراد بالادراك هنا الرؤية .

وقال فريق رابع لن يدرك الله بصر أحد من الناس فى الدنيا والآخرة ولكن الله يحدث لأوليائه يوم القيامة حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس فيرونه بها .

ثم علق على هذه الأقاويل بقوله : والصواب ماتظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سترون ربكم يوم القيامة كما ترون

---

(١) راجع تفسير الطبرى : جـ ١٤ / ص ٨١ - ٨٣ .
(٢) انظر تفسير الطبرى : جـ ١ / ص ١٩٥ - ١٩٦ .
(٣) سورة الأنعام : الآية (١٠٣) .

القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب " ، فالمؤمنون يرونه والكافرون يومئذ عنه محجوبون كما قال جل ثناؤه : " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " (١) .

ثم بدأ الرد على كل قول خالف هذه الحقيقة وبين وجوه البطلان فيه وعلل لذلك ودلل بالبراهين القاطعة ، ثم ختم هذا الرد بعبارة فيها كل معنى الاستنكار فقال : " وهم لا يرجعون فيما يقولون الى آية من التنزيل محكمة ولا رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ولا سقيمة فهم في الظلمات يخبطون وفي العمياء يترددون نعوذ بالله من الحيرة والضلالة " (٢) .

٨ - كذلك نرى ان ابن جرير في تفسيره اعتنى بالاحتكام الى المعروف من كلام العرب ، والى اشعارهم ، كما اعتنى بالتعرض للمذاهب النحوية ، ولا غرابة فهو في هذا الفن امام شهد فحول اللغة والنحو له بالسبق والاجادة . .

فمن أمثله احتكامه الى المعروف من كلام العرب ماتراه عند تفسيره لقوله - تعالى - في سورة هود : " حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور . . . " (٣) ، فهو يعرض لذكر الروايات عن السلف في معنى لفظ التنور ، فيروى لنا قول من قال ان التنور عبارة عن وجه الأرض ، وقول من قال : انه عبارة عن تنوير الصبح وقول من قال : انه عبارة عن أعلى الأرض وأشرفها ، وقول من قال : انه عبارة عما يختبز فيه . . .

---

(١) سورة المطففين : الآية (١٥) .

(٢) أنظر تفسير الطبري : جـ ١٢ / ص ١٣ - ٢٢ .

(٣) سورة هود : الآية (٤٠) .

ثم قال : وأولى الاقوال بالصواب قول من قال : انه عبارة عما يختبز فيه ، لان ذلك هو المعروف من كلام العرب . . .)[1]

ومن أمثلة احتكامه الى اشعارهم انه عند تفسيره لقوله - تعالى - في سورة البقرة " فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون "[2] يقول : والانداد جمع ند ، والند : العدل والمثل كما قال حسان بن ثابت :

اتهجوه ولست له بند * * * فشركما لخيركما الفداء

يعني بقوله : ولست له بند : أي لست له بمثل ولا عدل . . .)[3] .

ومن أمثلة تعرضه للمذاهب النحوية ماجاء في تفسيره عند قوله - تعالى - في سورة ابراهيم " مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . . . "[4] .

فهو يقول : اختلف أهل العربية في رافع " مثل " فقال بعض نحوي البصرة : انما هو كأنه قال : ومما نقص عليكم مثل الذين كفروا . . . . . وقال بعض نحوي الكوفة : انما المثل للاعمال ، ولكن العرب تقدم الاسماء لانها أعرف ، ثم تأتي بالخبر الذي تخبر عنه مع صاحبه ، ومعنى الكلام : مثل اعمال الذين كفروا بربهم كرماد . . . "[5]

---

(١) انظر تفسير الطبري جـ/١٢ ص/٣٤ - ٤٠

(٢) سورة البقرة الاية/٢٢

(٣) تفسير الطبري جـ/١ ص/٢٦٨

(٤) سورة ابراهيم الاية/١٨

(٥) تفسير الطبري جـ/١٣ ص/١٩٦

وعند تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة البقرة " ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين "(١)

فهو يقول : " فتكونا من الظالمين " وجهان من التأويل : ثم استعرض الوجهين مستدلا بالتخريج النحوى على المعنى . فقال : أحدهما ان يكون " فتكونا " فى نية العطف على قول ولا تقربا فيكون تأويله حينئذ " ولا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين " كما قال امرؤ القيس :

فقلت له : صوب ولا تجهدنه * * فيذرك من اخرى القطاة فتزلق

فجزم فيذرك بما جزم به لا تجهدنه كأنه كرر النهى والا يه كذلك .

وقال فى الوجه الاخر : ان جملة " فتكونا من الظالمين " بمعنى جواب النهى . فيكون تأويله حينئذ : لا تقربا هذه الشجرة ، فانكما ان قربتماها كنتما من الظالمين ، كما تقول : لا تشتم عمرا فيشتمك ، مجازاة ، فيكون " فتكونا " حينئذ فى موضع نصب(٢) . . . أى باضمار " أن " بعد الفاء فى جواب النهى .

والحق ان ابن جرير قد قدم لنا فى تفسيره كثيرا من البحوث اللغوية المفيدة ، والتى تعتبر كنزا ثمينا ومرجعا مهما فى بابها ، وهذه البحوث اللغوية التى بثها فى كتابه ، لم تكن مقصودة لذاتها ، وانما كان الغرض منها خدمة تفسير كتاب الله تعالى .

---

(١) سورة البقرة الاية / ٣٥ .

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ١ ص/ ٥٢١ - ٥٢٢

٩ - كذلك من الامور التى اهتم بها ابن جرير فى تفسيره : عنايته بشرح المفردات والالفاظ التى اشتمل عليها القرآن الكريم ،

ومن أمثلة ذلك انك تراه عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة البقرة " فأخذتكم الصاعقة ... "[1] يقول : " وأصل الصاعقة كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه الى هلاك وعطب وذهاب عقل ... "[2] .

وعند تفسيره لقوله - تعالى - فى السورة نفسها " ولا تعثوا فى الارض مفسدين "[3] يقول : وأصل العثا شدة الافساد ، بل هو أشد الافساد . يقال منه : عثى فلان فى الارض ، اذا تجاوز الحد فى الافساد الى غايته ... ويقال للجماعة : يعثون ... "[4]

وعند تفسيره لقوله - تعالى - فى سورة البقرة أيضا : " قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة ... "[5] يقول : والخالصة مصدر مثل العافية ، يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى وصفا لى ويقال منه : خلص هذا الشئ ، فهو يخلص خلوصا وخالصة ... "[6] .

---

(١) سورة البقرة الاية / ٥٥

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ٨٣

(٣) سورة البقرة الاية / ٦٠

(٤) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ١٢٣
سورة البقرة الاية / ٩٤

(٦) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ٣٦٥

وهكذا نرى ابن جرير يعنى بتفسير الالفاظ القرآنية تفسيرا يوضح غامضها ويشرح ماخفى فيها .

١٠ - كذلك اهتم ابن جرير فى تفسيره بأن يسلك فى عبارته المسلك الادبى الذى يدخل على النفوس البهجة والسرور .

استمع اليه وهو يفسر قوله - تعالى - " وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون "[1] فيقول : أى : وماظلمونا بفعلهم ذلك وبمعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها ، فان الله - تعالى - لاتضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنقصه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل ، بل نفسه يظلم الظالم ، وحظها يبخس العاصى ، واياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل "[2] .

هذا جانب من المنهج الذى اتجه ابن جرير فى تفسيره ، ومن المزايا التى امتاز بها هذا التفسير ، ولاشك ان القارئ لهذا التفسير بعناية وتدبر يرى فيه مزايا أخرى متنوعة ، وما ذكرناه انما هو من باب قول القائل :

" حسبك من القلادة ماأحاط بالعنق " ولعل فيه الكفاية - ان شاء الله .

---

(١) سورة البقرة الاية / ٥٧

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ١٠٢ .

الباب الثاني

((الباب الثاني))

= * =

"" ترجمة ابن كثير ""

=== *** ===

الفصل الأول : نسبه ومولده :

=== ==== ----------

هو اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن درع[1] القرشي البصري[2] الدمشقي ، الملقب بعماد الدين ، وكنيته أبو الفداء واشتهر باسم جده .

هكذا ورد نسبه في أكثر كتب التراجم ، وفي كتابه " البداية والنهاية " وقد صرح - ابن كثير - في نسبته الى قريش : أنّ أباه كان من بني خصلة وهم ينتسبون الى الشرف ، وبأيديهم نسب ، وقف على بعض ذلك شيخه جمال الدين المزي فأعجبه ذلك وابتهج به فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك : القرشي[3] .

---

(١) كذا في طبقات المفسرين للداودي : ج ١ / ص ١١٠ ، وأنباء الغمر لابن حجر : ج ١ / ص ٤٥ - ٤٧ ، وفي شذرات الذهب لابن العماد ج ٦ / ص ٢٣١ ، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني : ص / ٥٧ .

(٢) نسبة الى " بصرى " بضم الباء وسكون الصاد ، وهي مدينة قديمة مبنية بالحجارة السود من ديار بني فزارة ، وبني مرة تبعد عن دمشق مقدار أربع مراحل ، أنظر تقويم البلدان لأبي الفداء .

(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير ج ١٤ / ص ٣١ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م - مكتبة المعارف / بيروت .

بعد مطالعتنا لعدد من كتب التراجم لعصر ابن كثير وجدنا أنها لا تتفق على تاريخ معين يحدد وقت ولادته ، وهذا الاختلاف كثيرا مايقع في تواريخ ميلاد العلماء ، غير أنه يمكن استنباط ميلاده من كلامه حين ترجم لوالده المتوفى في جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ ، حيث قال : " ... وكنت آن ذاك صغيرا ابن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه الا كالحلم "[١] .

وابن حجر[٢] والسيوطي[٣] وابن العماد الحنبلي[٤] ذكروا ان ميلاده كان سنة سبعمائة من الهجرة .

وقد انفرد البغدادي في هدية العارفين[٥] حيث ذكر ان ميلاده كان سنة خمس وسبعمائة وهو رأي بعيد لان ابن كثير نفسه يذكر أنه حين وفاة والده سنة ٧٠٣هـ كان يبلغ من العمر نحو ثلاث سنوات ، فكيف تكون ولادته سنة ٧٠٥ بعد وفاة والده بسنتين ؟

وذهب ابن تغري بردي[٦] والداودي[٧] الى أنه ولد سنة احدى وسبعمائة .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣٢ .

(٢) أنباء الغمر : جـ ١ / ص ٤٥ .

(٣) طبقات الحفاظ : ص/ ٥٢٩ .

(٤) شذرات الذهب : جـ ٦ / ص ٢٣١ .

(٥) هدية العارفين للبغدادي : المجلد الأول /ص ٢١٥ ، المطبعة البهية - استانبول سنة ١٩٥١م .

(٦) النجوم الزاهرة : جـ ١١ / ص ١٢٣ .

(٧) طبقات المفسرين : جـ ١ / ص ١١١ .

وقد رجح فضيلة الشيخ أحمد محمد شاكر - رحمه الله - أن يكون مولد ابن كثير سنة ٧٠٠هـ ، مستدلا بذلك في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه توفي سنة ٧٠٣هـ " وكنت آن ذاك صغيرا ابن ثلاث سنين أو نحوها لا أدركه الا كالحلم " .

قال فضيلة الشيخ شاكر : " وابن ثلاث سنين لا يعرف تواريخ السنين على اليقين في تلك السن ، فقد سمع اذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من اخوة وأهل وجيران ... والذي في سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئا كالحلم ولا أبعد من الحلم ولا أقرب "[1] .

ولكن فات فضيلته تصريح ابن كثير نفسه بقطع الخلاف ، فقد قال في تاريخه لحوادث سنة ٧٠١هـ (احدى وسبعمائة) : " وفيها ولد كاتبه اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي "[2] .

وهذا التصريح أقوى وأثبت من الشك ، فان ابن كثير مؤرخ حافظ يحتج بأقواله في تحديد تواريخ الميلاد والوفاة في تراجم الاعيان التي جمعها في تاريخه ، فكيف يظن بأنه ذكر تاريخ ميلاده بدون تحقيق .

وبذلك يترجح أن ميلاده كان سنة احدى وسبعمائة (٧٠١هـ) كما ذهب الى ذلك الداودي وغيره ، وكما ذكر ذلك عن نفسه - رحمه الله -.

وكانت ولادته في قرية صغيرة بالشام تسمى " مجيدل القرية " من أعمال دمشق ، وهي في الأصل موطن أمه انتقل اليها أبوه في أواخر حياته ، فقد

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ج ١ / ص ٢٢ - ٢٣ ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م .
(٢) البداية والنهاية : ج ١٤ / ص ٢١ .

كان أبوه بها خطيبا ، وقام بها مدة طويلة الى أن توفى فيها ، فتحولت الاسرة الى دمشق سنة ٧٠٧هـ [١] حين كان ابن كثير ابن ستة سنين .

ليس لدينا أخبار عن أسرة ابن كثير الا ماذكره هو نفسه فى ترجمة والده من أخبار تلقى الضوء على أحوال أسرته .

ينتسب ابن كثير الى أسرة عرفت بالعلم والأخلاق والديانة ، فقد كان والده [٢] قرشيا من بنى خصلة ، ولد فى قرية يقال لها " الشركوين " تقع غربى بصرى بينها وبين أذرعات وذلك فى حدود سنة ٦٤٠هـ .

وتولى والده الخطابة فى قرية شرقى بصرى لمدة اثنتى عشرة سنة ، ثم تحول الى خطابة " مجيدل القرية " فأقام بها مدة طويلة فى خير وكفاية وكان يخطب جيدا وله قبول عند الناس ولكلامه وقع لديانته وفصاحته وحلاوته وقد تلقى والده العلم عند أخواله ببصرى ، فقرأ البداية فى مذهب أبى حنيفة وحفظ جمل الزجاجى ، وعنى بالنحو واللغة وحفظ أشعار العرب ، وأخذ أيضا عن النووى وتقى الدين الفزارى ، وتمذهب بمذهب الشافعى ، وكان يقول الشعر الجيد الفائق فى المدح والمراثى وقليل من الهجاء [٣] .

وقد أشاد بذكره علم الدين البرزالى فى معجمه حيث قال : " انه رجل فاضل له نظم جيد ويحفظ كثيرا من اللغز وله همة وقوة " [٤] .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣٢ .

(٢) هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير ولد سنة ٦٤٠هـ ، وتوفى سنة ٧٠٣هـ .

(٣) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣١ .

(٤) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣٢ .

وقد نقل ابن حجر أيضاً من البرزالي بأنه " كان فاضلا لغويا شاعرا "[1]

وتوفي - رحمه الله - في مجيدل القرية في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون ، وقد كان مفسرنا آنذاك صغيرا ابن ثلاث سنين أو نحوها لا يدرك أباه الا كالحلم .

وأما والدة ابن كثير فقد كانت من النساء الصالحات واسمها مريم بنت فرج بن علي ، تزوجها والده حين انتقل الى خطابة مجيدل القرية فأنجبت له ثلاثة أبناء وهم : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، ومحمد ثم عدة بنات ، وكان آخرهم مفسرنا اسماعيل المعروف بابن كثير .

وقد انتقلت والدته الى دمشق مع أبنائها بعد وفاة زوجها وعاشت بها الى أن توفيت في عشرين ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ ، ودفنت بمقبرة الصوفية[2] .

---

(١) الدرر الكامنة : جـ ٣ / ص ٢٦١ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٤٢ - ١٤٣ .

((الفصل الثانى))

حياتـه العلميـــة

== * ==

نشأ ابن كثير فى اسرة علمية متدينة ، فكانت أمه حافظة للقرآن الكريـم وكان والده خطيبا فى مجدل القرية ، وبعد وفاة والده انتقل مع أمـــه واخوته الى دمشق وذلك سنة ٧٠٧هـ (١) .

فسكنوا درب سعود الذى يقال له " درب أبى الهيجاء " بالصاغـة العتيقة عند الطوربين (٢) .

ودمشق فى المائة الثامنة معدن العلم وموئل العلماء ، فتحت صدرهـا للعلماء العائذين بها من وجه التتار فأصبحت عشا وأمنا لهم ، وتلقتهـم مدارسها بالترحاب فملأوها علما وكتبا ، وكان من علمائها المحدث الثقـة كأبى الحجاج المزى والفقيه الشافعى الحجة ، كتاج الدين الفزارى والعالم المجدد كابن تيمية ، ومن جاء بعده من تلاميذه كأبن القيم وفضلا عن وجوده هؤلاء الجهابذة من العلماء فيها وهى - أى دمشق - جنة الأرض لحسـن العمارة ونضارة البقعة وكثرة الفاكهة وكثرة المياه والأنهار الجارية (٣) .

---

(١) ذكر ابن حجر فى " انباء الغمر " جـ ١ ص ٤٥ ، وابن العماد فـى : " شذرات الذهب " جـ ٦ ص ٢٣١ ، ان ابن كثير انتقل الى دمشق سنـة ٧٠٦ ، ولكن ابن كثير نفسه صرح فى كتابه " البداية والنهاية " جـ ١٤ / ص ٤٦ بأنه انتقل الى دمشق سنة ٧٠٧هـ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٤ /ص ٤٦ .

(٣) أنظر معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ٤٦٣ .

ان مثل هذه الطبيعة وجمالها والحياة فيها لا بد ان ينعكس على من يعيش فيها وابن كثير أحد أولئك الذين تمتعوا بما فيها من نعيم وهو مازال غلاما يافعا .

وبعد ما استقر به وبأسرته فى دمشق اتجه للاشتغال بالعلم وتتلمذ على يدى شقيقه الأكبر عبد الوهاب الذى آنسه بالعلم وجعله يحب العلم ويجتهد فى حصوله ، ويتحمل ما يعانى فى سبيله ، فقد صرح ابن كثير بقوله :

" فاشتغلت على يديه فى العلم فيسر الله تعالى منه مايسر ، وسهل منه ماتعسر "(١)

ولكن لم يصرح ابن كثير ما الذى تعلمه منه ، والى أى حد سار فى طريق العلم تحت اشرافه الا أننا نستفيد مما ورد فى تاريخه " البداية والنهاية " أنه ختم القرآن الكريم حفظا سنة ٧١١ هـ على الشيخ العابد الناسك شمس الدين البعلبكى الحنبلى المتوفى سنة ٧٣٠هـ ، وقد أتم حفظ القرآن وهو لا يتجاوز الحادية عشرة (٢) ، وقرأشيئا من القراءات على يد الشيخ محمد بن جعفر بن فرعوش اللباد المعروف بالموالى المتوفى سنة ٧٢٣هـ ، وقد أقرأ الناس نحوا من أربعين سنة ... (٣) وكان يعلم الصغار عقد الراء والحروف المتقنة ونحوها .

كما حضر دروس الشيخ بدر الدين محمد بن بضحان المتوفى سنة ٧٤٣هـ شيخ القراء السبع بدمشق فى زمانه ، وقد باشر مشيخة الاقراء بتربة أم صالح

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣٢ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٥٠ .

(٣) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١١٤ .

وبالاشرفية ، وقد عد شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداوودى ابن كثير من القراء وترجم له فى طبقاتهم التى ألفها [١] .

وتعلم الكتابة على يد الكاتب الفاضل المجود ، كاتب الخط المعروف - بالمنسوب الشيخ نجم الدين موسى بن على بن محمد الجيلى المعروف بابن البصيص المتوفى سنة ٧١٦هـ ، اقام يكتب الناس خمسين سنة ، وقد كان شيخ صناعة الكتابة فى زمانه لاسيما فى المزوج والمثلث [٢] ، وقال ابن حجر : انه كتب الأقلام كلها ، ثم اخترع قلما ، سماه المعجز [٣] .

وتعلم النحو على الشيخ ضياء الدين عبد الله الزربندى المتوفى سنة ٧٢٣هـ ، وقد اضطرب عقله فى آخر حياته ، فقتل نصرانيا فشنق [٤] .

وتوجه لدراسة الحديث الشريف فسمع صحيح مسلم فى تسعة مجالس بقراءة الوزير ابى القاسم الازدى الاندلسى على الشيخ نجم الدين المسقلانى المتوفى سنة ٧٣٠هـ قراءة صحيحة [٥] .

وسمع بدار الحديث الاشرفية نحوا من خمسمائة جزء بالاجازات والسماع فى الحديث على شيخه المسند المعمر أبى العباس المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠هـ [٦] .

---

(١) أنظر عمدة التفسير لأحمد شاكر : جـ ١ / ص ٢٤ .
(٢) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٧٩ .
(٣) الدرر الكامنة : جـ ٤ / ص ٣٧٦ .
(٤) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٠٧ .
(٥) نفس المصدر : جـ ١٤ / ص ١٤٩ .
(٦) نفس المصدر : جـ ١٤ / ص ١٥٠ .

ثم أخذ الفقه على الشيخ برهان الدين الفزارى المعروف بابن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٩ ، والشيخ كمال الدين ابن قاضى شهبة المتوفى سنة ٧٢٦ هـ ، وغيرهما .

وحفظ " التنبيه " للشيرازى وعرضه سنة ٧١٨هـ ، ثم حفظ مختصر أبى الحاجب ، وقرأ تهذيب الكمال لشيخه المزى المتوفى سنة ٧٤٢هـ ، ودرس أصول الفقه على أبى البقاء الاصفهانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ .

ثم بدأت مواهبة تظهر وتنمو حتى تولى التدريس فى عدد من المدارس وألف الموسوعات النافعة فى التفسير والتاريخ والحديث ورجاله وغير ذلك الى جانب الأعمال الأخرى التى كان يمارسها كالخطابة والافتاء .

ولعل أهم العوامل التى كونت شخصيته العلمية الفذة هى : -

١ - الاسرة التى ولد فيها وتلقى فيها التوجيه السليم والرعاية الصحيحة منذ صغره ، فكان والده وأخوه عبد الوهاب - كما مر معنا - من أهل الديانة والعلم .

٢ - الموطن الذى عاش فيه " دمشق " ملتقى العلماء فى ذلك الوقت كان بها مدارس للحديث ودور للقرآن ، ومدارس للفقه ، حتى قيل ان عدد المدارس فى عصره كانت تزيد على مائة وثلاثين مدرسة .

٣ - كثرة العلماء الكبار والحفاظ المتقنين والفقهاء على المذاهب الأربعة كابن تيمية والمزى وابن الزملكانى والذهبى والسبكى وابن جماعة وغيرهم وان شخصا تتوفر له هذه العوامل مع صدق النية لكفيلة بأن تخرج منه شخصية علمية فذة .

((الفصل الثالث))

==

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

=== * ===

تتجلى مكانة ابن كثير ومنزلته العلمية من خلال ماتركه من كتب وتصانيف وتصانيف ، أودعها عصارة فكره وعقله ، وجمع فيها مبلغ علمه ونقله وضمنهـــا المعارف العالية ، والفقه السديد ، والنظرة الدقيقة الفاحصة ، فغدا بذلك مرجعا لطلاب العلم ومريدي المعرفة ، تخبرهم بما فيها من علم زاخر ، وفكر ثاقب ، واحكام صافية نيرة .

وأصبح كتبه مصدرا من مصادر رئيسية وهامة من كتب التراث ينهل منهـا طلاب العلم ، ويعولون عليها فيما يكتبون أو يبحثون ، وخاصة في تفســـير كتاب الله تعالى ومعرفة تاريخ الاسلام العام وتاريخ رجاله العظام .

لـذا تبوأ مكان الصدارة في كثير من المجالات التعليمية والوظيفية فـي عصره ، فقد تولى التدريس في أكبر مدارس دمشق كدار الحديث الاشرفية وتربـة أم صالح وغيرهما من المدارس .

ومما يدل أيضا على مكانته العلمية والاجتماعية الممتازة أنه كان يدعى الـى حضور لجان الامتحان الذي كانت تعقد في عصره لامتحان الصبيان والشبان النابهين ، فقد عقدت لجنة لامتحان بدر الدين محمد بن الشيخ كمال الديـن ابن الشريشي ، وكان يحفظ كثيرا من شواهد اللغة ، فدعي ابن كثير فيمن دعي اليها من أعلام عصره من المفسرين والمحدثين واللغويين والأدباء وغيرهـم يوم ٢٠ شعبان سنة ٧٦٣هـ .

وأحضرت نيف وأربعون مجلدا من كتاب المنتهى فى اللغة للتميمى البرمكى ليأخذها العلماء الحاضرون بأيديهم ، ويسألوه عن استشهاد الاشعار الواردة فى الكتاب ، واستمر هذا المجلس العلمى فى السؤال والمناقشة حتى جـــزم الحاضرون السامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذ عنه منها الا القليل الشاذ ، وكان تعليق ابن كثير عليه : " ان هذا من أعجب العجائب وابلغ الاعراب " . (١)

كما امتحن ابن كثير سنة ٧٤٧هـ صبيا عمره ست سنين كان قد حفظ القرآن الكريم ، وصل بالناس فى شهر رمضان ، امتحنه ابن كثير فاذا هو يجيد الحفظ والاداء ، وهذا من اغرب مايكون (٢) . نظرا الى سن الصبى .

وقد تولى ابن كثير منصب الافتاء رسميا ، وكثيرا ماكان يدعى الى مجالس التحكيم للفصل فى القضايا العلمية الدقيقة ، والخلافات الفقهية والمذهبية ولحضور الصالحات الهامة بين القضاة المتخاصمين .

ففى حوادث سنة ٧٦٦هـ يقول ابن كثير : " ولما كان يوم الأثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب مارمى به قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ابن قاضى القضاء تقى الدين السبكى وكنت ممـــن طلب اليه فحضرته فيمن حضر ... " (٣)

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) نفس المصدر : جـ ١٤ / ص ٢٢٠ .

(٣) نفس المصدر : جـ ١٤ / ص ٣١٦ - ٣١٧ .

وفى حوادث سنة ٧٤١هـ يقول : " وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس فى دار العدل بدار السعادة وحضرته يومئذ ، واجتمع القضاة والاعيان على العادة ، وأحضر يومئذ عثمان الدكاكى - قبحه الله تعالى - وان عى عليه بعظائم من القول لم يؤثر مثلها عن الحلاج ، ولا عن أبن أبى الخدافر السلقحانى ، وقامت عليه البينة بدعوى الالهية - لعنه الله - واشياء أخرى من التنقيص بالانبياء ..." (١) .

وقد أثنى على ابن كثير شيوخه ومعاصروه وتلاميذه ومترجموه ، وأجمعوا على الاشادة بحفظه المتون ومعرفته برجال الحديث ، وطوكعبه فى التفسير والتاريخ والفقه والنحو ، كما أشاروا الى صدق نهجته واعتداله ، وسرعة خاطره وحسن مفاكهته ، وجم مروءته وخلقه الحسن الطيب .

فهذا الذهبى الذى يعتبر أحد شيوخه يصف ابن كثير بـ " الامام الفقيه المفتى ، المحدث ، الأوحد البارع ذى الفضائل " (٢) .

وقال أيضا : " له عناية بالرجال والمتون والفقه خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم " (٣) .

وان تلميذا يترجم له استاذه لمن أعظم الدلائل على نجابة التلميذ وبلوغه منزلة التقدير والاحترام .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) تذكرة الحفاظ : جـ ٤ / ص ١٥٠٨ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

وقال الحافظ شهاب الدين بن حجي - وهو أحد تلاميذ ابن كثير:

" كان أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، واعرفهم بتخريجها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ ، قليل النسيان وكان فقيها جيد الفهم صحيح الذهن ويحفظ " التنبيه " الى آخر وقت ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر ، وما اعرف انى اجتمعت به على كثرة تردد ى اليه الا واستفدت منه "[1] .

وقال معاصره الحسيني : " الشيخ الامام العالم الحافظ المفيد البارع . . . أفتى ودرس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل "[2] .

وروى عن معاصر آخر له ، وهو ابن حبيب الحلبي الدمشقي أنه ذكر عنه " امام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنف وأطرب الاسماع بأقواله وشنف ، وحدث وأفاد وطارت أوراق فتاواه الى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت اليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير "[3]

وقال ابن حجر العسقلاني في "الدرر الكامنة " :

" . . . وكان كثير الاستحضار حسن الفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريقة المحدثين في

---

(١) طبقات المفسرين للداودى جـ/ ١ ص/ ١١١ ، شذرات الذهب جـ/ ٦ ص/ ٢٣١ .

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص/ ٥٨ ، والبدر الطالع للشوكاني جـ/ ١ ص/ ١٥٣ .

(٣) أنباء الغمر جـ/ ١ ص/ ٤٦

تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وانما هو من محدثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح ، وله فيه فوائد ... "[1] .

ويرد السيوطي على ابن حجر في هذا الكلام الذي انتقص فيه من مكانة ابن كثير كمحدث فيقول :

" العمدة في علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعلله واختلاف طرقه ورجاله جرحا وتعديلا ، وأما العالي والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات لا من أصول المهمة "[2] .

واتهم جار الله بن فهد ابن حجر بالتحيز والتعصب قائلا :

" وان كان الغالب عليه - على ابن كثير - السعة في حفظ المتون ولكن لم يكن بحيث لا يميز العالي من النازل ، باعتبار معرفته بطبقات الرواة وأحوالهم ، بل ذلك معالا يخفى على من هو دونه بمراحل في معرفة الرجال كيف وقد لازم المزي مدة طويلة في ذلك ، وعني بجمع التكميل ، وفي تراجم من شهروا بالبراعة ، تهدوا من ابن حجر سامحه الله "[3] .

أشاد المحدث المؤرخ بدر الدين الحسني بذكر ابن كثير - وكان يعتمد عليه في مؤلفاته - قائلا : " كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعاني والالفاظ سمع وجمع وصنف ، ودرس وحدث وألف ، وكان له اطلاع

---

(١) الدرر الكامنة : ج ١ / ص ٤٠٠ .

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي : ص/ ٣٦٢ .

(٣) أنظر هامش رقم ٢ من ذيل الحسني : ص/ ٥٨ .

عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى اليه علم التاريخ والحديث والتفسير "[١] .

وقد ره واعترف بفضله المتأخرون من العلماء والباحثين ، فقد لقبه الكتانى بـ " المحدث المتقن البارع "[٢] ، ووصفه الشيخ أحمد محمد شاكر بقوله : " امام عظيم من الأئمة الثقات المحققين "[٣] ، وعده الدكتور صلاح الدين المنجد من " أعظم العلماء المسلمين الدمشقيين فى الفقه والتفسير والحديث والتاريخ "[٤] .

وأن هذه الشهادات العلمية الطيبة بالثناء والاكبار على ابن كثير لهى من أعظم الدلائل على علو مكانته وارتفاع منزلته العلمية .

ولم يقتصر أثر ابن كثير كعالم مجدد ومصلح على ماورد فى آثاره وتصانيفه ولا على ماكان يدور فى حلقات الوعظ والتدريس ، بل تعداه الى كثير من مواقف الحياة ومجريات الأمور ، وهو رجل استطاع باعتداله كفقيه ، وبحياده كمؤرخ أن يصل الى قلوب الرعية ، وان يتمتع باحترام الحاكم وثقته ، وجاءته الشهرة فأصبح معروفا لدى الخاصة والعامة ، وتطلع الجميع الى آرائه ومواقفه فى كل حادثة تحدث أو قضية تعرض ، وهذه المواقف فى مجموعها تدل على غزارة العلم ، ونزاهة الحكم ، واستقلال الرأى ، والقيام بحق النصيحة

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١١ / ص ١٢٣ ، وعمدة التفسير : جـ ١ ص/ ٢٧ .

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى : ص/ ١٧٥ ، ط ٣ مطبعة دار الفكر دمشق سنة ١٣٨٣هـ .

(٣) مقدمة الباعث الحثيث شرح علوم الحديث لابن كثير : ص/ ٦ .

(٤) فى أول مولد الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير : ص/ ٥ .

ورأب الصدع ، وتقويم الاعوجاج .

ومن عدالته ماذكره هو نفسه فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ ماوقع من اعتداء الفرنج على مدينة الاسكندرية ، ومجيء المرسوم السلطانى بالانتقام من النصارى بالشام ومصادرة ربع أموالهم ، واعتراضه على ذلك فى موقف يدل على عدالة ووعى كامل فيقول :

" ... وردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الاسكندرية من الفرنج - لعنهم الله - وذلك أنهم وصلوا اليها فى يوم الاربعاء الثانى والعشرين من شهر الله المحرم ، فلم يجدوا بها نائبا ولا جيشا ولا حافظا للبحر ولا ناصرا ، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعد ما حرقوا أبوابا كبيرة منها ، وعاثوا فى أهلها فسادا يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله الكبير المتعال ..." .

ثم قال : " وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية الى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة ، وان يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة - ماخرب من الاسكندرية ، العمارة مراكب تغزو الفرنج ، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا ان يقتلوا ، ولم يفهموا مايراد بهم ، فهربوا كل مهرب ولم تكن هذه الحركة شرعية ، ولا يجوز اعتمادها شرعا ، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر الى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه انسا كثيرا ، ورأيته كامل الرأى والفهم ، حسن العبارة ، كريم المجالسة ، فذكرت له ان هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى ، فقال : ان بعض فقهاء مصر أفتى

للأمير الكبير ذلك ، فقلت له : هذا بما لا يسوغ شرعا ولا يجوز لأحد ان يفتي بهذا ، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون الينا الجزية ملتزمين بالذل والصغار ، وأحكام الملة قائمة ، لا يجوز ان يؤخذ منهم الدرهم الواحد - الفرد - فرق ما يبذلونه من الجزية ... "[1] .

وهذا غيض من فيض اكتفينا به من مواقف واعية وآراء سديدة تمثل العلم بها في حياة ابن كثير عملا وخلقا وسلوكا فاستحق محبة الناس كعالم عامل ومصلح مجاهد .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٣١٤ - ٣١٥ .

((الفصل الرابع))

==

"" أشهر شيوخ ابن كثير ""

=== * ===

اتجه ابن كثير في دراسته الى العلوم الشرعية ، وبخاصة الفقه والحديث والتفسير وما يتصل بها من علوم السنة والعربية ، وهو الاتجاه السائد في عصره ، وكان العلماء الذين يتصدرون حلقات العلم في المساجد والمدارس يلمون بفروع علوم الشريعة مجتمعة ، وقد يغلب على العالم منهم ان يشتهر باتقان فرع معين أو أكثر ، وكان التنافس على استلام مناصب القضاء والتدريس ونيل جوائز الحكام السخية واضحا بين العلماء ، فكنت لا ترى في قيادة موكب العلم الا من كان متقنا ومتفوقا ، واكتسب صيتا ذائعا عند العامة والخاصة بذكاء وقار ، وعلم غزير ، واستحضار كامل .

وكان هذا يستدعي ان يكون طلبة العلم من النابهين المتفوقين ، — كأساتذتهم ، والعالم الشيخ يكتشف هذا في حلقته سريعا ، فيقرب اليه النخبة ويضخهم حبه وعلمه ، ويغرس في نفوسهم كلمات التشجيع والأمل ليحملوا بجدارة راية العلم من بعده ، وينيب بعضهم في تقرير الدرس في حلقته اثناء غيابه أو مرضه .

وان ما نقل الينا من صفات اتصف بها ابن كثير وهو يطلب العلم لتؤكد أنه طالب علم نبيه ومتفوق ، فهو كثير الاستحفاظ ، قليل النسيان ، صحيح الذهن ، وهذا ما يفسر لنا العلاقة الحميمة بينه وبين شيوخه ، وبخاصة

الذين كان لهم أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية ومنهجه [١] .

وفيما يلي تعريفا اجماليا ببعض مشايخ ابن كثير وهم صفوة العلماء في عصره ، مرتبة أسماؤهم حسب سني وفاتهم : -

١ - اسحاق بن يحيى بن اسحاق الآمدي المتوفى سنة ٧٢٥هـ ، لم يذكر ابن كثير كتبا قرأها على هذا الشيخ ، ولم يحدد علما امتاز به غير علم الحديث ، فهو يقول في ترجمته بعد وفاته : " شيخ دار الحديث الظاهرية ، ولد في حدود الأربعين وستمائة ، وسمع الحديث على جماعة كثيرين ، منهم يوسف بن خليل ، ومجد الدين بن تيمية ، وكان شيخا حسنا ، بهي المنظر ، سهل الاسماع يحب الرواية ولديه فضيلة [٢]

٢ - عبد الوهاب بن ذؤيب الأسدي المعروف بابن قاضي شهبة المتوفى سنة ٧٢٦هـ .

وقد تفقه ابن كثير على هذا الشيخ ، لأنه كان ينوب عن الشيخ تاج الدين الفزاري في حلقته ، وله حلقة خاصة أيضا ، قال عنه ابن كثير: " كان بارعا في الفقه والنحو ، ولج حلقات يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة ، وكان يعتكف جميع شهر رمضان ولم يتزوج قط ، وكان حسن الهيئة والشيبة ، حسن العيش والطيش ثقلا من الدنيا [٣] .

---

(١) أنظر مقدمة الفصول اختصار سيرة الرسول : تحقيق محمد العيد الخضراوي ، ومحي الدين : ص / ٣١ - ٣٢ .

(٢) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٢٠ .

(٣) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٣ - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيميه المتوفى سنة ٧٢٨هـ ، لازم ابن كثير شيخه ابن تيمية ، وأحبه حبا عظيما ، وأخذ عنه فأكثر من آرائه ، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذي [١] .

لقد كان ابن كثير تلميذا مخلصا لابن تيمية ، تأثر به كل التأثر في نبذ البدع والضلالات المستحدثة ، ومناصرة السنة وأهلها .

وفي الجزء الرابع عشر من تاريخه الكبير " البداية والنهاية " نجده يتتبع مواقف الشيخ ابن تيمية النضالية وجهاده البطولي ، فيفرح لانتصاره على التتار وأهل البدع والزيغ ، ويحزن لسجنه ، وحضور الناس الى قلعة دمشق عند وفاته ، وتقبيل وجهه عند غسله ، كما يصف جنازته الكبرى التي خرج فيها أهل دمشق ومن حولها من القرى يودعون العالم المجاهد ، ويرى ابن كثير في هذه الحشود الحزينة أكبر انتصار لدعوة الشيخ الاصلاحية ، ولطمة موئلمة لأعدائه وحساده [٢] .

ولقد وصف ابن كثير ابن تيمية بـ " شيخنا العلامة " [٣] كما أشار الى حبه منذ الصغر في حوادث سنة ٧٠٩هـ حين سأله قاضي القضاة الحنفية صدر الدين " أتحب ابن تيمية ؟ فقلت نعم . فقال لي وهو يضحك " لقد أحببت شيئا طيبا " [٤] .

---

(١) شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢٣١ ، والدرر الكافية جـ ١ ص ٤٠٠ .

(٢) أنظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٥ ومابعدها .

(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٤٧ ، وجـ ٦ ص ٧٠ ، ٨٦ ، ٢٥٠ .

(٤) نفس المصدر : جـ ١٤ / ص ٥٥ .

وكذلك ذكر فى ترجمته لابن تيميه " وكان بينى وبينه مودة وصحبة من الصغر وسماع الحديث والطلب من نحو سنة ، وهذا يدل على ان ابن كثير كان يذهب اليه فى السجن للسماع وطلب العلم ، فقد كان ابن تيميه فى هذه الفترة مسجونا فى دمشق أى فى سنة ٧٢٠ وسنة ٧٢٦ هـ بسبب افتائه فى مسألة الطلاق الثلاثة بطلاق واحد ، ومنعه من زيارة قبور الانبياء والصالحين قصدا فيها .

وقال ابن كثير أيضا حين الاشارة الى تصانيفه : " وله تصانيف كثيرة وتعليق مفيدة فى الاصول والفروع ، كل منها جملة ، وبيضف وكتبت عنه ، وقرأت عليه او بعضها "(١) .

ولا شك ان صحبة ابن كثير لابن تيمية وملازمته له ، أثرت فى حياته أثرا عميقا وأفادته فائدة عظيمة فى علمه ودينه ، وتقوية خلقه وتربية شخصيته المستقبلة الممتازة ، فان التجديد الذى تميز به ابن كثير مع غزارة العلم واصالة الفكر كان فضله يعود الى علاقته بابن تيمية وحبه له وتأثره بآرائه ، فقد كان ابن كثير كاستاذه ابن تيمية ينفر من الخرافات ويميل الى الرجوع الى السنة ويعتمد على التحقيق والتدقيق "(٢) .

---

(١) نفس المصدر والجزء ص/١٢٧

(٢) مقدمة السيرة النبوية لابن كثير تحقيق / مصطفى عبد الواحد ، ج/١ ، ص/٧ مطبعة عيسى البابى الحلبى / القاهرة سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٦٤م .

٤ - ابراهيم بن عبد الرحمن الفزارى الشهير بابن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٩ سمع ابن كثير على هذا الشيخ صحيح مسلم وغيره فى الحديث ، وتفقه عليه فى المذهب الشافعى ، وهو معجب به عارف بما صنف معرفة القارئ المطلع المستفيد ، ولنسمع مايقوله عن شيخه هذا :

" له تعليق على التنبيه فيه من الفوائد ماليس يوجد فى غيره ، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب فى أصول الفقه ، وله مصنفات فى غير ذلك كبار ، وبالجملة فلم أر شافعيا من مشايخنا مثله وكان حسن الشكل عليه البهاء والجلالة والوقار حسن الاخلاق ، فيه حدة ثم يعود قريبا ، وكرمه زائد واحسانه الى الطلبة كثير "[1] .

٥ - محمد بن شرف الدين حسين بن غيلان البعلبكى الحنبلى المتوفى سنة ٧٣٠هـ .

ختم ابن كثير حفظ القرآن الكريم على هذا الشيخ سنة ٧١١هـ فهو من مشايخه الأوائل فى عهد الفتوة والطلب ، ويتحدث ابن كثير عن شيخه - هذا فيقول : " سمع الحديث وأسمعه ، وكان يقرئ القرآن طرفى النهار وعليه ختمت القرآن سنة احد عشر وسبعمائة ... "[2] .

٦ - أحمد بن أبى طالب بن أبى النعيم بن نعمة الحجار المعروف بابن الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠هـ .

وقد سمع على هذا الشيخ الجليل بدار الحديث ، بالاشرافية فى أيام

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق والجزء ص/ ١٥٠ .

الشتويات نحوا من خمسمائة جزء بالاجازات والسماعات ، يقول ابن كثير " كان شيخا حسنا ، بهى المنظر سليم الصدر ، ممتعا بحواسه وقواه فانه عاش مائة سنة محققا ، وزاد عليها لأنه سمع من الزبيدى فى سنة ٦٣٠هـ ، وأسمعه هو فى سنة ٧٣٠هـ فى ٩ صفر بجامع دمشق وسمعنا عليه يومئذ ولله الحمد ... "[1] .

٧ - عبد الله بن محمد بن يوسف المقدسى المتوفى سنة ٧٣٧هـ ، قرأ ابن كثير على هذا الشيخ العالم العابد كثيرا من الأجزاء الحديثية والفوائد فى مدينة نابلس عند عودة ابن كثير من مدينة القدس ، وقال عنه فى تاريخه : " ولد سنة ٦٤٧هـ وسمع الكثير ، وكان كثير العبادة ، حسن الصوت عليه البهاء والوقار ، وحسن الشكل والسمت .. "[2]

٨ - القاسم بن محمد البرزالى مؤرخ الشام الشافعى المتوفى سنة ٧٣٩هـ ويعتبر هذا الشيخ الامام الحافظ استاذا ابن كثير فى علم التاريخ خاصة وكتاب البرزالى فى التذييل على تاريخ الشيخ أبى شامة المقدسى كان مصدرا أساسيا لابن كثير فى تاريخه الكبير " البداية والنهاية " - وهذا مايثبته ابن كثير فى تاريخه فيقول : " هذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ علم الدين البرزالى فى كتابه الذى ذيل به على تاريخ شهاب الدين أبى شامة المقدسى ، وقد ذيلت على تاريخه الى زماننا هذا ، وكان فراغى من الانتفاء من تاريخه فى يوم الأربعاء ٢٠ جمادى

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ /ص ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق والجزء : ص/ ١٧٦ .

الآخرة من سنة ٧٥١هـ ..." [1] .

٩ - الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكى عبد الرحمن المزى المتوفى سنة ٧٤٢هـ .

وقد لازم ابن كثير هذا الشيخ الكبير ، وسمع عليه أكثر تصانيفه وتخرج على يديه ، ومن المؤكد أنه قرأ عليه كتابه فى تراجم الرجال المسمى : " تهذيب الكمال " يقول الحافظ ابن حجر فى معجمه : " وقد قرأت بخط ابن كثير فى آخر تهذيب الكمال قرأته من أوله الى آخره على مؤلفه وأجزت روايته عنى لكل من وقف على خطى هذا " [2] .

ولم يكتف ابن كثير من الحافظ أبى الحجاج لعلاقة الطالب المحب لأستاذه ، بل أضاف اليها علاقة المصاهرة فتزوج ابنته زينب ، وأصبح قريبا من الشيخ فى حلقته ، وقريبا منه فى بيته ، ومكثرا من الأخذ عنه والتأثر بمنهجه وسيرة حياته .

وسمع ابن كثير من مسند الشام بهاء الدين القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٧٢٣هـ ، كما سمع من عيسى بن المطعم ، ومحمد بن الزراد وابن الرضى ، والشيخ الحافظ شمس الدين الذهبى محمد بن أحمد قايماز المتوفى سنة ٧٤٨هـ ، وأجاز له من مصر : أبو الفتح الدبوسى ، وعلى ابن عمر الوانى ويوسف الختنى وأبو موسى القرافى والحسينى [3] وغيرهم .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ١٨٣ .

(٢) التنبيه والايقاظ لما فى ذيول تذكرة الحفاظ للطهطاوى ص/ ٢٦ .

(٣) أنظر الدرر الكامنة : جـ ١ / ص ٤٠٠ .

((الفصل الخامس))

==

"" أشهر تلاميذ ابن كثير ""

=== * ===

١ - بدر الدين الزركشي :

هو محمد بن عبد الله بن بهادر بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ أخذ عن جمال الدين الاسنوي وجمال الدين البلقيني ومغلطاوي وغيرهم في مصر ، ثم ترامت اليه شهرة ابن كثير فرحل الى دمشق فأخذ عنه الحديث وقرأ عليه مختصر في علوم الحديث ومدحه ببيتين [1] لعلهما ما أشار اليه ابن تغري بردي بقوله : " ولما مات ابن كثير رثاه بعض طلبته :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا * وجادوا بدمع لا يبيد غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما * لكان قليلا فيك يا ابن كثير [2]

ومن أشهر مؤلفاته : البرهان في علوم القرآن ، الاجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة ، تخريج أحاديث الشرح الكبير للرافعي وغيرها .

٢ - ابن عقبه :

هو محمد بن محمد بن عمر بن عقبه أبو عبد الرحمن البسكري المدني المتوفى سنة ٨٠٤هـ .

---

(١) الدرر الكامنة لابن حجر : ج ٣ / ص ٣٩٧ ، وحسن المحاضرة للسيوطي : ج ١ / ص ١٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١١ / ص ١٢٤ .

سمع من ابن نباته وابن رافع وابن كثير وحصل الاجزاء وتعب كثير أخذ عنه ابن حجر العسقلاني [١] .

٣ - سعد الدين النواوى - المتوفى سنة ٨٠٥هـ :

هو سعد الدين بن سعد بن يوسف بن اسماعيل النواوى الخليلى الشافعى ، أخذ عن الذهبى وابن نباته والمراكشى ، قال النعيمى :

" حمل عن ابن كثير ، وقرأ عليه تأليفه اختصار علوم الحديث ، واذن له ابن كثير بالفتوى " [٢] .

٤ - ابن الحريرى :

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد الحرير الدمشقى المعروف بالسلاوى ، المتوفى سنة ٨١٣هـ . نشأ يتيما واشتغل بالفقه ، سمع الحديث من ابن رافع وابن كثير ، وعن جده محمد بن عمر السلاوى ، ثم قرأ الصحيح مرارا على مشائخ منهم ابن كثير ، كان صوته حسنا وقراءته جيدة أولى قضاء بحلب والمدينة وغزة والقدس وغيرها [٣] .

٥ - أبو زيد الردماوى :

هو على بن زيد بن علوان بن حريز اليمنى الردماوى الزبيدى المتوفى سنة ٨١٣هـ .

---

(١) أنظر الضوء اللامع للسخاوى : جـ ٩ / ص ١٧٢ ، وشذرات الذهب : جـ ٧ / ص ٤٦ .

(٢) الدارس للنعيمى : جـ ١ / ص ٣٢٠ ، وشذرات الذهب جـ ٧ / ص ٤٩ .

(٣) انظر شذرات الذهب : جـ ٧ / ص ١٠٠ - ١٠١ ، والضوء اللامع : جـ ٢ / ص ٨١ .

ولد برد ما في شارق اليمن دون الاحقاف سنة ٧٤١هـ ، ونشأ بها حج ، وجاور بمكة مدة ، ثم سكن الشام ودخل العراق ومصر ، سمع من اليافعي والشيخ خليل وابن كثير وغيرهم .

برع في فنون من حديث ونحو وفقه وتاريخ وآداب [1] .

٦ - ابن حجي الحسباني :

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الملاء حجي بن موسى بن أحمد ابن سعد بن غزوان بن علي بن سرور ابن التركي الحسباني ، المتوفى سنة ٨١٦هـ .

ولد بدمشق ونشأ بها ، حفظ القرآن والتنبيه ، أخذ عن أبيه وابن قاضي شهبة وابن رافع .

أخذ عن ابن كثير الحديث وعلومه ، وشهد ان ابن كثير أحفظ من أدركه المتون الاحاديث وأعرفهم بجرحهم ورجالها ، كما صرح بملازمته له ست سنين .

وهو الذي ذيل على تاريخ ابن كثير من سنة ٧٤١ - ٧٤٦هـ ، ثم بدأ من سنة ٧٦٩هـ فكتب الى قبيل وفاته بيسير ، فكمله بعهد منه تلميذه تقي الدين بن قاضي شهبة الى أن بلغ فيه الى سنة ٨٤٠هـ [2] .

---

(١) أنظر : شذرات الذهب : جـ ٧ / ص ١٠٢ ، والضوء اللامع جـ ٥ / ص ٢٢١ .

(٢) أنظر : الدارس للنعيمي : جـ ١ / ص ١٤٢ ، وشذرات الذهب جـ ٧ / ص ١١٧ ، وأنباء الغمر لابن حجر جـ ١ / ص ٤٦ ، الضوء اللامع : جـ ١ / ص ٢٧٠ .

٧ - ابن الجـزرى :

هو شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف ابن الجزرى الدمشقى امام القراء فى عصره من غير مدافع ، المتوفـى سنة ٨٣٣هـ .

ولد بدمشق سنة ٧٥١ هـ ، أخذ القراءات عن عبد الله بن السلامة وغيره ، والفقه عن الاسنوى والبلقينى .

لقد صرح ابن الجزرى بنفسه بالسماع على ابن كثير فى كتابه العمـد الأحمد فى ختم مسند الامام أحمد ، حيث قال : " أما حديث أم زرع سمعت شيخنا الحافظ الحجة عماد الدين اسماعيل ابن كثير يقول ... الخ " ، وذكره فى الكتاب المذكور مرة أخرى بـ : " شيخنا الامام مؤرخ الاسلام ، وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء اسماعيل ابن عمر ابن كثير رحمه الله تعالى ، أخذ هذا الكتاب - المرتب من مؤلفه ، وأضاف اليه ... الخ "[1] .

من مؤلفاته : النشر فى القراءات العشر ، غاية النهاية فى طبقات القراء[2] .

ومن تلاميذ ابن كثير : شمس الدين محمد بن على بن أحمد بن محمد المعروف بابن اليونانية ، المتوفى سنة ٧٩٣هـ .

---

(١) العمد الأحمد لابن الجزرى : المنشور فى أول مسند الامام أحمـد تحقيق الشيخ أحمد شاكر : جـ ١ / ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) أنظر : الضوء اللامع : جـ ٩ / ص ٢٥٦ ، ودائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) : جـ ١ / ص ١١٩ .

قال ابن العماد : انه لخص تفسير ابن كثير ، وانتفع به .[1]

وشمس الدين أبو العباس محمد بن موسى بن محمد بن سند بن نعيم اللخمي المتوفى سنة ٧٩٢هـ .

ومحيي الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف ابن أحمد بن يحيى الرحبي المتوفى سنة ٧٩٤ هـ .

قال ابن حجر : " لازم ابن كثير وكتب عنه فوائد حديثية أكثرها يتعلق بالصحيح "[2] .

---

(١) شذرات الذهب : جـ ٦ / ص ٣٣١ .

(٢) الدرر الكامنة لابن حجر : جـ ٤ / ص ٣٤٠ .

((الفصل السادس))

===

"" مذهب ابن كثير ""

=====

عاش ابن كثير بدمشق، وكان المذهب الشافعي في مصر والشام في عصره أكثر انتشارا وأكثر اتباعا ، وكان أكثر شيوخ ابن كثير الذين تلقى عنهم العلوم على المذهب الشافعي ، وكان قد حفظ في صغره كتبا كثيرة في الفقه الشافعي ، فسار على هذا المذهب في حياته ، وألف في مناقب صاحب المذهب كتابا سماه " الواضح النفيس في مناقب ابن ادريس " وجعله كالمقدمة للكتاب آخر ألفه في رجال المذهب الشافعي وسماه " طبقات الفقهاء الشافعيين "[1] .

وقد ناضل عن هذا المذهب وناقش معارضيه ودافع عن آرائه فيه ويظهر هذا في ثنايا مؤلفاته .

قال عند تفسيره لقوله تعالى : " ان الله وملائكته يصلون على النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما "[2] ... وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بالصلاة علية وكيفية الصلاة عليه ... ومن هنا ذهب الشافعي - رحمه الله - الى أنه يجب على المصلي أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير فان تركه لم تصح صلاته .

---

(١) انظر كشف الظنون لحاج خليفة جـ ٢ ص ١١٠٥ ، والبداية والنهاية جـ ٦/ ص ٢٥١ ، جـ ١٠ ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، والنجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الاحزاب : الآية (٥٦) .

وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الامام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الاجماع على خلافة أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم فيما نقله القاضي عياض وقد تعسف القائل في رده على الشافعي وتكلف في دعواه الاجماع في ذلك وقال مالم يحط به علما فانا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة كما هو ظاهر الآية ، عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان ، واليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضا واليه ذهب الامام أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به ... (١) .

وبرغم ذلك لم يكن ابن كثير يسير وراء أقوال الشافعي أو غيره دون تفكير وتدبير ، فمصدره الأول الكتاب والسنة ، فاذا وجد المسألة في المذهب الشافعي لا ترضيه صرح بذلك وسار على غير مذهبه في تلك المسألة ، من ذلك قوله بمذهب الامام مالك وأحمد في مسألة مسح الرأس في الوضوء عند تفسيره لقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم ... " (٢) .

قال - ابن كثير - : وقوله " وامسحوا برؤوسكم " اختلفوا في هذه الباء هل هي للالصاق وهو الأظهر أو للتبعيض ، وفيه نظر على قولين :

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٤٥٠ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦ .

ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع فى بيانه الى السنة وقد ثبت فى الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أن رجلا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى ، وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم - هل تستطيع ان ترينى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرتين مرتين ، ثم مضمض واستنشق ثلاثا ، وغسل وجهه ثلاثا ، ثم غسل يديه مرتين الى المرفق ، ثم مسح رأسه بيديه ، فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ، ثم ذهب بهما الى قفاه ثم ردهما حتى رجع الى المكان الذى بدأ منه ، ثم غسل رجليه ... ففى هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب الى وجوب تكميل مسح جميع الرأس ، كما هو مذهب مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل فى القرآن .

وقد ذهب الحنفية الى وجوب مسح ربع الرأس ، وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا الى انه انما يجب مايطلق عليه أسم مسح ولا يقدر ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزأه .

واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال : " تخلف النبى - صلى الله عليه وسلم فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء ؟ فأتيته بطهرة فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة فأخرج يديه من تحت الجبة ، وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه ، وذكر باقى الحديث وهو فى صحيح مسلم وغيره

فقال لهم أصحاب الامام أحمد : انما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك وأنه يقع لمن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة ، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، - فهذا أولى ، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة (١) .

ولما كان شيخ الاسلام ابن تيمية من أخص شيوخه ، وأقربهم الى نفسه فقد تأثر به وأعجب بعلمه وشخصيته ، وآرائه فى مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وكان ابن كثير يبدى اعجابه بأقوال شيخه ابن تيميه ويثنى عليها من ذلك ماذكره فى كتابه " البداية والنهاية " فى حوادث سنة ٧٥٧هـ حيث قال : " وقد وقع ... نزاع فى مسألة المناقلة ، وكان ابن قاضى الجبل الحنبلى يحكم بالمناقلة فى قرار دار الأمير ... الى أرض أخرى يجعلها وقفا على ماكانت عليه ، ففعل ذلك بطريقه ونفذه القضاة الثلاثة ، الشافعى والحنفى والمالكى ، فغضب القاضى الحنبلى وهو قاضى القضاة جمال الدين المرداوى المقدسى من ذلك ، وعقد بسبب ذلك مجالس وتطاول الكلام فيه وادعى كثير منهم ان مذهب الامام أحمد فى المناقلة انما هو فى حال الضرورة ، وحيث لا يمكن الانتفاع بالموقوف ، فأما المناقلة لمجرد المصلحة والمنفعة الراجحه فلا وامتنعوا من قبول ماقرره الشيخ تقى الدين بن تيمية فى ذلك ونقله عن الامام أحمد بن حنبل من وجوه كثيرة من طريق ابنيه صالح وحرب ، -

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٤٥ - ٤٦ .

وأبـو داود وغيرهم أنها تجوز للمصلحة الراجحة .

وصنف فى ذلك مسألة مفردة وقفت عليها فرأيتها فى غاية الحسن والافادة ، بحيث لا يتخالج من اطلع عليها ممن يذوق طعم الفقه أنها مذهب الامام أحمد رحمه الله [1] .

---

(١) البداية والنهاية : جـ ١٤ / ص ٢٥٤ .

((الفصل السابـــع))

==

عقيدة ابن كثـــير

====

ابن كثير أحد العلماء الأجلاء الذين عرفوا بصفاء العقيدة والسير على مذهب السلف الصالح ، واعلاء هذا المذهب واظهاره والتأكيد عليه في كتبه وخطبه ورسائله .

والناظر في مؤلفاته يجد فيها المنهج القويم من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والسير على مذهب السلف الصالح ومنابذة أهل الكفر والالحاد وأصحاب الفرق والملل والنحل والأهواء .

وقد ادعى بعض الناس من ان ابن كثير اشعرى العقيدة ،[1] وهذه الدعوى تخالف عقيدة الشيخ[2] ، ولابطال هذه التهمة نرى أن نذكر بعض أقوال ابن كثير وتقريراته التي تدل على عقيدته :

قال - رحمه الله - في الفصل الرابع من كتابه " العقيدة " :

والبارى عز وجل منزه عن أن يجب عليه شيء أو يلزمه لازم ، والمخلوقون مكلفون فيجب عليهم الواجب ويلزمهم فهو سبحانه وتعالى منزه عن صفات

---

(١) أنظار الفصول اختصار سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : تحقيق محمد العبد الخطراوى ، ومحيى الدين - ص ٣٣ ، الطبعة الأولى سنة : ١٣٩٩ هـ - ١٤٠٠هـ دار القلم دمشق .

(٢) الأشعرية : هم الذين يقولون : ان لله صفات سبعا : الحياة والعلم والقدرة والارادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، وينفون أو يؤولون ، ماعداها كالمحبة والغضب وغيرهما . انظر بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ص ١٠ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ مطبعة الحكومية بمكة المكرمة .

المخلوقين ، فاذا نطق الكتاب العزيز وورد ت الأخبار الصحيحة باثبات السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعظمة والمشيئة والارادة والقول والكلام والرضى والسخط والحب والبغض والفرح والضحك وجب اعتقاد حقيقتـه من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين ، وان تنتهي الـى ماقاله الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من غير اضافة ولا زيادة عليه ولا تكييف له ولا تشبيه ولا تحريف ولا تبديل ولا تغيير ولا ازالة لفظ عمـا تعرفه العرب ، وتضعه عليه والامساك عما سوى ذلك (١) .

وقال - رحمه الله - في الفصل الثالث : "الوجود الذاتي ثابـت لـه سبحانه والصفات ثابته له سبحانه وتعالى ازلا وأبدا ووجود المخلوقـين وصفاتهم منفية عنه سبحانه وتعالى فهو سبحانه قديم أزلي دائم سرمدي ، والمخلوقون حادثون دائمون بادامته فانون بافنائه ، مبعوثون ببعثه ، منشورون بنشره ، فاذا ثبت نصا في الكتاب العزيز والسنة النبوية على قائلها أفضل الصلاة والتسليم أنـه سبحانه خلق آدم بيده وأنه قال لابليس : " مامنك أن تسجـد لما خلقت بيدي " (٢) ، وأنـه سبحانه قال : " بل يداه مبسوطتان " (٣) - وثبت في الصحيح محاجة آدم وموسى وقوله له خلقك الله بيده ، وقال صلى الله عليه وسلم : خلق الله الفردوس بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة لموسى بيده وغير ذلك من الأخبار ، وجب علينا اعتقاد ان آدم حق وحرام علينا ان

---

(١) كتاب العقائد لابن كثير ، مخطوط بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وهو مصور من الأصل بجامعة الملك عبد العزيز بجدة لوحة (٣) .

(٢) سورة ص : الآية (٧٥) .

(٣) سورة المائدة : الآية (٦٤) .

نقول الله تعالى خاطبنا بما نفهمه ولا نفهم اليد الا ذات الكف والأصابع فنشبهه بخلقه فيؤدى الى التجسيم تبارك وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، أو نقول المراد النعمتين أو القوتين ، لأنه تعذر حمله على اليد التى نفهمها فتعين تأويله على ذلك خوفا من التشبيه ، وهذا تعويف لما فيه من التعطيل ، كيف والاجماع على ان الصفات توقيفية ولم يثبت دليل بالمراد على ما تأولوه وهو قول المعتزلة والجهمية ، أعاذنا الله من ذلك .

فتعين القول بتنزيه البارى عز وجل عن التشبيه والتعطيل وعن التحريف والتكييف والتمثيل والاخذ بقوله تعالى " ليس كمثله شئ وهو السميع البصير " منا من الله سبحانه بالتفهم والتعريف لسلوك التوحيد والتنزيه وكذا القول فى جميع ماثبت من ذلك (١) .

وعلى هذا المنهج القويم سار ابن كثير فى تفسيره لآيات الصفات فى موضع عدة من تفسيره من ذلك عند تفسيره لقوله تعالى (ثم استوى على العرش) (٢) قال - ابن كثير - : فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها ، وانما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك ، والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد واسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا ، وهو اقرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادل الى أذهان المشبهين منفى عن الله ، فان الله لا يشبهه شئ من خلقه (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) بل الأمر كما قال الأئمة نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال : من -

---

(١) كتاب العقائد : لوحه (٣) .
(٢) سورة الأعراف : الآية (٥٤) .

شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما ورد به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى (١) .

كما تصدى ابن كثير للرد على بعض الفرق والطل كالشيعة والخوارج وفند مزاعمهم وبين أن جميع الفرق على ضلال الا واحد وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال عند تفسيره لقوله تعالى : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ) (٢) الآية فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم انهم على شئ ، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة الا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه ، كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية منهم ؟ فقال : " من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابى " (٣)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ ص/ ٤٢٢

(٢) سورة الأنعام : الآية (١٥٩) .

(٣) تفسير ابن كثير جـ/ ٦ ص/ ٣٢٣ .

الفصل الثامن

==== * ====

تفسير ابن كثير ومنهجه فيه

===== * ======

أما تفسيره فقد ألفه أو بدأ بتأليفه وهو في مطلع شبابه ، ومما يدل على ذلك ثناء ابن تيمية - شيخ الاسلام - على هذا التفسير (١) .

والمعروف ان ابن تيمية توفي ولم يبلغ مفسرنا الثلاثين من عمره (٢) ولا غرابة في ذلك اذا علمنا أنه رجل صالح منحه الله بسطة في المعرفة ، وكانت حياته خالصة للعلم منذ نعومة أظافره ، ومرن على التأليف وتعاطاه وهو تلميذ صغير في حلقة شيخه الكبير برهان الدين الفزاري .

يقول ابن العماد الحنبلي : " وألف في صغره احكام التنبيه " (٣) .

ويقول ابن حجر أيضا : " وألف في صغره أحكام التنبيه ، فيقال : ان شيخه البرهان أعجبه واثنى عليه ... " (٤) .

وتفسير الامام ابن كثير من التفاسير التي كتب الله لها القبول في الارض وقد طبع طبعات كثيرة منها : طبعة تمت على نفقة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله - بتحقيق رشيد رضا ، ومنه تفسير البغوي في تسع مجلدات ، وتمت

---

(١) انظر : دائرة المعارف للبستاني ج/ ٣ ص/ ٤٧٧

(٢) توفي الامام ابن تيمية سنة ٧٢٨ هـ ، وولد ابن كثير سنة ٧٠١ هـ .

(٣) شذرات الذهب ج/ ٦ ص/ ٢٣١

(٤) أنباء الغمر ج/ ١ ص/ ٤٥ - ٤٦

هذه الطبعة بدار المنار سنة ١٣٤٢ - ١٣٤٧هـ ، ثم أعيد طبعه مستقلا عن المغوى سنة ١٣٨٤هـ في أربع مجلدات من القطع الكبير ، وعلق حواشيه عبد الوهاب عبد اللطيف الاستاذ بكلية الشريعة بجامعة الازهر ، ونشرته مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة .

وطبع في أربع مجلدات كبار في مصر ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، وطبع في لبنان في سبع مجلدات ، كما طبع في ثماني مجلدات ، بدار الشعب بمصر بتحقيق البنا وفهيم وعاشور ، وفيها فهارس علمية موضوعية .

وقد اختصر هذا التفسير مع التحقيق المرحوم احمد شاكر ، وسماه "عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير" وفيه فوائد علمية رائعة ، ولكنه لم يكمل والمطبوع منه خمسة أجزاء وصل فيه الى الاية الثامنة من سورة الانفال .

واختصره أيضا في طبعة أنيقة الشيخ محمد علي الصابوني في ثلاث مجلدات وسماه "مختصر تفسير ابن كثير" طبعة دار القرآن الكريم ببيروت سنة ١٣٩٣هـ .

واختصره كذلك الشيخ محمد نسيب الرفاعي في أربع مجلدات وسماه : "تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير" الطبعة الاولى ببيروت سنة ١٣٩٢هـ .

ويكفي لهذا التفسير وصاحبه شرفا أن هذا التفسير يعتبر الآن على رأس التفاسير التي تعتمد على الكتاب والسنة الصحيحة ، وأبعدها عن الخرافات الاسرائيلية ، ولذا حاز اعجاب وثقة العلماء القدامى والمحدثين من المسلمين وأصبح مرجعا كبيرا للدارسين والباحثين ، وقد أثنى على هذا التفسير -

- كما قلنا سابقا - الامام ابن تيمية شيخ ابن كثير [١] ، كما اعتبره شيخه الذهبي " مفسرا نقادا " [٢] وقال الامام السيوطي عن هذا التفسير " لم يؤلف على نمطه مثله " [٣] .

أما الامام الشوكاني فكان يعده " من أحسن التفاسير ان لم يكن أحسنها " لأنه " جمع فيه فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار ، وتكلم بأحسن الكلام وانفسه " [٤] .

وعلق الشيخ أحمد شاكر طيه باعتباره من " أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها ، بعد تفسير امام المفسرين أبي جعفر الطبري ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا ، فيما رأينا مثلهما ، ولا يقاربهما " واعتبره بجانب فائدته في التفسير " معلما ومرشدا " لطلاب الحديث ، لأن الطالب يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يميز الصحيح من غيره فهو كتاب - في هذا المعنى - تعليمي عظيم ، ونفعه كثير [٥] .

---

(١) دائرة المعارف للبستاني : ج ٣ / ص ٤٧٧ .

(٢) ذيل الحسيني : ص/ ٨٥ .

(٣) ذيل السيوطي : ص/ ٣٦١ .

(٤) البدر الطالع للشوكاني : ج ١ / ص ١٥٣ .

(٥) عمدة التفسير : ج ١ / ص ٦ .

منهج ابن كثير فى هذا التفسير

===

أما منهجه فى هذا التفسير فللكلام عنه نقول : -

لقد تعددت مناهج المفسرين واختلفت فى مادة تفسيرها وفى اسلوبها وفى طريقة عرضها .

وقد اختار ابن كثير لنفسه أفضل تلك المناهج وأحسنها وأقربها الى الحق وأبعدها عن الخطأ والزلل فى تفسير كتاب الله ، وهذا المنهج هو - ماذكره فى مقدمة تفسيره وسار عليه فى كتابه .

فقد قال - أى ابن كثير - : " ان أصح الطرق فى ذلك - أى فى التفسير - ان يفسر القرآن بالقرآن فما اجمل فى مكان فانه قد فسر فى موضع آخر ، فان اعياك ذلك، فعليك بالسنة فانها شارحة للقرآن وموضحة له . .

واذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، رجعنا فى ذلك الى - أقوال الصحابة ، فانهم ادرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، والعمل الصالح لاسيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين .

واذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك الى أقوال التابعيين . . .

أما التفسير بمجرد الرأى فهو حرام [1] .

---

(١) أنظر مقدمة تفسير ابن كثير : تحقيق عبد العزيز غنيم وزملائه جـ ١ / ص ١٢ - ١٥ .

===

فقد عوّل ابن كثير على هذا المنهج من التفسير ما استطاع الى ذلك سبيلا وسلك فى تطبيقه فى هذا التفسير طريقة فريدة :

١ - تفسير القرآن بالقرآن :

ويمتاز ابن كثير فى تفسيره هذا بأنه يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة ، وان أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها ، وقد يذكر فى تفسير الآية الواحدة عدة آيات ، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير : " تفسير القرآن بالقرآن " مثال ذلك ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى : " اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون")[1] .

قال - ابن كثير - : يخبر تعالى ان اليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه)[2] .

=== وهذا المنهج هو ماذكره شيخه ابن تيمية فى كتابه : " مقدمات فى فهم القرآن " وأنظر كتاب " أصول التفسير " لابن تيمية تحقيق الدكتور عدنان زرزور : ص ٩٥ - ٩٦ ، وكتاب " دقائق التفسير" لابن تيمية كذلك : ج ١ / ص ٧٦ .

حيث عمد ابن كثير الى أحد فصول الكتاب وهو فصل " أحسن طرق التفسير " فاتخذه منهجا لتفسيره ، فنقله بنصه .

(١) سورة يونس : الآية (٤) .

(٢) سورة الروم : الآية (٢٧) .

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل والجزاء الأوفى (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من (سموم وحميم وظل من يحموم)[١] (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج)[٢] (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن)[٣] .

هذه أربع آيات متتالية ساقها لتفسير آية واحدة ، وقد يسوق أكثر من ذلك ، والامثله على ذلك كثيرة جدا فى تفسيره .

وطريقته التى سار عليها أنه يقدم الآية على سواها من حديث أو أثر أو قول الا اذا كان الحديث ألصق معنى بالآية المفسرة فانه يقدمه ، ثم يتلوه بالآية مقدما لها بقوله : " وهذه الآية شبيهة بآية كذا " أو " وهذه الآية كقوله " أو " مثلها فى سورة كذا " أو نحو ذلك .

مثال ذلك ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ...)[٤] قال - ابن كثير - : استفهام انكار ، ومعناه ان الله سبحانه وتعالى لابد ان يبتلى عباده المؤمنين بحسب ماعندهم من الايمان ... وهذه الآية كقوله (أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[٥] ومثلها فى سورة براءة

---

(١) سورة الواقعة : الآية ٤٢ .

(٢) سورة ص : الآية ٥٧ - ٥٨ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٤٣ - ٤٤ ، انظر تفسير ابن كثير .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٢ .

(٥) لعل الشيخ يقصد الآية التى فى سورة آل عمران وهى قوله تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) . الآية ١٤٢ .

وقال فى البقرة (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب)[1] .

وحينا يورد عددا من الآيات فى الموضوع الواحد فانه يهدف من ايراده لها الى غرض معين فى نفسه كتأكيد لمعنى قد يفهم منه خلافه أو دحض شبهة فيورد ما يحضره من الآيات فى ذلك لدحض تلك الشبهة وبيان زيفها ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (ان الله لا يستحيى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ...)[2] الآية قال - ابن كثير - : قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله هذه الآية ... فأخبر أنه لا يستصغر شيئا يضرب به مثلا ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف من خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)[3] وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)[4] .

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢١٤) .
(٢) سورة البقرة : الآية (٢٦) .
(٣) سورة الحج : الآية (٧٣) .
(٤) سورة العنكبوت : الآية (٤١) .

وقال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ...) [١] وقال : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء) [٢] الآية ، ثم قال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) [٣] الآية ، كما قال (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) [٤] الآية ، وقال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ...) [٥] الآية ، وقد قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) [٦] ، وفي القرآن أمثال كثيرة [٧] .

---

(١) سورة ابراهيم : الآية (٢٤ - ٢٦) .

(٢) سورة النحل : الآية (٧٥) .

(٣) سورة النحل : الآية (٧٦) .

(٤) سورة الروم : الآية (٢٨) .

(٥) سورة الزمر : الآية (٢٩) .

(٦) سورة العنكبوت : الآية (٤٣) .

(٧) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٩٢ - ٩٤ .

٢ - تفسير القرآن بالسنة :

ولما كان ابن كثير ممن اشتهر بجمع الحديث ونقده وتخريجه فقد سهل عليه حين ألف تفسيره ان يتفوق في هذا القسم من أقسام التفسير - أي تفسير القرآن بالسنة - على غيره من المفسرين ، ذلك أنه اعتمد في تفسيره على أكثر كتب السنة من الصحاح ، والمسانيد والسنن والمعاجم والمستخرجات وغيرها حتى شغلت مادة الحديث في تفسيره اكبر حيز ، وقد يكثر احيانا نقله للحديث حتى أنه ينقل في بعض المواضيع جل ماورد فيه من الأحاديث كنقله في أول سورة الاسراء أكثر الاحاديث الواردة في الاسراء [1] ، حتى ان أحد العلماء جرده من الاسانيد واخرجه في كتاب مستقل [2] .

وقد ينقل في تفسير الآية الواحدة كتابا كاملا ، مثال ذلك مافعله عند تفسيره لقوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) [3] حيث نقل جزءا جمعه شيخه الذهبي في تحريم اتيان المرأة في دبرها ، وفي نهاية نقله قال : وقد استقصاه شيخنا الحافظ الذهبي في جزء جمعه في ذلك [4] .

وعند تفسيره لقوله تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) [5] ، ذكر ثلاثة عشر حديثا ، قدم لها بقوله :

---

(١) أورد ابن كثير مجموعة كبيرة جدا من صفحة ٤ الى صفحة ٤٢ .

(٢) هو الشيخ اسماعيل الأنصاري ، وقد طبع الكتاب في الرياض سنة ١٣٩٣هـ

(٣) سورة البقرة : الآية (٢٢٣) .

(٤) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٣٧٧ - ٣٨٩ .

(٥) سورة النساء : الآية (٤٨) .

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة نذكر منها ماتيسر ، ثم ذكرها واتبعها بعدة آثار[١] .

وعند تفسيره لقوله تعالى (يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ..)[٢] نقل كتاب ابن أبى الدنيا فى " الخمول والتواضع " وقدم له بقوله : وقد جمع الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا نحن نذكر منه مقاصده[٣] .

وعند تفسيره لقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)[٤] ، ذكر قرابة ثمانية وعشرين حديثا ثم قال : وهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ...)[٥] .

ويلاحظ من هذه النماذج التى سقناها ان ابن كثير قد أطال فى سرده لعدد من الأحاديث فى تفسير الآية الواحدة أو الآيات حتى ان القارئ لكثرة الاحاديث قد ينسى المعنى التفسيرى الذى من أجله سيق الحديث .

ولكن ابن كثير فى غالب هذه المواضيع يرمى الى تحقيق معنى قد يظهر للقارئ من أول الأمر وقد يخفى عليه فلا يظهر الا بالتأمل والتدبر .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٥٠٨ - ٥١٠ .
(٢) سورة لقمان : الآية (١٦) .
(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٣٤٣ .
(٤) سورة آل عمران : الآية (١١٠) .
(٥) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٧٧ - ٨٦ .

من ذلك ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ...) [1] حيث ذكر قرابة سبع عشرة رواية عن أحمد وابن جرير والبيهقي وأبو نعيم ثم قال : فهذه الطرق كلها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم ذهب الى الجن قصدا فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الله عز وجل ، وشرع الله لهم على لسانه ماهم محتاجون اليه في ذلك الوقت [2] .

وطريقته في نقل هذه الأحاديث في تفسيره ايرادها بأسانيدها من كتب السنة وكتب التفسير الا ماينقله من الصحيحين فانه لا يذكر اسناده الا نادرا .

وهو في ايراده لهذا الحشد من الأحاديث لا يوردها على علاتها كبعض المفسرين بل يبين صحيحها من سقيمها وقويها من ضعيفها متعقبا لها بالنقد والتمحيص بنظارته الدقيقة وخبرته الواسعة في مجال نقد الحديث ورجاله .

وأنظر اليه على سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ...) [3] الآية ، فقد ذكر حديثا عن ابن مردوية فقال : قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن علي بن الحسن المقرئ ، حدثنا محمد بن اسحاق السراج ، وحدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا النضر بن زرارة الكوفي عن عبد الله ابن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقيم كفارة اليمين مدا من حنطة بالمد الأول :

---

(١) سورة الأحقاف : الآية (٢٩) .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٢٧٩ .

(٣) سورة المائدة : الآية (٨٩) .

قال ابن كثير عن هذا الحديث : اسناده ضعيف لحال النضر بن زارة ابن عبد الأكرم الذهلي الكوفي نزيل بلخ ، قال فيه أبو حاتم الرازي : هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد ، وذكره ابن حبان في الثقات وقال : روى عنه قتيبة بن سعيد اشياء مستقيمة فالله أعلم . ثم ان شيخه العمري ضعيف أيضا [1] .

وعند تفسيره لقوله تعالى : " ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ... " [2] الآية .

يروى حديثا عن ابن أبي حاتم فيقول : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا محمد العنقزي ، حدثنا اسباط بن نصر عن السدي عن أبي سعيد الأزدي - وكان قارئ الازد - عن أبي الكنود ، عن خباب في قول الله عز وجل : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم ، فأتوه فخلوا به وقالوا : انا نريد ان تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا ، فان وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد ، فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت ، قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك كتابا . قال :

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ / ص ١٦٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٥٢) .

فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب ، ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريل فقال : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) ... الآية ، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ، ثم دعانا فأتيناه .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : هذا حديث غريب ، فان هذه الآية مكية ، والأقرع بن حابس وعيينة انما أسلما بعد الهجرة بدهر .(١)

وعند تفسيره لقوله تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) .(٢)

ذكر حديثا عن ابن جرير فقال : قال جرير : حدثنا سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد ، كتب الي عباد بن كثير ، حدثني ليث ، عن طاوس ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان في هذه الأمة (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) ، وليسوا منك ، هم أهل البدع ، وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : هذا الاسناد لا يصح فان عباد بن كثير متروك الحديث ، ولم يختلق هذا الحديث ، ولكنه وهم في رفعه ... .(٣)

هذه أمثلة قليلة أوردتها ليتضح من خلالها شيخصية العالم المحدث والناقد البصير والمفسر الجليل ، والداعية الواعي ، الذي يعني مايقول ويقول مايعني ، ففي تفسيره ومؤلفاته خير شاهد لمكانته العلمية .

---

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ / ص ٢٥٥ .
(٢) سورة الأنعام : الآية (١٥٩) .
(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ / ص ٣٧٢ .

٣ - تفسيره بأقوال الصحابة والتابعين :

هذا وقد يرجع ابن كثير الى تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين وقد أكثر النقل من أقوالهم وتفسيراتهم ، فيبدأ بأقوال الصحابة ثم يتبعها بأقوال التابعين ، فاذا كانت هذه الأقوال متفقة اكتفى بالاشهر والأقرب للمعنى المراد تفسيرها به .

أما اذا كانت الأقوال مختلفة فى الالفاظ والمعنى فانه يذكر جملة من الأقوال يصدرها بالقول الذى يرتضيه ويراه مناسبا لتفسير الآية وغالبا مايشير اليه ويرجحه ، ومن أمثلة ذلك ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى (يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله بنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم)(١)

فقد ذكر فى تفسير قوله (لا شرقية ولا غربية) قرابة خمسة عشر قولا بعضها للصحابة كابن عباس وبعضها للتابعين كمجاهد وعكرمة ، وقد صدرها بقوله : أى ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل اليها الشمس من أول النهار ولا فى غربيها فيقلص عنها الفئ قبل الغروب بل هى فى مكان وسط تحصرها الشمس من أول النهار الى آخره فيجئ زيتها صافيا معتدلا مشرقا ، ثم ساق بقية الأقوال ، ثم قال : وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار الى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ، ولهذا

---

(١) سورة النور : الآية (٣٥) .

قال (تكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) [١] .

وما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى (انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) [٢] حيث حكى في تفسير " عبوسا " الأقوال التالية :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : عبوسا ضيقا، قطريرا طويلا

وقال عكرمة وغيره عنه في قوله (يوم عبوسا قمطريرا : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران .

وقال مجاهد (عبوسا) العابس الشفتين (قطريرا) قال : يقبض الوجه باليسور .

وقال سعيد بن جبير وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول ، — (قطريرا) تقلص الجبين وما بين العينين من الهول ،

وقال ابن زيد : العبوس الشر ، والقطرير الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها ، وأحلاها وافلاها ، وأولاها قول ابن عباس رضي الله عنهما [٣] .

وتارة يكون الاختلاف في الالفاظ فقط ، وهي في هذه الحالة يحاول ابن كثير الجمع بين تلك الأقوال وتقريب بعضها من بعض .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى : (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) [٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٦٢ - ٦٤ .
(٢) سورة الانسان : الآية (١٠) .
(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٣١٤ .
(٤) سورة المائدة : الآية (٤٨) .

قال سفيان الثورى وغيره ، عن أبى اسحاق عن التميمى عن ابن عباس أى مؤتمنا عليه .

وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وروى عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والسدى وابن زيد نحو ذلك .

وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل .

وعن الوالبى عن ابن عباس : مهيمنا : أى شهيدا ، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدى .

وقال العوفى عن ابن عباس : مهيمنا أى حاكما على ما قبله من الكتب وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فان اسم المهيمن يتضمن هذه كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله [(١)] .

وعند تفسيره لقوله تعالى (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون) [(٢)] .

حكى قرابة خمسة عشر قولا فى معنى أصحاب الأعراف ثم قال : واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع الى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله [(٣)] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ /ص١٢٩ . (٢) سورة الأعراف : الآية (٤٦) .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ /ص ١٤ .

وأحيانا يحكى أقوال المفسرين المختلفة الألفاظ والمعنى ولا يرجح قولا على آخر ولا يبدى رأيه فيها أو فى احدها بل يكتفى بعرض أقوال المفسرين منسوبة اليهم .

مثال ذلك ماذكره عند تفسيره لقوله تعالى (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين)[1] . فلقد ذكر فى معنى (عن اليمين) تسعة أقوال : قال الضحاك عن ابن عباس : يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا اذلاء وكنتم اعزاء .

وقال مجاهد : يعنى عن الحق والكفار تقوله للشياطين .

وقال قتادة قالت الانس للجن انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قال من قبل الخير فتنهونا عنه وتبطئونا عنه .

وقال السدى : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق .

وقال الحسن فى قوله تعالى (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أى والله يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه .

وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير وردد تمونا عن الاسلام والايمان والعمل بالخير الذى أمرنا به .

وقال يزيد الرشك : من قبل لا اله الا الله ، وقال خصيف : يعنون من قبل ميامنهم .

وقال عكرمة (انكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال : من حيث نأمنكم[2] .

---

(١) سورة الصافات الآية ٢٨ . (٢) تفسير ابن كثير جـ / ص ٧ - ٨ .

ومثال آخر ذكر عند تفسيره لقوله تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شئ قدير) [1] أى وغنيمة أخرى وفتحا آخر معينا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم واحاط بها لكم ، فانه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون .

ثم قال - ابن كثير - : وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة مالمراد بها ؟ فقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما هى خيبر ... وقال الضحاك وابن اسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، وقال قتادة : هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبى ليلى والحسن البصرى : هى فارس والروم ، وقال مجاهد : هى كل فتح وغنيمة الى يوم القيامة .

وقال الطيالسى : حدثنا شعبة عن سماك الحنفى عن ابن عباس رضى الله عنهما (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) قال : هذه الفتوح التى تفتح الى اليوم [2] .

ومما تقدم يتبين ان ابن كثير فى تفسيره يستعرض أقوال الصحابة والتابعين فى الآية ، فاذا قام الدليل عنده على ترجيح رأى رجحه وقال به وان تساوت عنده الأقوال حاول الجمع بينها ، وان تعذر ذلك اكتفى بسرد الأقوال منسوبة الى أصحابها .

أما التفسير بالرأى فانه يرى - تبعا لشيخه ابن تيمية - انه ينقسم الى محمود والى مذموم ، فما كان موافقا للغة القرآن أو السنة أوعموم لغة العرب وأقوال الصحابة فهو محمود ، وما اعتمد على مجرد الرأى والهوى فهو مذموم .

---

(١) سورة الفتح : الآية (٢١) .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

((الفصل التاسع))

= * =

- ({ المقارنة بين التفسيرين }) -

== == ==

وبالمقارنة بين التفسيرين نجد ان هناك أوجهـا للاتفاق والتشابه بينهما ، كما نجد أوجهما للاختلاف .

وهـذه بعض أوجـه التشابه : -

أولا == : كلا التفسيرين يغلب عليهما طابع التفسير بالمأثور ، حيث يعتمـد كل واحد منهما على ماورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن صحابته الكرام ، ثم عن التابعين والامثلة فى ذلك تكاد تكون فى كل صفحـة من صفحات هذين التفسيرين .

ثانيا == : كلاهما يدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة ، ويرد على أهـل الزيغ والضلال ، ونجد ذلك واضحا فى التفسيرين ، فمثلا عند قولـه تعالى (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير)[1] . يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية : اختلف أهل التأويل فـى تأويل قوله (لا تدركه الابصار ...) .

فقال بعضهم : معناه لا تحيط به الأبصار ، وهو يحيط بها ...

وقال آخرون : لا تراه الأبصار ، وهو يرى الابصار ... وقال آخرون : معنى ذلك : لا تدركه أبصار الخلائق فى الدنيا ، وأما فى الآخـرة فانها تدركه ، والمراد بالادراك هنا الرؤية .

---

(١) سورة الأنعام : الآية/١٠٣ .

وقال آخرون : لن يدرك الله بصر أحد من الناس في الدنيا والآخرة ولكن الله يحدث لأوليائه يوم القيامة حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس فيرونه بها .

ثم علق - ابن جرير - على هذه الأقاويل بقوله : والصواب ما تظاهرت به الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " انكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس - ليس دونها سحاب " .

فالمؤمنون يرونه ، والكافرون يومئذ عنه محجوبون كما قال جل ثناؤه : " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " (١) .

ثم بدأ الرد على كل قول خالف هذه الحقيقة وبين وجوه البطلان فيه وعلل لذلك ، ودلل بالبراهين القاطعة ، وختم الرد على المعتزلة وغيرهم من الفرق المنحرفة بعبارة فيها كل معنى الاستنكار بقوله :

" وهم لا يرجعون فيما يقولون الى آية من التنزيل محكمة ولا رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ولا سقيمة فهم في الظلمات يخبطون وفي العمياء يترددون نعوذ بالله من الحيرة والضلالة " (٢) .

وأما ابن كثير فقد قال عند تفسيره للآية :

وقوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) فيه أقوال للأئمة من السلف :

احدها : لا تدركه في الدنيا ، وان كانت تراه في الآخرة كما تواترت

---

(١) سورة المطففين : الآية (١٥) .

(٢) تفسير الطبري : ج ١٢ / ص ١٣ - ٢٢ .

بـه الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابـت في الصحاح والمسانيد والسنن ...

وقال آخرون : (لا تدركه الابصار) أى : جميعها ، وهـذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الآخرة .

وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى مافهموه من هذه الآية : أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة ، فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ، أما الكتاب فقوله تعالى : " وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة " [1] وقال تعالى عن الكافرين " كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون " [2] .

قال الامام الشافعي : فدل هذا على ان المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى ، وأما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة ، وأنس ، وجرير ، وصهيب ، وبلال ، وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات ، وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه [3] .

ثالثا : كلا التفسيرين يحملان الالفاظ القرآنية على حقيقتها مالم يكن هناك مانع كما ظهر عند تفسيرهما للفظ " الناظرة " في قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وقد حمل كل واحد منهما على أنه نظرة

---

(١) سورة القيامة : الآية / ٢٢ .
(٢) سورة المطففين : الآية / ١٥ .
(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٣ / ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

حقيقية يوم القيامة ، وأما اذا كان هناك مانع من حمل اللفظ على حقيقته فانهما يؤولانه ليتفق مع ماورد والآيات الأخرى أو ليتفق مع ماجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثال ذلك تأويل ابن جرير للفظ " سيئة " الذى ورد فى سورة البقرة عند قوله تعالى (بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون)[1] أول هذا اللفظ من العموم الى الخصوص حيث فسر اللفظ بالشرك بقوله : وأما السيئة التى ذكر الله فى هذا المكان فانها الشرك بالله .

ثم سرد المرويات التى تؤيد ماذهب اليه الى أن قال : انما قلنا ان السيئة - التى ذكر الله جل ثناؤه ان من كسبها واحاطت به خطيئته فهو من أهل النار المخلدين فيها - فى هذا الموضع انما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض وان كان ظاهرها فى التلاوة عاما لأن الله قضى على أهلها بالخلود فى النار ، والخلود فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الايمان به لتظاهر الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أهل الايمان لا يخلدون فيها ، وان الخلود فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الايمان[2] .

وقد سار ابن كثير فى تفسيره على الطريقة التى سار عليها ابن جرير حيث ذكر رواية عن ابن عباس وغيره فى هذا المعنى[3] .

---

(١) سورة البقرة : الآية / ٨١ .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ١٧٠ - ١٧١ .

رابعا : كلا التفسيرين اختصرهما علماؤنا الأجلاء :

فتفسير الامام ابن جرير الطبرى قد اختصره الامام يحيى محمد بن صالح التجيبى المتوفى سنة ٤١٩ هجرية ، وهو مطبوع فى مجلدين تحقيق محمد حسن أبو العزم الزفيحنى ، طبع سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م من قبل الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

وأما تفسير ابن كثير فقد اختصره عدد من العلماء :

منهم الشيخ أحمد شاكر الذى قام باختصاره وتحقيقه وسماه " عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير " الا أنه لم يكمله ، والمطبوع منه خمسة أجزاء وصل فيه الا الآية الثامنه من سورة الأنفال .

ومنهم فضيلة الشيخ محمد على الصابونى الذى اختصره فى ثلاث مجلدات وسماه " مختصر تفسير ابن كثير " طبعة دار القرآن الكريم ببيروت سنة ١٣٩٣هـ .

ومنهم الشيخ محمد نسيب الرفاعى الذى اختصره فى أربع مجلدات ، وسماه " تيسير العلى القدير لاختصار تفسير ابن كثير " الطبعة الأولى ببيروت سنة ١٣٩٢هـ .

هذه هى أهم وجوه الاتفاق بين تفسير الطبرى وتفسير ابن كثير . .

وأما وجوه الاختلاف بين التفسيرين فمن أهمها :

أولا : ان تفسير ابن جرير أضخم حجما ، وأقدم زمنا ، حيث يقع هذا التفسير فى ثلاثين جزءا من الحجم الكبير ، بينما يقع تفسير ابن كثير فى أربع مجلدات .

وبالنسبة للزمن فقد ألف تفسير الطبرى فى القرن الثالث ، بينما تفسير ابن كثير كان تأليفه فى القرن الثامن .

ثانيا : ان تفسير ابن جرير فى مجموعه أغزر فى سوق الروايات . .

==

وانما قلنا " فى مجموعه " لأن ابن كثير فى بعض الأحيان يتوسع فى سرد الروايات عند تفسيره للآية أكثر من ابن جرير .

فمثلا أورد ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : " نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم . . . "[(١)] أكثر من ستين حديثا فى تحريم اتيان المرأة فى دبرها[(٢)] .

وعند قوله تعالى (يابنى ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ان الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر . . .)[(٣)] ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات مايقارب خمسين أثرا تتعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه[(٤)] .

وعند قوله تعالى (كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . . .)[(٥)] ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية قرابة ثمانية وعشرين حديثا ، ثم قال : وهذه الأحاديث فى معنى

---

(١) سورة البقرة : الآية / ٢٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٣٧٧ - ٣٨٩ .

(٣) سورة لقمان : الآية / ١٦ - ١٩ .

(٤) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٣٤٣ - ٣٤٩ .

(٥) سورة آل عمران : الآية / ١١٠ .

قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن عن المنكر ...)[1] .

والذى يرجع الى تفسير ابن جرير لهذه الآيات لا يراه قد أتى بكل الأحاديث والآثار التى أوردها ابن كثير - رحمهما الله - .

ثالثا : ان تفسير ابن جرير مشتمل على كثير من الاسرائيليات والأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية بدون تعليق عليها منه ، وأما تفسير ابن كثير فيقل فيه وجود هذه الاسرائيليات والأحاديث الضعيفة ، واذا وجدت فانه كثيرا ما ينبه عليها .

فمثلا عند قوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ...)[2] ذكر ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الآثار منها قوله : حدثنا عصام بن رواد الجراح قال : حدثنا أبى قال : ثنا سفيان بن سعيد الثورى قال : ثنا منصور بن المعتمر ، عن ربعى بن حراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان بنى اسرائيل لما اعتدوا وعلوا وقتلوا الأنبياء ، بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر وكان الله ملكه سبع مائة سنة ، فسار اليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها وقتل على دم زكريا سبعين ألف ، ثم سبى أهلها ...

---

(١) سورة آل عمران : الآية / ١١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٧٧ - ٨٦ .

(٣) سورة الاسراء : الآية / ٤ .

وسبى الأنبياء ، وسلب حلى بيت المقدس ، واستخرج منها سبعين ومئة ألف عجلة من حلى حتى أورد بابل ، قال حذيفة : فقلت : يارسول الله لقد كان بيت المقدس عظيما عند الله ؟ قال أجل بناه سليمان بن داود من ذهب ودر وياقوت وزبرجد ، وكان بلاطه بلاطة من ذهب وبلاطة من فضة وعمده ذهبا ، أعطاه الله ذلك ، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين ، فسار بختنصر بهذه الاشياء حتى نزل بها بابل ، فأقام بنو اسرائيل في يديه مائة سنة تعذبهم المجوس وأبناء المجوس ، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء . . . (١)

وقد علق ابن كثير على هذه الرواية عند تفسيره للآية بقوله : وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا اسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة ، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث . .

والعجب كل العجب كيف راج عليه مع امامته وجلالة قدره ، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى - رحمه الله - بأنه موضوع مكذوب

وقد وردت في هذا - أى في معنى الآية - آثار كثيرة اسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها ، لأن منها ماهو موضوع من وضع زنادقتهم ، ومنها ماقد يحتمل ان تكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها ولله الحمد ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله اليهم ، وقد أخبر الله - تعالى - أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٥ / ص ٢٢ .

فلستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا ، وماربك بظلام للعبيد ، فانهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء [١]

وعند قوله تعالى (وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ...) الآية .

قال ابن جرير : وهذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه له ، وذلك ان داود كانت له فيما قيل : تسع وتسعون امرأة وكانت للرجل الذى اغزاه حتى قتل امرأة واحدة ، فلما قتل نكح داود امرأته ...

ثم بدأ - أى ابن جرير - بسرد حوالى عشر صفحات من الآثار كلها تدور حول هذا المعنى وتؤكده [٢] .

وقد علق ابن كثير عند تفسيره للآية بقوله : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس - ويزيد وان كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى ان يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها الى الله عز وجل ، فان القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا [٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ٤٤ .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ٢٣ / ص ١٤١ - ١٥١ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٥١ .

وعند قوله تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ...) [1] الآية ، قال

قال ابن جرير : روى عن السدى قال : " أمر الله بنى اسرائيل بالسير الى اريحا - وهى أرض بيت المقدس - فسافروا حتى اذا كانوا قريبا منهم بعث موسى اثنى عشر نقيبا من جميع اسباط بنى اسرائيل ، فسافروا يريدون ان يأتوه بخبر الجبابرة ، فلقيهم رجل من الجبارين يقال له "عاج" فأخذ الاثنى عشر فجعلهم فى حجزته - موضع شد الازار - وعلى رأسه حملة حطب فانطلق بهم الى أمرأته فقال : انظرى الى هؤلاء القوم الذين يزعمون انهم يريدون أن يقاتلونا فطرحهم بين يديها ، فقال : الا أطحنهم برجلى ؟ فقالت امرأته : بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ... الخ " ثم روى - أى ابن جرير - عن اسحاق اسماء النقباء فقال : وهذا اسماء الرهط الذى بعث الله - جل ثناؤه - من بنى اسرائيل الى أرض - الشام فيما يذكر أهل التوراة ليجسوسها لبنى اسرائيل : بن سبط روبيل (شامون بن زكون) ، ومن سبط شمعون : (شافاط بن حرى) ...

ثم روى عن ابن عباس قال : فانطلقوا فنظروا الى المدينة فجاءوا بحبة من فاكهتهم وقر رجل (حمل رجل) فقالوا : اقد رؤقوة قوم وبأسهم هذه فاكهتهم . فعند ذلك فتنوا فقالوا : لا نستطيع القتال (فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) [2] .

---

(١) سورة المائدة : الآية (١٢) .

(٢) " " " : " (٢٤) ، أنظر تفسير الطبرى جـ ١٠ ص ١١١-١١٧

وقد علق ابن كثير فى تفسيره وتاريخه على ماذكره ابن جرير فى صفة الجبارين بقوله : وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطله يدل العقل والنقل على خلافها ، من أنهم كانوا اشكالا هائلة ضخاما جدا ، حتى أنهم ذكروا من ان رسل بنى اسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا ويلقهم فى اكمامه وحجزة سراويله ، وكل هذه هذيات وخرافات لا حقيقة لها ، وان الملك بعث معهم عنبا كل عنبة تكفى الرجل وشيئا من ثمارها ليحملوا ضخامة أشكالهم ، وهذا ليس بصحيح ... ثم قال - ابن كثير - : يروى هذا عن نوف البكالى ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفى اسناده اليه نظر ، ثم هو مع هذا كله من الاسرائيليات فان الاخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا تميز بين صحيحها وباطلها ، ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو اسرائيل معذورين فى النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالسيئة على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم .. (١)

وبعد : فهذه هى أهم وجوه الاتفاق والاختلاف بين التفسيرين وهناك وجوه أخرى يدركها المتأمل فى هذين التفسيرين الجليلين ..

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير : جـ ٣ / ص ٧٠ - ٧١ ، والبداية والنهاية : جـ ١ / ص ٢٧٨ .

الباب الثالث

((الباب الثالث))

استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره

ان الاستدراكات التي استدركها ابن كثير على ابن جرير في تفسيره تنقسم الى قسمين : قسم يتعلق بسند الحديث ومتنه ، وقسم آخر يتعلق بتفسير الاية أو بمعنى الاية .

وهذا القسم الثاني هو محل بحثنا ، لانه ألصق بتخصصنا كطلبة شعبة التفسير . وأما القسم الاول أي سند الحديث ومتنه فهو ألصق بزملائنا في شعبة السنة . وان كان لا يمنعنا هذا أن نعطي القارئ نموذجا أو أمثلة من هذا القسم .

فان القارئ لتفسير ابن كثير - رحمه الله - يراه قد استدرك على ابن جرير - رحمه الله - استدراكات متنوعة فيما يتعلق بمتن الحديث وسنده .

فهو تارة يعلق على آثار وأحاديث أوردها ابن جرير بأنها موضوعة أو من الاسرائيليات ، أو منكرة أو غريبة أو ضعيفة أو فيها نظر أو غير ذلك من تعبيرات الناقدين للاحاديث والاثار .

وسنكتفي هنا بايراد بعض النماذج لاستدراكات ابن كثير على ابن جرير في هذا الشأن فنقول وبالله التوفيق :

١ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (لا تأخذه سنة ولا نوم)(١) حديثا قال فيه : حدثنا اسحاق بن أبي اسرائيل قال ، حدثنا هشام

---

(١) سورة البقرة الاية / ٢٥٥

فقال : أنت الهادى ياعلى ، بك يهتدى المهتدون بعدى [١] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا الحديث فيه نكارة شديدة [٢] .

٣ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (سأرهقه صعودا) [٣] حديثا قال فيه : حدثنى يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى كذلك منه أبدا " [٤] .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وفيه غرابة ونكارة [٥] .

٤ - وعند قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) [٦] قال ابن جرير : حدثنا أبو حميد الحمصى أحمد بن المغيرة قال ، حدثنا يحيى بن سعيد قال ، حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان الله ليدفع بالمؤمن الصالح عن مئة أهل بيت من جيرانه البلاء ثم قرأ ابن عمر : " ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض " [٧] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١٢ ص/ ١٠٨
(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٤ ص/ ٣٥٦
(٣) سورة المدثر الاية/ ١٧
(٤) تفسير الطبرى جـ/ ٢٩ ص/ ١٥٥
(٥) تفسير ابن كثير جـ/ ٨ ص/ ٢٩١
(٦) سورة البقرة الاية/ ٢٥١
(٧) تفسير الطبرى جـ/ ٥ ص/ ٣٧٤

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا اسناد ضعيف ، فان يحيى بن سعيد هو أبو زكريا العطار الحمصي وهو ضعيف جدا [١] .

٥ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ...) [٢] ، حديثا قال فيه : حدثني علي بن سعيد الكندي قال ، حدثنا علي بن مسهر عن حارثة بن محمد ، عن عمرة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حلف على يمين قطيعة رحم أو معصية لله ، فبره ان يحنث بها ويرجع عن يمينه [٣] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا حديث ضعيف ، لان حارثة هو ابن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن ، متروك الحديث ضعيف عند الجميع [٤] .

٦ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون ، واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة وان الله عنده أجر عظيم) [٥] . حديثا قال فيه : حدثنا القاسم بن بشر بن معروف قال ، حدثنا شبابة بن سوار قال ، حدثنا محمد المحرم قال : لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال ، حدثني

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٤٤٧

(٢) سورة البقرة الاية/ ٢٢٥

(٣) تفسير الطبري جـ/ ٤ ص/ ٤٤٢

(٤) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٣٩١

(٥) سورة الانفال الاية/ ٢٨

جابر بن عبد الله : أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ان ابا سفيان فى مكان كذا وكذا ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه : ان ابا سفيان فى مكان كذا وكذا فأخرجوا اليه واكتموا ! قال : فكتب رجل من المنافقين الى ابى سفيان : "ان محمدا يريدكم ، فخذوا حذركم" فأنزل الله عز وجل "لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم" (١) .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : هذا حديث غريب جدا وفى سنده وسياقه نظر (٢) .

قلت : واما بالنسبة لسند الحديث فلحال شبابة بن سوار .

فقد قال عنه الذهبى : فيه بدعة ، وقال احمد بن حنبل : كان داعية الى الارجاء ، وقال عنه ابو حاتم : لا يحتج به (٣) .

٧ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ...) (٤) الاية ، حديثا قال فيه : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن جابر عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن عبد الله بن علقمة ابن الفغواء عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراق

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١٢ ص/ ٤٨٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ ص/ ٥٨٢

(٣) ميزان الاعتدال جـ/ ٢ ص/ ٢٦٠

(٤) سورة المائدة الاية/ ٦

البول نكلمه فلا يكلمنا ، ونسلم عليه فلا يرد علينا ، حتى يأتي منزلـــه فيتوضأ كوضوئه للصلاة ، فقلنا : يارسول الله ، نكلمك فلا تكلمنا ونسلم عليك فلا ترد علينا ؟ قال : حتى نزلت آية الرخصة " ياأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة . . . "(١)

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهو حديث غريب جدا وجابـــر هذا هو ابن يزيد الجعفي ضعفوه(٢) .

٨ - وعند قوله تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفي سجين ، وماأدراك ما سجين كتاب موقوم ، ويل يومئذ للمكذبين . . .)(٣) قال ابن جرير : حدثنا اسحاق بن وهب الواسطي ، قال : ثنا مسعود بن سكان الواســـطي قال : ثنا نضر بن حزيمة الواسطي عن شعيب بن صفوان عن محمد بـــن كعب القرظي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : - " الفلق جب في جهنم مغطى وأما سجين فمفتوح "(٤) .

استدرك ابن كثير على هذا الحديث بقوله : حديث غريب منكر لا يصـــح(٥) قلت : لعله لوجود شعيب بن صفوان ، وقد ضعفه بعض العلماء . قال عنه أبو حاتم : لا يحتج به(٦) .

---

(١) تفسير الطبري جـ/ ١٠ ص/ ٢٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ ص/ ٤٢ - ٤٣

(٣) سورة المطففين الاية/ ١٠

(٤) تفسير الطبري جـ/ ٣٠ ص/ ٩٥ - ٩٦

(٥) تفسير ابن كثير جـ/ ٨ ص/ ٣٧١

(٦) خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال للخزرجي ص/ ١٤١

٩ - ذكر ابن جرير حديثا عند ذكره لاختلاف العلماء في لفظ "غاسق" في قوله تعالى (ومن شر غاسق اذا وقب) [١] قال ابن جرير : وقال آخرون : هو كوكب ، وكان بعضهم يقول : ذلك الكوكب هو الثريا ... ولقائلي هذا القول علة من أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما حدثنا به نصر بن علي ، قال : ثنا بكار بن عبد الله بن أخي همام قال : ثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (ومن شر غاسق اذا وقب) قال : النجم الخاسق [٢] .

وقد استدرك ابن كثير على هذا الحديث بقوله : قلت : وهذا الحديث لا يصح رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم [٣] .

١٠ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (والفجر وليال عشر والشفع والوتر ...) [٤] حدثنا بقوله : حدثني عبد الله بن أبي زياد القطواني قال : ثني زيد بن حباب ، قال : أخبرني عياش بن عقبة قال : ثني جبير بن نعيم ، عن أبي الزبير عن جابر ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والفجر وليال عشر " قال : عشر الاضحى [٥] .

---

(١) سورة الفلق الاية / ٣

(٢) تفسير الطبري جـ/ ٣٠ ص/ ٣٥٢

(٣) تفسير ابن كثير جـ/ ٨ ص/ ٥٥٥

(٤) سورة الفجر الاية / ٣

(٥) تفسير الطبري جـ/ ٣٠ ص/ ١٦٩

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا اسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندى ان المتن فى رفعه نكارة [1] .

١١ - أورد ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) [2] أثرا قال فيه : حدثنا ابن حميد قال : ثنا يعقوب القمى عن جعفر عن أبى ابزى ، قال : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم بالهدى ، وانتهى الى ذى الحليفة ، قال له عمر : يانبى الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ، قال : فبعث الى المدينة فلم يدع بها كراعا ولا سلاحا الا حمله ، فلما دنا الى مكة منعوه ان يدخل فسار حتى أتى منى ، فنزل بمنى فأتاه عينه ان عكرمة بن ابى جهل قد خرج علينا فى خمس مائة ، فقال لخالد بن الوليد : ياخالد هذا ابن عمك قد أتاك فى الخيل فقال خالد : انا سيف الله وسيف رسوله .

فيومئذ سمى سيف الله - يارسول الله ، ارم بى حيث شئت ، فبعثه على خيل فلقى عكرمة فى الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ، ثم عاد فى الثانية فهزمه حتى ادخله حيطان مكة ، ثم عاد فى الثالثة حتى ادخله حيطان مكة فأنزل الله (وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم) . . . . الى قوله (عذابا أليما) ، قال : فكف الله النبى عنهم من بعد ان -

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ٨ ص/ ٤١٣

(٢) سورة الفتح الاية/ ٢٤

أظفره عليهم لبقايا من المسلمين كانوا بقوا فيها من بعد ان اظفره عليهم كراهية أن تطأهم الخيل بغير علم [١] .

وقد علق ابن كثير على هذا الاثر بقوله : وهذا السياق فيه نظر ، فانه لا يجوز ان يكون عام الحديبية ، لان خالدا لم يكن أسلم ، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ ، كما ثبت في الصحيح ، ولا يجوز ان يكون في عمرة القضاء ، لانهم قاضوه على ان يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام ، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه [٢] .

١٢ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (وانذر عشيرتك الاقربين) [٣] حديثا قال فيه : حدثنا ابن حميد قال : ثنا سلمة ، قال : ثني محمد ابن اسحاق عن عبد الغفار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عن عبد الله بن عباس عن علي بن ابي طالب قال : "لما نزلت هذه الاية على رسول الله صلى الله عليه وسلم (وانذر عشيرتك الاقربين) دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : ياعلي ان الله أمرني ان انذر عشيرتي الاقربين قال : فضقت بذلك ذرعا وعرفت أني متى ماأناد هم بهذا الامر أرضهم ماأكره ، فصمت حتى جاء جبريل فقال : يامحمد انك الا تفعل ماتؤمر به يعذبك ربك . فاصنع لنا صاعا من الطعام ، واجعل عليه رجل شاه

---

(١) تفسير الطبري جـ/ ٢٦ ص/ ٩٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٧ ص/ ٣٢٤ - ٣٢٥

(٣) سورة الشعراء الاية/ ٢١٤

واملأنا عسا من لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى أكلمهم وابلغهم ماأمرت به ، ففعلت ماأمرنى به ثم دعوتهم له ، وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه ، فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبولهب فلما اجتمعوا اليه دعانى بالطعام الذى صنعت لهم ، فجئت به ، فلما وضعته تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم حذية من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ، قال : خذوا باسم الله ، فأكل القوم حتى مالهم بشىء حاجة وماأرى الا مواضع أيديهم وايم الله الذى نفسى بيده ان كان الواحد ليأكل ماقدمت لجميعهم ، ثم قال : اسق الناس فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعا ، وايم الله ان كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكلمهم ، بدره ابولهب الى الكلام ، فقال : لهد ماسحركم به صاحبكم ، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : الغد يا على ، ان هذا الرجل قد سبقنى الى ماقد سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان أكلمهم ، فاعد لنا من الطعام مثل الذى صنعت ثم أجمعهم ، قال : ففعلت ثم جمعتهم ، ثم دعانى بالطعام فقربته لهم ففعل كما فعل بالامس ، فأكلوا حتى مالهم بشىء حاجة ، قال : اسقهم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعا ، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يابنى عبد المطلب انى والله ماأعلم شابا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، انى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى الله أن أدعوكم اليه فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر

على أن يكون أخي وكذا وكذا ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعـــا وقلت : وانى لأحدثهم سنا وأرمصهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، واحمشهم ساقا أنا يا نبى الله أكون وزيرك ، فأخذ برقبتى ، ثم قال : ان هذا أخي وكـذا وكذا فاسمعوا له واطيعوا ، قال : فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالـب قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع [(١)] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : تفرد بهذا السياق : - عبد الغفار بن القاسم أبو مريم وهو متروك كذاب شيعى ، اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله [(٢)] .

١٣ - وعند قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيـت ويطهركم تطهيرا) [(٣)] قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، قال : ثنا أبو نعيم ، قال : ثنا يونس بن أبى اسحاق قال : أخبرنـــى أبو داود عن أبى الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر علـــى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت النبى صلى الله عليـــه وسلم اذا طلع الفجر جاء الى باب على وفاطمة فقال : الصلاة الصلاة (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) [(٤)] .

علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : أبو داود الأعمى هو : نفيع بن الحارث ، كذاب [(٥)] .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٩ / ص ١٢١ - ١٢٢ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ١٨٠ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية (٣٣) .
(٤) تفسير الطبرى : جـ ٢٢ / ص ٦ .
(٥) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٤٠٧ .

١٤ - وعند قوله تعالى (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب)[1]

قال ابن جرير : حدثنا هشام بن رواد بن الجراح قال : ثنا أبى قال : ثنا سفيان بن سعيد قال : ثنى منصور بن المعتمر عن ربعى بن حراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب قال : فبينما هم كذلك ، اذ خرج عليهم السفيانى من الوادى اليابس فى فورة ذلك ، حتى ينزل دمشق ، فيبعث جيشين : جيشا الى المشرق وجيشا الى المدينة حتى ينزلوا بأرض بابل فى المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة ، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويبقرون بها أكثر من مائة امرأة ، ويقتلون بها ثلاث مائة كبش من بنى العباس ، ثم يتعدون الى الكوفة فيخربون ما حولها ، ثم يخرجون الى الشام فتخرج راية هدا من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على الفئتين فيقتلونهم ، لا يفلت منهم مخبر ، ويستنقذون ما فى أيديهم من السبى والغنائم ، ويحل جيشه التالى بالمدينة فينهبونها ثلاثة أيام ولياليها ، ثم يخرجون متوجهين الى مكة حتى اذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل ، فيقول : ياجبريل اذهب فأبدهم ، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم ، فذلك قوله فى سورة سبأ (ولو ترى اذا فزعوا فلا فوت ...) الآية ، ولا ينفلت منهم الا رجلان : أحدهما بشير والآخر نذير ، وهما من جهينة فذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين[2] .

---

(١) سورة سبأ : الآية (٥١) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ٢٢ / ص ١٠٧ .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : هذا حديث موضوع بالكلية ثم لم ينتبه - ابن جرير - على ذلك وهو أمر عجيب غريب منه [١] .

١٥ - وعند قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) [٢] . قال ابن جرير : حدثنا أحمد بن منصور قال : ثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، قال : ثنا ابراهيم ابن طهمان عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كان سليمان نبي الله اذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه ، فيقول لها ما اسمك ؟ فتقول : كذا فيقول لأي شيء أنت ؟ فان كانت تغرس غرست ، وان كانت لدواء - كتبت ، فبينما هو يصلي ذات يوم اذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك ؟ قالت : الخراب ، قال : لأي شيء أنت ؟ قالت: لخراب هذا البيت ، فقال سليمان : اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم الانس ان الجن لا يعلمون الغيب ، فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة ، فسقط ، فتبينت الانس والجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا في العذاب المهين ، قال : وكان ابن عباس يقرأها كذلك ، قال فشكرت الجن للأرضة ، فكانت تأتيها بالماء [٣] .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٥١٥ .
(٢) سورة سبأ : الآية (١٤) .
(٣) تفسير الطبري : جـ ٢٢ / ص ٧٤ .

وقد استدرك ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب ان يكون موقوفا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة (١) .

١٦ - وعند قوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) (٢) .

قال ابن جرير : حدثنا على بن شعيب قال : ثنا محمد بن اسماعيل ابن كديك عن ابراهيم بن الفضل عن أبى حسين المالكى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نودى : أين ابناء الستين ، وهو العمر الذى قال الله (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) (٣) .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : هذا الحديث فيه نظر لحال ابراهيم بن الفضل (٤) .

قلت : ابراهيم بن الفضل المخزومى ، قال عنه البخارى : منكر الحديث . وقال النسائى : ليس بثقة ولا يكتب حديثه ، وقال ابن عدى : ولا يجوز الاحتجاج به ، وقال ابن معين : ضعيف لا يكتب

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .
(٢) سورة فاطر : الآية (٣٧) .
(٣) تفسير الطبرى : جـ ٢٢ / ص ١٤١ - ١٤٢ .
(٤) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٥٣٩ .

حديثه . وقال الامام احمد : ليس بالقوى فى الحديث [١] .

١٧ - وعند قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) [٢] قال ابن جرير : حدثنا ابو كريب ، قال : ثنا زيد بن حباب ، عن الحسن بن دينار عن على بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الاحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره قال : هو اسحاق [٣] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : ففى اسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصرى ، متروك . وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحديث [٤] .

١٨ - وعند قوله تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم) [٥] قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع قال : ثنا معاذ ، قال : ثنا ابن عون ، قال : كنت أسأل عن الانتصار (ولمن انتصر بعد ظلمه) . . . الاية ، فحدثنى على بن زيد بن جدعان ، عن ام محمد امرأة أبيه ، قال ابن عون : زعموا أنها كانت تدخل على ام المؤمنين قالت : قالت ام المؤمنين : دخل

---

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص/١٧-١٨ ، وميزان الاعتدال جـ/١ ص/٥٢

(٢) سورة الصافات الاية/١٠٧

(٣) تفسير الطبرى جـ/٢٣ ص/٨١

(٤) تفسير ابن كثير جـ/٧ ص/٢٨

(٥) سورة الشورى الاية/٤١ - ٤٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندنا زينب بنت جحش فجعل يصنع بيده شيئا ولم يفطن لها ، فقلت بيده حتى فطنته لها ، فأمسك واقبلت زينب تقحم لعائشة ، فنهاها ، فأبت ان تنتهى ، فقال لعائشة : سبيها فسبتها وغلبتها ، وانطلقت زينب فأتت عليا ، فقالت : ان عائشة تقع بكم وتفعل بكم ، فجاءت فاطمة ، فقال لها : انها حبة أبيك ورب الكعبة ، فانصرفت وقالت لعلى : انى قلت له كذا وكذا ، فقال كذا وكذا ، قال : وجاء على الى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فى ذلك (١)

علق ابن كثير على هذا الاثر بقوله : هكذا ورد هذا السياق وعلى بن زيد بن جدعان يأتى فى رواياته بالمنكرات غالبا وهذا فيه نكارة والحديث الصحيح خلاف هذا السياق ، كما رواه النسائى وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفافاء عن عبد الله البهى عن عروة قال : قالت عائشة - رضى الله عنها - : ماطمت حتى دخلت على زينب بغير اذن وهى غضبى ، ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبك اذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذريعتيها ثم أقبلت على فأعرضت عنها ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : " دونك فانتصرى " فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها ، ماترد على شيئا ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يتهلل وجهه (٢) .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٢٥ ص/ ٣٩

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٧ ص/ ١٩٦

١٩ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم) - حديثا قال فيه : حدثنا ابو كريب ، قال : حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمارة ، قال : حدثنا ابو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : أول مانزل جبريل على محمد قال : يا محمد استعذ ، قل : استعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم قال : قل : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، ثم قال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) قال عبد الله : وهى أول سورة أنزلها الله على محمد بلسان جبريل . فأمره ان يتعوذ بالله دون خلقه (١) .

وقد علق ابن كثير على هذا الاثر بقوله : وهذا الاثر غريب ، وانما ذكرناه ليصرف ، فان فى اسناده ضعفا وانقطاعا (٢) .

قلت : واما السند فلوجود بشر بن عمارة الخثعمى الكوفى فقد قال عنه ابو حاتم : ليس بالقوى فى الحديث ، وقال الامام البخارى : يعرف وينكر ، وقال ابن حبان : كان يخطئ حتى خرج عن حد الاحتجاج به اذا انفرد ، وقال عنه الدار قطنى : متروك ، وقال العقيلى : لا يتابع على حديثه ، وقال عنه النسائى : ضعيف (٣) .

وأما الانقطاع فلعله من أجل اختلافهم من سماع الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١ ص/ ١١٣

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٢٩

(٣) تهذيب التهذيب جـ/ ١ ص/ ٤٥٥ ، وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ٤٩ .

٢٠ - وعند قوله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) [(١)] . قال ابن جرير : حدثني محمد بن ابراهيم الانماطي قال : حدثنا هشام بن عبد الملك قال : حدثنا محمد بن دينار قال : حدثنا يحيى بن يزيد الهنائي ، عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم وسلم في رجل طلق امرأته ثلاثا ، فتزوجها آخر فطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع الى زوجها الأول ؟ قال : لا حتى يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته [(٢)] .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : قلت : ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الازدي ثم الطامي البصري ، ويقال : ابن أبي الفرات: اختلفوا فيه ، فمنهم من ضعفه ، ومنهم من قواه وقبله وحسن له ، وقال أبو داود : أنه تغير قبل موته [(٣)] .

٢١ - وعند قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) [(٤)] . قال ابن جرير : حدثني أحمد أبو حميد الحمصي قال : حدثنا يحيى بن سعيد قال : حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان الله ليصلح بصلاح الرجل

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢٣٠) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٤ / ص ٥٩٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٤٠٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية (٢٥١) .

المسلم ولده وولد ولده ، وأهل دويرته ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم [١] .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا أيضا غريب ضعيف لما تقدم أيضا [٢] .

قلت : ويقصد ابن كثير بقوله " لما تقدم " يحيى بن سعيد العطار وقد ضعفه ابن معين وقال : ليس بشيء ، وقال الجوزجاني والعقيلي منكر الحديث ، وقال ابن خزيمة : لا يحتج بحديثه ، وقال الدارقطني ضعيف وقال ابن عدي : له مصنف في حفظ اللسان فيه أحاديث لا يتابع عليها وهو بين الضعف ، وقال ابن حبان : يروي الموضوعات عن الاثبات لا يجوز الاحتجاج به ، وقال الساجي : عنده مناكير [٣] .

٢٢ - وعند قوله تعالى (لله مافي السموات ومافي الأرض ، وان تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) [٤] .

قال ابن جرير : حدثنا الربيع قال : ثنا اسد بن موسى قال : ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أمه أنها سألت عائشة عن هذه الآية (ان تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ،(ومن يعمل سوءا يجز به) .

---

(١) تفسير الطبري : جـ ٥ / ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٤٤٨ .
(٣) تهذيب التهذيب : جـ ١١ / ص ٢٢٠ .
(٤) سورة البقرة : الآية (٢٨٤) .

فقالت : ما سألني أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياعائشة هذه متابعة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة يضعها في كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها في ضبنه حتى ان المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير (١) .

وقد علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : وكذا رواه الترمذي وابن جرير من طريق حماد بن سلمة ، وقال الترمذي : غريب لا نعرفه الا من حديثه .

قلت - ابن كثير - : وشيخه طي بن زيد جدعان ضعيف يغرب ، في رواياته ، وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه : أم محمد امية بنت عبد الله ، عن عائشة وليس لها عنها في الكتب سواه (٢) .

٢٣ - وعند قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهن ان يضعن حملهن ومن يتقي الله يجعل له من أمره يسرا) (٣) .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا مالك بن اسماعيل عن ابن عيينة عن عبد الكريم بن أبي المخارق يحدث عن أبي بن كعب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن (واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن) قال : أجل كل حامل ان تضع مافي بطنها (٤) .

علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : عبد الكريم هذا ضعيف ولم يدرك أبيا (٥) .

---

(١) تفسير الطبري جـ ٦ ص ١١٧ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٠٥ .
(٣) سورة الطلاق : الآية ٤ .
(٤) تفسير الطبري جـ ٢٨ ص ٩٣ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٧٨ .

٢٤ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (الذين هم عن صلاتهم ساهون)[1] حديثا قال فيه : حدثني أبو كريب ، قال : ثنا معاوية بن هشام عن شيبان النحوى عن جابر الجعفى قال : ثنى رجل عن أبى برزة الاسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما نزلت هذه الآية (الذين هم عن صلاتهم ساهون) الله أكبر هذه خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا هو الذى ان صلى لم يرج خير صلاته ، وان تركها لم يخف ربه[2] .

علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : فيه جابر الجعفى ، وهو ضعيف وشيخه مبهم لم يسم[3] .

٢٥ - وعند قوله تعالى (وقال للذى ظن أنه ناج منهما أذكرنى عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين)[4] .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع قال : ثنا عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : لو لم يقل يوسف ، يعنى الكلمة التى قال مالبث فى السجن طول مالبث ، يعنى حيث يبتغى الفرج من عند غير الله[5] .

---

(١) سورة الماعون : الآية (٥) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ٣٠ / ص ٢١٣ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٥١٦ .

(٤) سورة يوسف : الآية (٤٢) .

(٥) تفسير الطبرى : جـ ١٢ / ص ٢٢٣ .

وقد استدرك ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهذا الحديث ضعيف جدا ، لأن سفيان بن وكيع ضعيف ، وابراهيم بن يزيد هو الخوزى أضعف منه أيضا "[1] .

٢٦ - وعند قوله تعالى (واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا)[2] ، قال ابن جرير : حدثت عن محمد ابن الحسن بن زبالة قال : حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد قال : ثنى أبى عن جدى قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى فلان ينزون على منبره نزو القردة ، فساءه ذلك ، فما استجمع ضاحكا حتى مات ، قال : وأنزل الله عز وجل فى ذلك : (وما جعلنا الرؤيا التى اريناك الا فتنة للناس . . .) الآية[3] .

وقد علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : وهذا السند ضعيف جدا فان محمد بن الحسن بن زبالة متروك ، وشيخه أيضا ضعيف بالكلية[4] .

٢٧ - وعند قوله تعالى (ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سببا ، فاتبع سببا)[5] .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال : ثنا زيد بن حباب عن أبى لهيعة قال : ثنى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن شيخين من نجيب

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ٣١٧ .
(٢) سورة الاسراء : الآية (٦٠) .
(٣) تفسير الطبرى : جـ ١٥ / ص ١١٢ - ١١٣ .
(٤) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ٩٠ .
(٥) سورة الكهف : الآية (٨٣ - ٨٥) .

قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا الى عقبة بن عامر نتحدث ، قالا : فأتياه فقالا : جئنا لتحدثنا ، فقال : كنت يوما أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت من عنده ، فلقيني قوم من أهل الكتاب فقالوا : نريد أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن لنا عليه ، فدخلت عليه فأخبرته ، فقال مالي ومالهم مالي علم الا ما علمني الله ، ثم قال : اسكب لي ماء ، فتوضأ ثم صلى ، قال : فما فرغ حتى عرفت السرور في وجهه ، ثم قال ادخلهم علي ، ومن رأيت من أصحابي فدخلوا فقاموا بين يديه ، فقال : ان شئتم سألتم فأخبركم عما تجدونه في كتابكم مكتوبا ، وان شئتم أخبرتكم ، قالوا : بلى أخبرنا قال : جئتم تسألوني عن ذي القرنين ، وما تجدونه في كتابكم : كان شابا من الروم ، فجاء فبنى مدينة مصر الاسكندرية ، فلما فرغ جاءه ملك فحمله به في السماء ، فقال له ماترى ؟ فقال : أرى مدينتي ومدائن ، ثم علاه به فقال ماترى ؟ فقال : أرى مدينتي ، ثم علاه به فقال : ماترى ؟ قال : أرى الأرض ، قال : فهذا اليم محيط بالدنيا ان الله بعثني اليك تعلم الجاهل ، وتثبت العالم ، فأتى به السد ، وهو جبلان لبنان يزلق عنهما كل شيء ، ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به الى أمة أخرى وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ، ثم مضى به حتى قطع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ثم مضى حتى قطع به

هـؤلاء الى أمـة أخرى قد سماهم [١] .

وقد علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : ضعيف وفيه طول ونكـــارة ورفعـة لا يصح ، وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى اسرائيل [٢] .

٢٨ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (واذكر فى الكتاب ادريس انه كـــان صـديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا) [٣] ، حديثا قال فيه : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنى ابن وهب قال : أخبرنـــى جرير بن حازم عن سليمان الاعمش ، عن شمر بن عطية عن هلال بـــن يساف قال : سأل ابن عباس كعبا وانا حاضر فقال لـه : ماقـــــول الله تعالى لادريس (ورفعناه مكانا عليا) ؟ قال كعب : اما ادريس فان الله أوحى اليه انى رافع لك كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم ،فأحب أن يزداد عملا ، فأتاه خليل لـه من الملائكة فقال : ان الله أوحـــى الىّ كذا وكذا ، فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى أزداد عملا ، فحمله بين جناحيه ، ثم صعد به الى السماء ، فلما كان فى السماء الرابعـــة تلقاهم ملك الموت منحدرا ، فكلم ملك الموت فى الذى كلمه فيه ادريـــس فقال : وأين ادريس ؟ فقال : هو ذا على ظهرى ، قال ملك الموت فالعجب بعثت أقبض روح ادريس فى السماء الرابعة ، فجعلت أقـــول : كيف أقبض روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هنـــاك فذلك قول الله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) [٤] .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٦ ص ٨ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ١٨٥ .
(٣) سورة مريم : الآية (٥٦ - ٥٧).
(٤) تفسير الطبرى : جـ ١٦ / ص ٦٦ .

وقد استدرك ابن كثير على هذا الأثر بقوله : أثر غريب عجيب وهذا من اخبار كعب الأحبار الاسرائيليات وفيه نكارة[١] .

٢٩ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا)[٢] ، حدثنا قال فيه : حدثنا أبو زرعة ابن شبة قال : حدثنا ابو غسان النهدى قال : حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد أبى خالد - يعنى الدالانى - عن أبى العلاء الأودى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : لم يقول أحدكم لامرأته : قد طلقتك قد راجعتك ؟ ليس هذا بطلاق - المسلمين طلقوا المرأة فى قبل طهرها[٣] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : أبو خالد الدالانى وهو: يزيد بن عبد الرحمن وفيه كلام[٤] .

قلت : يزيد بن عبد الرحمن الدالانى ، قال فيه ابن عدى : فى حديثه لين ، وقال الحاكم أبو أحمد : لا يتابع فى بعض حديثه وقال ابن سعد : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : كان كثير الخطأ فاحش الوهم خالف الثقات فى الروايات حتى اذا سمعها المبتدى فى هذه الصناعة علم أنها معمولة ومقلوبة ، لا يجوز الاحتجاج به اذا وافق فكيف اذا انفرد بالمعضلات .

وذكره الكرابيسى فى المدلسين ، وقال ابن عبد البر : ليس بحجة[٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ٢٣٦ .
(٢) سورة البقرة : الآية (٢٣١) .
(٣) تفسير الطبرى : جـ ٥ / ص ١٤ .
(٤) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٤١٤ .
(٥) تهذيب التهذيب : جـ ١٢ / ص ٨٢ - ٨٣ .

٣٠ - وعند قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم)[١] . قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن ابراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله كتب عليكم الحج ، فقال رجل : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فأعرض عنه ، حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال : من السائل ؟ فقال : فلان فقال : والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه لكفرتم ، فأنزل الله هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم) حتى ختم الآية[٢] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وابراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف[٣] .

٣١ - وعند قوله تعالى (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى امنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين)[٤] . قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد قال : ثنا حكام عن عنبسة عن كثير بن زاذان ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : قال لى جبريل : " يا محمد لو رأيتنى وأنا أغطه وأدس من حمئه فى فيه

---

(١) سورة المائدة : الآية (١٠١) .
(٢) تفسير الطبرى : جـ ١١ / ص ١٠٥ .
(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٣ / ص ٢٠٠ .
(٤) سورة يونس : الآية (٩٠) .

مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له " يعني فرعون [١] .

وقد استدرك ابن كثير على هذا الحديث بقوله : كثير بن زاذان هذا قال ابن معين : لا أعرفه ، وقال أبو زرعه وأبو حاتم : مجهول وباقي رجاله ثقات [٢] .

٣٢ - وعند قوله تعالى (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين) [٣] . قال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسن قال : حدثني حجاج عن صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : ان الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله وأقر عينه خلا ولده نجيا فقال بعضهم لبعض : الستم قد علمتم ماصنعتم ومالقي منكم الشيخ ، ومالقي منكم يوسف ؟ قالوا : بلى ، قال : فيفركم عفوهما عنكم ، فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن اتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف الى جنب أبيه قاعدا ، قالوا : يا ابانا انا اتيناك في أمر لم نأتك في مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله حتى حركوه ، والانبياء عليهم السلام أرحم البرية ، فقال : مالكم يابني ؟ قالوا : ألست قد علمت ماكان منا اليك ، وما كان منا الى أخينا يوسف قال : بلى ، قالوا : ألستما قد عفوتما ؟ قالا : بلى ، قالوا : فان عفوكما لا يغني عنا شيئا ان كان الله لم يعف عنا ، قال : فما تريدون

---

(١) تفسير الطبري : جـ ١١ / ص ١٦٣ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ٢٢٨ .
(٣) سورة يوسف : الآية (١٠١) .

يابنى ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فان جاءك الوحى من الله بأنه قد عفا عما صنعنا قرت أعيننا ، واطمأنت قلوبنا ، والا فلا تمرة عين فى الدنيا أبدا لنا ، قال : فقام الشيخ فاستقبل القبلة ، وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما اذلة خاشعين .

قال : فدعا وامن يوسف ، فلم يجب فيهم عشرين سنة - قال صالح المرى : يخيفهم قال : حتى اذا كان رأس العشرين نزل جبريل - عليه السلام على يعقوب فقال : ان الله يبشرك بأنه قد أجاب دعوتك فى ولدك ، وأنه قد عفا عما صنعوا ، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة (١) .

علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : هذا الأثر موقوف عن أنس ويزيد الرقاش وصالح المرى ضعيفان جدا (٢) .

٣٣ - وعند قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) (٣) . قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبد الله قال : أخبرنى أبو النضر هاشم بن القاسم قال : ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبى هريرة فى قوله (سبحان الذى أسرى بعبده) ... الى قوله (انه هو السميع البصير) قال : جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٢ / ص ٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ٣٤٠ .

(٣) سورة الاسراء : الآية (١) .

نحو حديث علي بن سهل عن حجاج ، الا أنه قال : جاء جبريل ومعه ميكائيل ،وقال فيه : واذا بقوم يسرحون كما تسرح الأنعام يأكلون الضريع والزقوم ، وقال في كل موضع قال على ماهؤلاء من هؤلاء ياجبريل ؟ وقال في موضع تقرض السنتهم تقص ألسنتهم ، وقال أيضا في موضع قال على فيه : ونعم الخليفة . قال في ذكر الخمر ، قال : لا أريده قد رويت قال : جبريل : قد أصبت الفطرة يا محمد ، انها ستحرم على امتك ، وقال في سدرة المنتهى أيضا : هذه السدرة المنتهى اليها ينتهي كل حد خلا على سبيلك من أمتك ، وقال أيضا في الورقة منها تظل الخلق كلهم ، تغشاها الملائكة مثل الغربان حين يقمن على الشجرة من حب الله عز وجل ... (١)

وقد علق ابن كثير على هذا الأثر بقوله : قلت : أبو جعفر الرازي قال فيه الحافظ أبو زرعه : الرازي يهم في الحديث كثيرا ، وقد ضعفه غيره أيضا ووثقه بعضهم ، والأظهر أنه سيء الحفظ ، ففيما تفرد به نظر وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة (٢) .

٣٤ - وعند قوله تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا) (٣)

قال ابن جرير : حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي قال : حدثنا محمد بن يحلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله

---

(١) تفسير الطبري : جـ ١٥ / ص ١١ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ٣٦ .

(٣) سورة الاسراء : الآية (٤٤) .

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ ان نوحا عليه السلام قال لابنه : يابني آمرك ان تقول : " سبحان الله وبحمده " فانها صلاة الخلق ، وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق ، قال تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده) (١)

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : اسناده فيه ضعف فان الربد ضعيف عند الاكثرين (٢) .

قلت : الربدي هو : موسى بن عبيدة ، قال فيه الامام احمد بن حنبل لا يكتب حديثه وحديثه منكر ، وقال النسائي : ضعيف ، وقال يحيى ابن سعيد : كنا نتقي حديثه ، وقال ابن عدي : الضعف على رواياته بين ، وقال ابن معين : ليس بشيء ، وقال ابن المديني ضعيف الحديث حدث بأحاديث مناكير ، وقال ابو حاتم : منكر الحديث وقال يعقوب بن شيبة : ضعيف الحديث جدا ، ومن الناس من لا يكتب حديثه لوهائه وكثرة اختلاطه (٣) .

٣٥ - أورد ابن جرير عند قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين) (٤)

---

(١) تفسير الطبري جـ/ ١٥ ص/ ٦٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٥ ص/ ٧٧

(٣) تهذيب التهذيب جـ/ ١٠ ص/ ٣٥٦ - ٣٦٠ ، وميزان الاعتدال جـ/ ٤ ، ص/ ٢١٣ ، وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ٣٣٦

(٤) سورة لقمان الاية/ ٦

حديثا قال فيه : حدثنا أبو كريب ، قال : ثنا وكيع ، عن خلاد الصفار عن عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم ، عن أبي امامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن ، ولا أثمانهن ، وفيهن نزلت هذه الاية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) "[1] .

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله : وهكذا رواه الترمذى وابن جرير من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه ، ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وضعف علي بن يزيد المذكور .

قلت - أى ابن كثير - : علي وشيخه والراوعنه ، كلهم ضعفاء[2] .

قلت : واما علي بن يزيد فقد قال فيه البخارى : منكر الحديث ، وقال ابن معين : علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة : ضعاف كلها وقال يعقوب : علي بن يزيد واهى الحديث كثير المنكرات ، وقال الجوزجانى : رأيت غير واحد من الائمة ينكر أحاديثه التى يرويها عنه عبيد الله بن زحر ، وقال ابو زرعة : ليس بالقوى ، وقال ابن ابى حاتم سألت أبي عنه فقال : ضعيف الحديث ، أحاديثه منكرة .

وقال النسائى : ليس بثقة ، وفى موضع آخر : متروك الحديث ، وقال الحاكم أبو احمد : ذاهب الحديث ، وقال الدار قطنى : متروك[3]

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٢١ ص/ ٦٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٦ ص/ ٣٣٤

(٣) تهذيب التهذيب جـ/ ٧ ص/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ١٣٦ .

وأما شيخه فهو : القاسم بن عبد الرحمن ، يقول فيه الامام احمد : ماأرى البلاء الا من القاسم ، وقال العجلي : ليس بالقوى ، وقال الفلابي : منكر الحديث[1] .

وأما الراوى عنهما فهو : عبيد الله بن زحر[2] الاموى الافريقى ، قال الامام احمد فيه : ضعيف ، وقال ابن عدى : يقع فى أحاديثه مالا يتابع عليه ، وقال ابن معين : ليس بشئ ، وفى موضع آخر : كل حديثه عندى ضعيف ، وقال ابن المدينى : منكر الحديث ، وقال الحاكم : لين الحديث ، وقال الدارقطنى : ضعيف ، وقال ابن حبان : يروى الموضوعات عن الاثبات فاذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات وقال أيضا : واذا اجتمع فى اسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ابو عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر الا مما عملته أيديهم[3] .

هذه أمثلة من استدراكات ابن كثير على ابن جرير فيما يتعلق بمتن الاحاديث وأسانيدها ، وهذه الامثلة يوجد فيها الكثير والكثير ، الا أننا اكتفينا بايراد هذه النماذج المتنوعة ، لان رسالتنا فى التفسير ، وظنى أنه يغنى فيها ذكر النماذج .

أما الاحصاء الدقيق لكل ماستدركه ابن كثير على ابن جرير فى هذا الشأن فأرجو ان يكون محل دراسة وتحقيق من أحد الزملاء المنتسبين الى شعبة السنة

---

(١) تهذيب التهذيب جـ/ ٨ ص/ ٣٢٤ وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ٢٦٦

(٢) زحر : بفتح الزاى وسكون المهملة .

(٣) تهذيب التهذيب جـ/ ٧ ص/ ١٢-١٣ وخلاصة تذهيب الكمال ص/ ٣١٢ .

لان هذا من صميم تخصصهم .

وأما القسم الثانى الذى سبق ان قلنا بأنه الصق بتخصصنا كطلبة شعبة التفسير ، فهو مايتعلق بتفسير الاية ، أو بمعنى الاية ، فنقول وبالله التوفيق :

استدراك الذى ورد
فى سورة الفاتحة

=== * ===

١- قال ابن جرير عند قوله تعالى (الحمد لله) [1] : الشكر خالصا لله جل ثناؤه دون سائر مايعبد من دونه ، ودون كل مابرأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد فى تصحيح الالات لطاعته وتمكين جوارح أجسام المكلفين لاداء فرائضه ، مع مابسط لهم فى دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع مانبههم عليه ودعاهم اليه ، من الاسباب المؤدية الى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا ....

قال أبو جعفر : ولا تمانع بين أهل المعرفة بلغات العرب من الحكم لقول القائل : " الحمد لله شكرا " - بالصحة . فقد تبين - اذا كان ذلك عند جميعهم صحيحا - ان الحمد لله قد ينطق به فى موضع الشكر ، وان الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لان ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن يقال " الحمد لله شكرا " فيخرج فى قول القائل " الحمد لله " مصدر : " أشكر " لان الشكر

(١) سورة الفاتحة الاية / ٢

لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه [١] .

هذا واستدرك ابن كثير على ابن جرير فيما ذهب اليه من أن " الحمد والشكر" بمعنى ، وان احدهما يوضح موضع الاخر ، فقال - أى ابن كثير - وهذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر ، لانه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين ان الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية والشكر لا يكون الا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والاركان كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * * * يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا : أيهما أعم ، الحمد أو الشكر ؟ على قولين ، والتحقيق ان بينهما عموما وخصوصا ، فالحمد أعم من الشكر من حيث مايقعان عليه ، لانه يكون على الصفات اللازم المتعدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص لانه لا يكون الا بالقول ، والشكر أعم من حيث مايقعان عليه لانه يكون بالقول والعمل والنيه ... وهو أخص لانه لا يكون الا على الصفات المتعدية لا يقال شكرته لفروسيته ، وتقول شكرته على كرمه واحسانه الى ... [٢] .

هذا ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان لفظى " الحمد والشكر " بمعنى واحد وان كل واحد منهما يقع محل الاخر بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان اللفظين ليسا بمعنى واحد وان بينهما عموما وخصوصا من وجه .

---

(١) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر جـ/ ١ ص/ ١٣٥ - ١٣٨

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٣٧ (محقق) .

والذى يظهر هو انه ان كان استدراك ابن كثير على ابن جرير فى هـذه النقطة فى محله الا ان استدلاله واعتماده على أقوال علماء المتأخرين لا يكـون حجة على ابن جرير ، لان المرجع فى مثل هذا الى معنى الحمد فى لغـة العرب لا الى ماقاله جماعة من العلماء المتأخرين هذا اذا لم يثبت للحمـد حقيقـه شرعية فان ثبتت وجب تقديمها .

ورغم ذلك نقول : ان ماذهب اليه ابن كثير فى هذه النقطة أقرب الـى الصواب ، لان اللغة تؤيده ، وكذلك أكثر المفسرين ذهبوا الى ماذهـب اليه ابن كثير .

قال صاحب مختار الصحاح عند لفظ ح م د : (الحمد) ضد الـذم وبابه فهم ... والحمد اعم من الشكر (١) .

وقال الازهرى : الشكر لا يكون الا ثناء ليبدأ وليتها ، والحمد قـد يكون شكرا للصنيعة وقد يكون ابتداء للثناء على الرجل ، فحمد الله الثنـاء عليه ، ويكون شكر النعمة التى شملت الكل (٢) .

وقال ابن منظور فى اللسان : الحمد نقيض الذم ويقال حمدته على فعله ومنه المحمدة خلاف الذم ، وفى التنزيل العزيز : الحمد لله رب العالمين .. والحمد والشكر متقاربان والحمد أعمهما ، لانك تحمد الانسان على صفاتـه الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته ...

---

(١) مختار الصحاح ص/ ١٥٣

(٢) تهذيب اللغة للازهرى تحقيق عبد الكريم العزاوى جـ/ ٤ ص/ ٤٣٥ مطبعة سبيل العرب بالقاهـرة .

وقال ثعلب : الحمد يكون عن يد وعن غير يد ، والشكر لا يكون الا عن يد [١] .

هذا عند اللغويين وأما عند المفسرين فقد قال الامام الزمخشري عند تفسيره لهذه الاية : الحمد والمدح اخوان وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها . تقول : حمدت الرجل على انعامه وحمدته على حسبه وشجاعته . وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، وهو بالقلب واللسان والجوارح قال :

افادتكم النعماء مني ثلاثة * * * يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو احدى شعب الشكر ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : " الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده " [٢] وانما جعله رأس الشكر لان ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأولى على مكانها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما في عمل الجوارح من الاحتمال ، بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذي يفصح عن كل خفي ويجلي كل مشتبه . والحمد نقيض الذم والشكر نقيضه الكفران [٣] .

وقال الامام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الاية : واما الفرق بين الحمد وبين الشكر فهو ان الحمد يعم ما اذا وصل ذلك الانعام اليك أو الى غيرك

---

(١) لسان العرب لابن منظور عند مادة (حمد) جـ/٣ ص/١٣٣ - ١٣٤ ، مطبعة ستاتسوماس/القاهرة .

(٢) انظر الجامع الصغير للسيوطي جـ/١ ص/٥٢٠

(٣) الكشاف جـ/١ ص/٤٦ - ٤٧ الطبعة الاخيرة سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي /بمصر .

وأما الشكر فهو مختص بالانعام الواصل اليك ... فقوله الحمد لله أولى من قوله الشكر لله لأن قوله الحمد لله ثناء على الله بسبب كل انعام صدر منه ووصل الى غيره ، وأما الشكر لله فهو ثناء بسبب انعام وصل الى ذلك القائل ولا شك ان الأول أفضل لأن التقدير كأن العبد يقول : سواء أعطيتني أو لم تعطني فانعامك واصل الى كل العالمين ، وأنت مستحق للحمد العظيم (١)

وقال ابن جزى عند تفسيره لهذه الآية : (الحمد لله) : الفائدة الثالثة :

الحمد أعم من الشكر ، لأن الشكر لا يكون الا جزاء على نعمة والحمد يكون جزاء كالشكر ، ويكون ثناء ابتداء ، كما ان الشكر قد يكون أعم من الحمد ، لأن الحمد باللسان والشكر باللسان والقلب والجوارح (٢) .

وقال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد الى ان الحمد والشكر بمعنى واحد سواء وليس بمرض ... واستدل الطبرى على أنهما بمعنى بصحة قولك : الحمد لله شكر . قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ماذهب اليه ، لأن قولك شكرا ، انما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم (٣) .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ١ / ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) التسهيل في علوم التنزيل لابن جزى : جـ ١ / ص ٣٢ .

(٣) أنظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية تحقيق الاستاذ / أحمد صادق الملاح : جـ ١ / ص ١٠٢ ، طبعة الأهرام التجارية بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

وقيل : الحمد أعم لان فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر لان الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد ...

قلت - أى القرطبى - : الصحيح ان الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق احسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الاحسان ، وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ، لان الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص انما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا فصار الحمد أعم فى الاية لانه يزيد على الشكر (١) .

وقال السمعانى عند قوله (الحمد لله) : أعلم ان الحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ، ويكون بمعنى التحميد والثناء على الاوصاف المحمودة يقال : حمدت فلانا على ماأسدى الى من النعمة ، ويقال : حمدت فلانا على شجاعته وعلمه .

وأما الشكر لا يكون الا على النعمة فللحمد معنى عام ، وللشكر معنى خاص فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامد (٢) .

وقال ابن الجوزى عند تفسيره لهذه الاية : واعلم ان الحمد ثناء على المحمود ويشاركه الشكر ، الا ان بينهما فرقا وهو : ان الحمد قد يقع ابتداء للثناء والشكر لا يكون الا فى مقابلة النعمة (٣) .

وبعد هذه النقول من جهابذة المفسرين وعلماء اللغة يتبين ان ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - أولى بالقبول .

---

(١) تفسير القرطبى جـ/ ١ ص/ ١٣٣ - ١٣٤

(٢) تفسير سورة الفاتحة والبقرة لابى المظفر السمعانى .

(٣) زاد المسير فى علم التفسير جـ/ ١ ص/ ١١ الطبعة الاولى سنة ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م المكتب الاسلامى للطباعة والنشر . وانظر البحر المحيط لابى حيان جـ/ ١ ص/ ١٨ وروح المعانى للالوسى جـ/ ١ ص/ ٦٦ ومابعدها .

ما ورد في سورة البقرة

=== * ===

٢ - قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون "[1] . قال : ان الذين وصفهم الله تعالى بالايمان بالغيب في الاية الاولى غير الذين وصفهم بالايمان بالذى أنزل على محمد والذى انزل على من قبله من الرسل . وذهب الى ان المراد بالمؤمنين في الاية الاولى هم من يؤمن من مشركى العرب ، والمراد بالمؤمنين في الاية الثانية هم من يؤمن بالنبى والقرآن من أهل الكتاب[2] .

وهذا الذى ذهب اليه ابن جرير في تفسيرهاتين الايتين لم يرتضه ابن كثير فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره للاية الثانية ما ملخصه :

" وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هاهنا : هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن هم ؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير :

أحدها : ان الموصوفين اولا هم الموصوفون ثانيا ، وهم كل مؤمن ، مؤمنو العرب ، ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم ، قاله مجاهد ...

والثانى : هما واحد ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ، وعلى هذا تكون الواو - عاطفة صفات على صفات ...

---

(١) سورة البقرة الاية/ ٢

(٢) راجع تفسير الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر ج/ ١ ص/ ٢٤٠ طبعة دار المعارف بمصر .

والثالث : ان الموصوفين أولا مؤمنو الحرب ، والموصوفون ثانيا بقولـــه :

" والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك " الاية . مؤمنو أهل الكتاب ، نقله السدى فى تفسيره ، عن ابن عباس وابـــن مسعود واناس من الصحابة ، واختاره ابن جرير ...

ثم قال ابن كثير : قلت : والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد . ورواه غير واحد ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين ، وآيتان فى نعت الكافرين وثلاث عشرة فى المنافقين ، فهذه الايات الاربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها مـــن عربى وعجمى وكتابى من انس وجنى ، وليست تصح واحدة من هذه الصفات بدون الاخرى ، بل كل واحدة مستلزمة للاخرى وشـرط معها ، فلا يصح الايمـان بالغيب واقام الصلاة والزكاة الا مع الايمان بما جاء به الرسول صلى الله عليـــه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل والايقان بالاخرة ، كما أن هذا لا يصـــح الا بذاك ، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك ، كما قال (يأيها الذيـــن آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل)(١)

هذا هو رأى كل من الشيخين الجليلين فى معنى الايتين السابقتـــين . وقد ذهب بعض المفسرين الى احتمال المعنيين دون ترجيح بينهما ، فقـــد قال الامام الزمخشرى عند تفسيره للاية الثانية : فان قلت : والذين يؤمنـــون أهم غير الاولين أم هم الاولون وانما وسط العاطف كما يوسط بين الصفات فـــى قولك هو الشجاع والجواد ...

---

(١) تفسير ابن كثير تحقيق محمد احمد عاشور وزملائه جـ/ ١ ص/ ٦٧ - ٦٨ . طبعة/ دار الشعب .

قلت : يحتمل ان يراد بهؤلاء مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام واضرابه فاستمل ايمانهم على كل وحى انزل من عند الله ، وايقنوا بالاخرة ايقانا زال معه ماكانوا عليه من انه لا يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى وان النار لن تمسهم الا أياما معدودات . . . فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ويحتمل ان يراد وصف الاولين ووسط العاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه (١) .

قلت : ومع وجاهة ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - الا اننا نرى ان ماذهب اليه ابن جرير أقرب الى الصواب ، من ناحيتين :

الناحية الاولى من ناحية اللغة ، والثانية من ناحية النقل ، أما مايتعلق باللغة فهو أن اعادة الموصول بحرف العطف يدل فى الغالب على المغايرة فى الذات ، وهذا هو الاصل ، كما ذكر ذلك ابو حيان فى تفسيره (٢)

وأما من ناحية النقل فهو ان هذا المعنى الذى ذهب اليه ابن جرير هو الثابت عن الصحابيين الجليلين ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما حيث أورد ابن جرير ها هنا أثرا صحيحا ثابتا عنهما بقوله : حدثنا موسى بن هارون قال حدثنا عمرو بن حماد قال حدثنا أسباط عن السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذين يؤمنون بما انزل اليك وماانزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون "

---

(١) تفسير الكشاف جـ/ ١ ص/ ١٣٣-١٣٦ طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت/لبنان .

(٢) تفسير البحر المحيط لابى حيان جـ/ ١ ص/ ٤٢ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م دار الفكر للطباعة والنشر .

هؤلاء من أهل الكتاب[1] .

والعلماء مجمعون على أن تفسير الصحابة مقدم على تفسير غيرهم ، لأنهم هم الذين شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين أخذوا عنه ماأرشدهم اليه من توجيهات وتشريعات .

ثم أن هذا المعنى الذى ذهب اليه هؤلاء الصحابة لا يستبعد ان يكون قد سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم .

وعلى أية حال فالتفسير الثابت عن الصحابة أولى من كل تفسير سواه لذا نميل الى ماذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - .

---

(١) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ج/ ١ ص/ ٢٤٥ .

٣ - قال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : " مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون "[١] . زعم ابن جرير ان المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الاوقات ، واحتج بقوله تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين)[٢] .

والصواب : أن هذا اخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم ايمان قبل ذلك ، ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ، ولم يستحضر ابن جرير - رحمه الله - هذه الاية ههنا وهى قوله تعالى : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)[٣] . فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما اظهروه من كلمة الايمان ، أى فى الدنيا ، ثم اعقبهم ظلمات يوم القيامة[٤] .

هذا ماقاله ابن كثير عند تفسيره لهذه الاية ، ومنه يتضح لنا انه يرى ان ماذهب اليه ابن جرير ليس صوابا .

ومن الانصاف هنا ان ننقل بشىء من الاختصار عبارة ابن جرير فى هذا الشأن فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الاية بعد أن ساق أقوال

---

(١) سورة البقرة الاية/ ١٦

(٢) " " " / ٧

(٣) سورة المنافقين الاية/ ٣

(٤) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٨٠

المفسرين فيها : " وأولى التأويلات بالاية ماقاله قتادة والضحاك ، ومـــا رواه علي بن ابي طلحة عن ابن عباس ، وذلك ان الله جل ثناؤه ، انما ضرب هذا المثل للمنافقين الذين وصف صفتهم وقص قصصهم ، من لدن ابتدأ بذكرهـــم بقوله : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين) - لا المعلنين بالكفر المجاهدين بالشرك . ولو كان المثل لمن آمن ايمانا صحيحـــا ثم أعلن بالكفر اعلانا صحيحا على ماظن المتأول قول الله جل ثناؤه (كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم لا يبصرون) : أن ضوء النار مثل لايمانهم الذى كان منهم عنده على صحة ، وأن ذهاب نورهم مثـــل لارتدادهم واعلانهم الكفر على صحة لم يكن هنالك من القوم خداع ولا استهـــزاء عند أنفسهم ، ولا نفاق . وأنى يكون خداع ونفاق ممن لم يبد لك قولا ولا فعلا الا ماأوجب لك العلم بحاله التى هولك عليها ، وبعزيمة التى هو مقيم عليهـــا ان هذا بغير شك من النفاق بعيد ومن الخداع برىء ، واذ كان القوم لم تكن لهم الا حالتان : حال ايمان ظاهر ، وحال كفر ظاهر ، فقد سقط عن القوم اسم النفاق ، لانهم فى حال ايمانهم الصحيح كانوا مؤمنين ، وفى حال كفرهم الصحيح كانوا كافرين ، ولا حالة هناك ثالثة كانوا بها منافقين .

وفى وصف الله جل ثناؤه اياهم بصفة النفاق ، ماينبئ عن ان القـــول غير القول الذى زعمه من زعم : أن القوم كانوا مؤمنين ، ثم ارتدوا الى الكفـــر فأقاموا عليه ، الا ان يكون قائل ذلك أراد أنهم انتقلوا من ايمانهم الذى كانـوا عليه الى الكفر الذى هو نفاق ، وذلك قول ان قاله . لم تدرك صحته الا بخبر مستفيض ، وببعض المعانى الموجبة صحته ، فأما فى ظاهر الكتاب فلا دلالة على

صحته ، لاحتماله من التأويل ماهو أولى به منه .

فاذا كان الامر على ماوصفنا فى ذلك ، فأولى تأويلات الاية بالاية : مثل استضاءة المنافقين - بما أظهروا بألسنتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الاقرار به ، وقولهم له وللمؤمنين : آمنا بالله وكتبه ورسله واليوم الاخر حتى حكم لهم بذلك فى عاجل الدنيا بحكم المسلمين : فى حقن الدماء والاموال والامن على الذرية من السباء ، وفى المناكحة والموارثة - كمثل استضاءة الموقد النار بالنار ، حتى ارتفق بضيائها ، وأبصر ماحوله مستضيئا بنوره من الظلمة خمدت النار وانطفأت فذهب نوره ، وعاد المستضئ به فى ظلمة وحيرة .

وذلك ان المنافق لم يزل مستضيئا بضوء القول الذى دافع عنه فى حياته القتل والسباء مع استبطانه ماكان مستوجبا به القتل وسلب المال لو اظهره بلسانه ... "[1] .

ومما نقلناه عن الشيخين يتبين لنا :

ان ابن كثير - رحمه الله - يرى ان هذا المثل قد ضرب فى قوم دخلوا فى الاسلام بعد وصول النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ثم تحولوا بعد ذلك الى الكفر والنفاق ، فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : ان قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بايمانهم نورا ، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم ووقعوا فى حيرة عظيمة ، قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا نارا ، فلما أضاءت ما حولهم ، سلب الله منهم الضوء ، فراحوا فى ظلام لا يهتدون الى الخروج منه سبيلا .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١ ص/ ٣٢٤ - ٣٢٦ .

وأما ابن جرير - رحمه الله - فيرى أن هذا المثل انما ضرب فى قوم لم يسبق لهم ايمان وانما دخلوا فى الاسلام من أول أمرهم نفاقا ، فيقال فى تطبيق هذا المثل عليهم : ان قصة هؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام نفاقا فظفروا بحقن دمائهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين ، وتمتعوا بذلك فى الدنيا قليلا ثم صاروا الى ظلمات العذاب الدائم فى الاخرة ، قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا نارا لتضئ لهم وينتفعوا بها ، فأضاءت ما حولهم قليلا عن طريق حقن دمائهم ... ثم طفئت وصاروا الى ظلمة شديدة .

وبهذا نرى أن ابن كثير يذهب الى أن هؤلاء الذين ضرب فيهم المثل يحتمل انهم دخلوا فى الاسلام دخولا صحيحا فحصل كل واحد منهم شيئا من الايمان ، ثم سلب عنهم هذا الخير سلبا كاملا بسبب ارتكاسهم فى النفاق لاستحواذ الشيطان عليهم .

أما ابن جرير فيذهب الى انهم دخلوا من أول يوم فى الاسلام دخولا يخفون معه النفاق والبغض للدعوة الاسلامية ولذا اعتبر اظهارهم للاسلام لا قيمة له .

والذى نراه ان ظاهر قوله تعالى - فى أول حديث عن المنافقين - : " ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين ... " يؤيد ما ذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - .

ومع هذا فان الشيخين يتفقان على ان المنافقين قد بطلت كل أعمالهم بسبب ترديهم فى النفاق سواء أدخلوا فى أول أمرهم مؤمنين - كما يرى ابن كثير - ام دخلوا من أول أمرهم كافرين كما يرى ابن جرير . ومسألة دخولهم

بهذه الطريقه أم تلك مسألة مرد علمها الى الله لانه سبحانه هو الذى يعلم النوايا والقلوب .

٤ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : " وعلم آدم الاسماء كلها "[1] وأولى هذه الاقوال بالصواب ، وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة قول من قال فى قوله : " وعلم آدم الاسماء كلها " أنها اسماء ذريته وأسماء الملائكة دون أسماء سائر أجناس الخلق ، وذلك ان الله جل ثناؤه قال : " ثم عرضهم على الملائكة " يعنى بذلك اعيان المسميين بالاسماء التى علمها آدم ولا تكاد العرب تكنى بالهاء والميم الا عن اسماء بنى آدم والملائكة . وأما اذا كانت عن اسماء البهائم وسائر الخلق ... فانها تكنى عنها بالهاء والالف أو بالهاء والنون ، فقالت " عرضهن " أو " عرضها "[2] .

هذا ماذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - وأما ابن كثير - رحمه الله - فلم يرتض هذا الرأى وهذا التخصيص وقال : اختار ابن جرير ان الله علم آدم اسماء الملائكة واسماء الذرية ، لانه قال (ثم عرضهم) وهذا عبارة عما يعقل ، وهذا الذى رجح به ليس بلازم ، فانه لا ينفى ان يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء ان الله على كل شىء قدير)[3] .

---

(١) سورة البقرة الاية / ٣١

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ١ ص/ ٤٨٥

(٣) سورة النور الاية / ٤٥

والصحيح أنه علمه أسماء الاشياء كلها : ذواتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة [١] والفسية [٢] .

هذا هو رأى كل من الشيخين الجليلين فى تفسير هذه الاية الا اننا عند ما ندقق النظر بين هذين الرأيين نجد أن رأى ابن كثير فى هذا الموضوع هو الاولى بدليل :

اجماع أكثر المفسرين على ذلك ، ولقد قال الامام الزمخشرى عند تفسيره لهذه الاية : " فان قلت : فما معنى تعليمه اسماء المسميات ؟ قلت : أراه الاجناس التى خلقها ، وعلمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا كذا وهذا اسمه كذا وعلمه احوالها ومايتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية (ثم عرضهم) أى عرض المسميات ، وانما ذكر لان فى المسميات العقلاء فغلبهم " [٣] .

وقال الامام القرطبى عند تفسيره لهذه الاية : " واختلف أهل التأويل فى معنى الاسماء التى علمها لادم عليه السلام ، فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير : علمه اسماء جميع الاشياء كلها جليلها وحقيرها .

وروى عاصم بن كليب عن سعيد مولى الحسن بن على قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الانيمة واسم السوط ، قال ابن عباس : " وعلم آدم الاسماء كلها " .

---

(١) الفسوة " فسا " اخرج ريحا من مفساه بلا صوت ، والفسية تصغير الفسوة انظر : تاج العروس جـ/ ١٠ ص/ ٢٨٠

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ١٠٤

(٣) تفسير الكشاف جـ/ ١ ص/ ٢٧٢

قلت - أى يقول القرطبى - وقد روى هذا المعنى مرفوعا ... وهو الذى يقتضيه لفظ "كلها" اذ هو اسم موضوع للاحاطة والعموم ... "[1] .

وقال الامام الآلوسى عند تفسيره للاية - بعد ماساق أقوال العلماء فى ذلك : "والحق عندى ماعليه أهل الله تعالى وهو الذى يقتضيه منصب الخلافة الذى علمت وهو انها اسماء الاشياء علوية أو سفلية ، جوهرية أو عرضية ..... (وعرضهم على الملائكة) أى المسميات المفهومة من الكلام ، وتذكير الضمير على بعض الوجوه للتغليب ماشتملت عليه من العقلاء ... "[2] .

وقال الامام رشيد رضا - صاحب المنار - عند تفسيره للاية : (وعلم آدم الاسماء كلها) أى أودع فى نفسه علم جميع الاشياء من غير تحديد ولا تعيين فالمراد بالاسماء المسميات ، عبر عن المدلول بالدليل لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من احدهما الى الاخر ، والعلم الحقيقى انما هو ادراك المعلومات أنفسها ، والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التى تجرى بالمواضعة والاصطلاح فهى تتغير وتختلف والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف[3] .

والدليل الثانى هو ان الله جل وعلا لما ذكر الاسماء التى علمها لادم لم يخصص اسما دون اسم بل أطلقها ودل ذلك على العموم والشمول . ومما يؤيد هذا الرأى هو مارواه البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه

---

(١) تفسير القرطبى جـ/ ١ ص/ ٢٧٢ الطبعة الثانية مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م .

(٢) روح المعانى للالوسى جـ/ ١ ص/ ٢٠٦ .

(٣) تفسير المنار جـ/ ١ ص/ ٢٦٢ .

أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته واسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا مكاننا هذا . . . "[1] الحديث .

وهذا الحديث دليل واضح على ان الله علم آدم اسماء جميع المخلوقات وبهذا يترجح ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله تعالى - .

٥ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : " واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين "[2] : فمعنى الاية : واستعينوا أيها الاحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وكفها عن معاصى الله ، وباقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر لمقربة من رضا الله العظيمة اقامتها الا على المتواضعين لله ، المستكين لطاعته المتذللين من مخافته[3] .

وهذا المعنى الذى فسر به ابن جرير هذه الاية الكريمة لم يرتضه ابن كثير رحمه الله ، فقد استدرك على ابن جرير بقوله - بعد سرده لتفسير ابن جرير : والظاهر ان الاية وان كانت خطابا فى سياق انذار بنى اسرائيل ، فانهم لم

---

(١) صحيح البخارى جـ/٤ ص/٢٠٢ الطبعة الاخيرة سنة ١٣٧٢هـ-١٩٥٣م مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٢) سورة البقرة الاية/٤٥

(٣) تفسير الطبرى جـ/٢ ص/١٧

يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وانما هي عامة لهم ولغيرهم[١] .

ومن هذا العرض لرأي الشيخين - رحمهما الله - نرى ان ابن جرير يجعل الخطاب موجها الى احبار بني اسرائيل . بينما يرى ابن كثير ان الخطاب وان كان موجها الى احبار بني اسرائيل ، فانه يشملهم شمولا أوليا ويشمل غيرهم معهم بطريق التبع .

ويبدو لنا ان رأي ابن كثير هنا أحكم لانه لم ينف ان الخطاب في سياق انذار بني اسرائيل الا انه يرى انهم قصدوا بها قصدا أوليا وقصد غيرهم بالتبع اذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومما لا شك فيه ان الامر بالاستعانة بالصبر والصلاة مطلوب من أحبار اليهود ومن غيرهم .

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا ، فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة ، وكذلك الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب صلة يستمد منها القلب قوة وتحس فيها الروح صلة بينها وبين خالقها ، وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا . . .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ضربه أمر فزع الى الصلاة وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والالهام ومايزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق وريا في الهجير ومددا حين ينقطع المدد ورصيدا حين ينفذ الرصيد[٢] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ١٢٥ .

(٢) انظر تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب جـ١ ص٨٤-٨٦ الطبعة السابعة سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م دار احياء التراث العربي بيروت/لبنان .

٦ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : "اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم "[1] : اختلف القراء فى قراءة قوله (مصرا) فقرأه عامة القراء مصرا بتنوين من المصر واجرائه ، وقرأ بعضهم بترك التنوين وحذف الالف منه[2] ، فأما الذين نونوه وأجروه ، فانهم عنوا به مصرا من الامصار لا مصرا بعينه فتأويله على قراءتهم : اهبطوا مصرا من الامصار لانكم فى البدو ، والذى طلبتم لا يكون فى الهوادى والفيافى وانما يكون فى القرى والامصار ، فان لكم اذا هبطتموه ماسألتم من العيش .

وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالاجرار والتنوين ، كان تأويل الكلام عنده : اهبطوا مصرا البلدة التى تعرف بهذا الاسم وهى مصر التى خرجوا عنها غير أنه أجراها ونونها اتباعا منه خط المصحف لان فى المصحف ألفا ثابتة فى مصر ، فيكون سبيل قراءته ذلك بالاجراء والتنوين سبيل من قرأ (قواريرا قواريرا من فضة) منونه اتباعا منه خط المصحف . واما الذى لم ينون مصر فانه لا شك أنه عنى مصر التى تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها .

ثم قال - أى ابن جرير - : والذى نقول به فى ذلك أنه لا دلالة فى كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مجيئه العذر ، وأهل التأويل متنازعون تأويله .

---

(١) سورة البقرة الاية / ٦١

(٢) علما بأن هذه القراءة شاذة وليست من القراءات السبع .

فأولى الأقوال في ذلك عندنا ، بالصواب أن يقال : ان موسى سأل ربه أن يعطى قومه ماسألوه من نبات الأرض على مابينه جل وعز في كتابه وهم في الأرض تائهون ، فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارا من الأرض التي تنبت لهم ماسأل لهم من ذلك ، اذ كان الذى سألوه لا تنبته الا القرى والأمصار ، وأنه قد اعطاهم ذلك اذا صاروا اليه ،وجائز أن يكون ذلك القرار مصر ، وجائز أن يكون الشام (١) .

ومن هذا النص الذى نقلناه عن ابن جرير ، نرى أنه لم يقطع برأى في المكان الذى امر بنو اسرائيل بالهبوط فيه ، وأنه يرى ان الله تعالى قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاءه ، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلا - الى قرار من الارض التي تنبت البقول واشباهها . وقد عارض الامام ابن كثير في تفسيره رأى ابن جرير هذا فقال :

وهذا الذى قاله فيه نظر ، والحق ان المراد مصرا من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره ، والمعنى على ذلك لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم : هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير في أى بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوى مع دنائته وكثرته في الأمصار أن اسأل الله فيه ولهذا قال : (اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) أى ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا اليه (٢) .

وبذلك يظهر ان نقطة الخلاف بين الشيخين هى ان ابن كثير - رحمه الله يرى أن المراد بالمصر في الآية مكان غير معين ، وان موسى عليه السلام لم

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ١٣٢ - ١٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ١٤٥ .

يسأل ربه اجابة طلبهم ، لأنهم كانوا متحنتين بطرين ، والله تعالى يكره من كان كذلك والتجهيل لهم اذ ليس حولهم حينئذ بلد قريب يستطيعون الوصول اليه ، بينما يرى ابن جرير - رحمه الله - ان قوله تعالى (اهبطوا مصرا) يجوز ان يكون المراد مصرا من الأمصار أو مصر فرعون على قراءة " مصر " بدون تنوين ، كما يرى أنهم قد هبطوا فعلا مكان من الأرض قد يكون هذا المكان مصر فرعون أو بلاد الشام ، كما يرى كذلك أن موسى - عليه السلام - قد دعا ربه لاجابة طلبهم ، وان الله قد استجاب له .

هذا والذى نرجحه فى هذه المسألة هو ماذهب اليه ابن كثير لما يأتى : -

أولا : ان القراءة بالتنوين متواترة ، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها == وهذه القراءة المتواترة نص فى المراد من مصر ، أى بلد كان ، لا مصر فرعون ، ثم اذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول انه يصدق على مصر فرعون ، وذلك لأن الأمصار التى تنبت ماطلبوا من البقول والحضر أقرب اليهم من مصر فرعون فليس من المعقول ان يؤمروا بالذهاب الى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكانهم ، ويتركوا الأمصار الأقرب اليهم وفيها مايريدون .

ثانيا : لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا الى مصر بعد خروجهم منها == كما قال أبو حيان وغيره [1] ، بل الثابت أن بنى اسرائيل خرجوا من مصر وامروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولكنهم ابو اطاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بالتيه أربعين سنة لتخلفهم عن قتال الجبارين ، ولعصيانهم أمر نبيهم ، وماتوا

---

(١) أنظر تفسير البحر المحيط : جـ ١ / ص ٢٣٥ .

جميعا فى التيه ، وبقى ابناؤهم ، فامتثلوا أمر الله تعالى وهبطوا الى الشام ، وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع ابن نون (١) .

ثالثا : ليس فى الآية مايشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه ان يجيبهم الى رغبتهم ، فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الاشارة ؟

رابعا : دخولهم فى التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم ، فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم يعاقبون فيه ، كما يشعر بذلك قوله تعالى (فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) (٢) فكيف يخرج السجين من سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة ؟ وبناء على ذلك يكون الأمر فى قول موسى لهم (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) ، للتهديد والتوبيخ والتجهيل .

ولهذا نرى أن ماذهب اليه ابن كثير فى تفسيره هذه الآية هو الأقرب الى الحق والصواب .

٧ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى " فذبحوها وما كادوا يفعلون " (٣) اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله كادوا أن يضيحوا فرض الله عليهم فى ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك ، فقال بعضهم : ذلك السبب كان فلاء ثمن البقرة التى أمروا بذبحها ، وبينت لهم صفتها

---

(١) البحر المحيط : جـ ٤ / ص ٢٢٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية (٢٦) .

(٣) سورة البقرة : الآية (٧١) .

وقال آخرون : لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة أن أطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه الى موسى .

والصواب من التأويل عندنا : أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة للخلتين كلتيهما : احداهما : غلاء ثمنها مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها ، والأخرى : خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم باظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه واتباعه على قاتله[1].

وهذا التصويب لم يقبله ابن كثير - رحمه الله - فقد قال - بعد ذكر رأى ابن جرير فى تفسير الاية - وفى هذا نظر بل الصواب ماتقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ماوجهناه[2] .

فقد روى الضحاك عن ابن عباس فى تفسير الآية - كما قال ابن كثير - بقوله : كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا ، لأنهم أرادوا ان لا يذبحوها ، ثم وجه ابن كثير هذا المعنى بقوله : يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الاسئلة والاجوبة ، والايضاح ماذبحوها الا بعد الجهد وفى هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم الا التعنت ، فلهذا ماكادوا يذبحونها[3]

وبعد عرض رأى كل من الشيخين الجليلين فى تفسير هذه الآية الكريمة نرى أن ماذهب اليه ابن كثير هو الأولى لاجماع جمهور المفسرين على ذلك .

فقد قال الامام الزمخشرى فى تفسيره (وماكادوا يفعلون) استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم وانهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ماكادوا يذبحونها وما كادت تنتهى سؤالاتهم وماكاد ينقطع خيط اسهابهم فيها

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ١٦٠ .
(٣) نفس المصدر : جـ ١ / ص ١٥٩ - ١٦٠ .

وتحققهم ...[١]

وقال الامام القرطبي في تفسيره : (وماكادوا يفعلون) وهـذا اخبار عن تثبيطهم في ذبحها وقلة مبادرتهم الى أمر الله[٢] ...

وقال أبو السعود في تفسيره : (وماكادوا يفعلون) كاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر من الحصول ، والجملة حال من ضمير ذبحوا أي - فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه أو اعتراض تذييلي ومآله استثقال استقصائهم واستبطاء لهم وأنهم لفرط تطويلهم وكثرة مراجعاتهم ماكاد ينتهي خيط اسهابهم فيها[٣] .

وقال الامام الشوكاني في تفسيره : (وماكادوا يفعلون) ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة ، فكان ذلك مظنة للاستبعاد ومحلا للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم[٤] .

وقال رشيد رضا في تفسيره : (وماكادوا يفعلون) وماقاربوا أن يذبحوها الا بعد أن انتهت اسئلتهم وانقطع ماكان من تنطعهم وتعنتهم

ومن هذه النقول يتبين لنا أن استدراك ابن كثير على ابن جرير في هذا الموضوع في محله ، وان ماذهب اليه ابن كثير هو الأصوب .

ثم ان تحديد معنى الآية بخلاء ثمن البقرة لم يثبت الا من نقل بني اسرائيل ، وليس في الآية مايشير الى ذلك .

---

(١) تفسير الكشاف : جـ ١ / ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي : جـ ١ / ص ٤٥٥ .

(٣) تفسير أبي السعود : جـ ١ / ص ١٩٠ .

ولقد روى ابن جرير نفسه فى تفسيره بسند صحيح عن ابن عباس موقوفا " لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم "[1] .

ومن كل ذلك يتضح لنا ان على رأس الاسباب التى جعلتهم يترددون فى ذبح البقرة هو تشككهم فى صحة ماوجهه اليهم نبيهم موسى عليه السلام من ارشادات وتوجيهات ، واستيلاء العناد على نفوسهم .

٨ - قال ابن جرير عند قوله تعالى (افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون)[2] .

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى الذين عنى الله بقوله : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فقال بعضهم بما : حدثنى به محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم قال حدثنا عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قول الله تعالى : (أفتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فالذين يحرفونه ، والذين يكتمونه هم العلماء منهم - أى من اليهود -

حدثنى موسى قال حدثنا عمرو بن حماد قال حدثنا أسباط عن السدى (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه) قال : هى التوراة ، حرفوها ...

وقال آخرون فى ذلك بما :

حدثت عن عمار بن الحسن قال أخبرنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع

---

(١) أنظر تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٢٠٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية (٧٥) .

فى قوله : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوة ، ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون .

حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمه ، عن ابن اسحاق فى قوله (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) الآية ، قال : ليس قوله : (يسمعون كلام الله) يسمعون التوراة كلهم قد سمعها ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها .

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة ، عن محمد بن اسحاق ، قال : بلغنى عن بعض أهل العلم انهم قالوا لموسى : يا موسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله عز وجل ، فأسمعنا كلامه حين يكلمك ، فطلب ذلك موسى الى ربه فقال : نعم ، فمرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ، ثم خرج بهم حتى أتى الطور ، فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى عليه السلام أن يسجدوا فوقعوا سجودا ، وكلمه ربه فسمعوا كلامه ، يأمرهم وينهاهم ، حتى عقلوا ماسمعوا ، ثم انصرف بهم الى بنى اسرائيل ، فلما جاؤهم حرف فريق منهم ما امرهم به ، وقالوا حين قال موسى لبنى اسرائيل ان الله قد أمركم بكذا وكذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله : انما قال كذا وكذا - خلافا لما قال الله عز وجل لهم . فهم الذين عنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم وسلم .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية ، وأشبههما بما دل عليه ظاهر التلاوة ، ماقاله الربيع بن أنس والذى حكاه ابن اسحاق ، عن بعض أهل العلم : من ان الله - تعالى ذكره - انما عنى بذلك من سمع كلامه من بنى اسرائيل سامع موسى اياه منه ، ثم حرّف ذلك وبدل ، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه اياه ، وذلك ان الله - جل ثناؤه - انما أخبر

ان التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله - عز وجل - استمظاما من الله لما كانوا يأتون من البهتان بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان وايذانا منه تعالى ذكره عباده المؤمنين ، قطع أطماعهم من ايمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى ، فقال لهم : كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود اياكم ، وانما تخبرونهم بالذى تخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل - عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه ، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه وأمره ونهيه ، ثم يبدله ويحرفه ويجحده ؟

فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم ، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق ، وهم لا يسمعونه من الله ، وانما يسمعونه منكم - وأقرب الى أن يحرفوا مافى كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ويبدلوه ، وهم به عالمون ، فيجحدوه ويكذبوا - من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله - جل ثناؤه - ثم حرفوه من بعد ماعقلوه وعلموه متعمد من التحريف .

ولو كان تأويل الآية على ماقاله الذين زعموا أنه عنى بقوله :

(يسمعون كلام الله) يسمعون التوراة ، لم يكن لذكر قوله : (يسمعون كلام الله) معنى مفهوم ، لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام الله - ان كان التأويل على ماقاله الذين ذكرنا قولهم - دون غيرهم ، ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى له .(١)

وهذا الترجيح من قبل ابن جرير لم يقبله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية - بعد ذكر رأى ابن عباس وابن اسحاق - وقال السدى : (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال : هى التوراة حرفوها .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١ / ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن اسحاق ، وان - كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ، فانه ليس يلزم من سماع كلام الله ان يكون منه ، كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله - تعالى - : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغا اليه ، ولهذا قال قتادة فى قوله : (ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) قال : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ووعوه (١) .

ونقطة الخلاف بين الشيخين فى هذه المسألة هى ان ابن جرير يرى ان قوله تعالى (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) المقصود بهم بهذا الفريق : بنو اسرائيل الذين سألوا موسى رؤية ربهم وسماع كلامه عزوجل بينما يرى ابن كثير ان هذا الفريق يشمل هؤلاء ويشمل كذلك علماء اليهود الذين حرفوا التوراة .

والذى يظهر لى ان ماذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب ، خاصة اذا عرفنا ان قصة هؤلاء السبعين الذين اختارهم موسى لسماع كلام الله انكرها بعض أهل العلم انكارا شديدا منهم الترمذى صاحب " النوادر "، وقال : انما خص بالكلام موسى وحده ، والا فأى ميزة ؟ وجعل هذا من الأحاديث التى رواها الكلبى وكان كذابا (٢) .

وقال الامام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : فان قيل : فقد روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ان قوم موسى سألوا موسى ان يسأل ربه ان يسمعهم كلامه فسمعوا صوتا كصوت الشبور : (انى أنا الله لا اله الا أنا الحى القيوم اخرجتكم من مصر بيد رفيعة وذراع شديدة) .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ١٦٥ .
(٢) انظر زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى : جـ ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

قلت : هذا حديث باطل لا يصح ، رواه ابن مروان عن الكلبي وكلاهما ضعيف لا يحتج به ، وانما الكلام شرف خص به موسى من بين جميع ولد آدم فان كان كلم قومه أيضا حتى أسمعهم كلامه فما فضل موسى عليهم ، وقال وقوله الحق (انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) وهذا واضح [1] .

وبهذا يتبين ان ماذهب اليه ابن كثير من ان الذين يحرفون كلام الله هم علماء اليهود واحبارهم ، وان المقصود بكلام الله هو التوراة .

أقول: ان ماذهب اليه ابن كثير هو الاقرب الى الصواب .

٩ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) [2] :

وهذه الاية مما احتج بها لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره ، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ، وذلك ان الله جل ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم الى قضية عادلة بينه وبينهم فيما كان بينه وبينهم من الخلاف ، كما أمره الله ان يدعو الفريق الاخر من النصارى اذ خالفوه فى عيسى صلوات الله عليه وجادلوا فيه - الى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، وقال لفريق اليهود : ان كنتم محقين فتمنوا الموت ، فان ذلك غير ضاركم ان كنتم محقين فيما تدعون من الايمان وقرب المنزلة من الله بل ان اعطيتم أمنيتكم من الموت اذا تمنيتم ، فانما تصيرون الى الراحة من التعب فى الدنيا ونصبها وكدر عيشها ، والفوز بجوار الله فى جناته ، ان كان الامر كما تزعمون : من أن الدار الاخرة لكم خالصة دوننا ، وان لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا ، وانكشف أمرنا وأمركم لهم

---

(١) تفسير القرطبى جـ/ ٢ ص/ ٢

(٢) سورة البقرة الاية/ ٩٤

فامتنعت اليهود من اجابة النبى صلى الله عليه وسلم ، الى ذلك ، لعلمها أنها ان تمنت الموت هلكت ، فذهبت دنياها ، وصارت الى حزى الابد فى آخرتها ، كما امتنع فريق النصارى - الذين جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى عيسى ، اذ دعوا الى المباهلة - من المباهلة (١) .

وقد علق ابن كثير - بعد سرده لتفسير ابن جرير هذا - فقال : فهذا الكلام منه - أى من ابن جرير - أوله حسن ، وأما آخره ففيه نظر ، وذلك انه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل ، اذ يقال : لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم ان يتمنوا الموت فانه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود أن يعمر ليزداد خيرا ، وترتفع درجته فى الجنة ، كما جاء فى الحديث : "خيركم من طال عمره وحسن عمله" .

ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا : فها أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة وانتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت ، فكيف تلزمونا بما لا تلزمكم ؟ وهذا كله انما نشأ من تفسير الاية على هذا المعنى .

فأما على تفسير ابن عباس (٢) فلا يلزم شىء من ذلك ، بل قيل لهم كلام

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ٣٦١ - ٣٦٢

(٢) وقد فسر ابن عباس الاية أى قوله تعالى (قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) ..... بقوله : اى ادعوا بالموت على اى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) ، أى بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك ، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك مابقى على الارض يهودى الا مات .

نصف : ان كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وانكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم أهل النار ، فباهلوا على ذلك وادعو على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويتحققونه ، فعلم كل واحد باطلهم ، وحزبهم وضلالهم وعنادهم (١) .

وخلاصة رأى كل من الشيخين هى ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان الاية تدعو اليهود الى تمنى الموت بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت أو يقولوا ما فى معنى هذه الكلمة ، بينما يرى ابن كثير ان الاية تدعو الى المباهلة بين اليهود وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، بمعنى ان يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ويخرج علماء اليهود وأهليهم ثم يتوجه كل فريق الى الله بأن يهلك الفريق الكاذب منهما .

ويبدو لنا ان رأى ابن جرير فى هذا الموضوع أرجح ، لانه أقرب الى موافقة اللفظ الذى نطقت به الاية ، وأقرب أيضا الى معناها ، اذ ليس فى الاية اشارة الى طلب المباهلة . والقرآن حينما دعا اليها نصارى نجران جاء اللفظ بها صريحا فى قوله تعالى : (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (٢) .

وأما ماأورده ابن كثير من امكان اعتراض اليهود على المسلمين بعدم تمنيهم للموت فنقول : ان الاية الكريمة ليست فى مجال تمنى المسلمين للموت

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ١٨٣ - ١٨٤

(٢) سورة آل عمران الاية/ ٦١

وعدمه ، وانما هي في مجال الرد على دعاوى اليهود الكاذبة بأنهم أهل الجنة وأنها خالصة لهم من دون الناس ، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم ان يتحداهم وأن يقول لهم : ان كان الامر كما تزعمون من ان الجنة خالصة لكم من دون الناس ، فتمنوا الموت لتنتقلوا من شقاء الدنيا وهمومها الى الظفر بالجنة التي فيها الراحة من هذه المتاعب .

ومع هذا فان تمني الموت انما يكون منهيا عنه اذا كان الدافع اليه عدم الرضا بالقضاء والقدر ، وفي الحديث : "لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه فان كان لا بد فاعلا فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي "[1] .

وأما اذا كان تمني الموت من أجل الشهادة أو من أجل الاشتياق الى دار النعيم فهذا ليس منهيا عنه ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :- " . . . والذي نفس بيده لوددت اني اقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم اقتل ثم احيا ثم اقتل ثم احيا ثم اقتل "[2] لما علم من فضل الشهادة .

وقال ايضا لما بلغه قتل من قتل ببئر معونة "ياليتني غودرت معهم في الجف الجبل " وفي قصتي قتل عثمان وسعيد بن جبير ما يدل على اختيارهما الشهادة وتمني الموت ، وذلك ان عثمان رضي الله عنه جاءه جماعة من الصحابة فقالوا له نقاتل عنك فقال لهم لا ، وكان له قريب من الف عبد فشهروا سيوفهم لما هجم عليه فقال : من أغمد سيفه فهو حر فصبر حتى قتل .

---

(١) رواه البخاري انظر : فتح الباري كتاب المرضى باب تمني المريض للموت جـ/ ١٠ ص/ ١٢٧ ، وفي كتاب الدعوات باب الدعاء بالموت والحياة جـ/ ١١ ص/ ١٥٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد "باب تمني الشهادة" فتح الباري جـ/ ٦ ص/ ١٦ ، وصحيح مسلم في كتاب الامارة "باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله" جـ/ ٢ ص/ ١٤٥ .

وأما سعيد بن جبير فان الموكلين به لما طلبه الحجاج قالوا له : طلبك ليقتلك فاذهب حيث شئت ونحن نكون فداءك فقال لا والله انى سألت ربى الشهادة وقد رزقنيها والله لا برحت[1] .

وروى عن على رضى الله عنه أنه كان يطوف بين الصفين فى غلالة فقال له الحسن ماهذا بزى المحاربين فقال يابنى لا يبالى أبوك أسقط على الموت أم سقط عليه الموت .

وروى عن حذيفة انه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال حبيب جاء على فاقة .

وقال عبد الله بن رواحة عند خروجه الى غزوة مؤتة ودعا المسلمون له ولمن معه ان يردهم الله سالمين :

لكننى اسأل الرحمان مغفرة ** وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
او طعنة من يدى حران مجهزة ** بحربة تنفذ الاحشاء والكبدا
حتى يقولوا اذا مروا على جدثى ** ارشدك الله من غاز وقد رشدا[2]

ومن كل ذلك نرى ان ماذهب اليه ابن جرير أقرب الى الصواب لان الاية مسوقة لتحدى اليهود الذين زعموا ان الدار الاخرة خالصة لهم من دون الناس كما دل على ذلك أول الاية ، وليست مسوقة للمباهلة كما يرى ابن كثير .

---

(١) انظر البحر المحيط لابى حيان جـ/ ١ ص/ ٣١١

(٢) انظر تفسير التحرير والتنوير لعاشور جـ/ ١ ص/ ٦١٥ الدار التونسية للنشر .

١٠ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : "وماأنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ..." [1] : اختلف اهل العلم فى تأويل "ما" التى فى قوله : (ومانزل على الملكين) ، فقال بعضهم : معناه الجحد ، وهى بمعنى "لم" ... فتأويل الاية على هذا المعنى : واتبعوا الذين تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون حينئذ قوله "ببابل هاروت وماروت" من المؤخر الذى معناه التقديم .

وقال آخرون : بل تأويل "ما" التى فى قوله "وماأنزل على الملكين" "الذى" ... فمعنى الاية على تأويل هذا القول : واتبعت اليهود الذى تلت الشياطين مع ملك سليمان ، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وهما ملكان من ملائكة الله ...

فليس فى انزال الله اياه - أى السحر - على الملكين ، ولا فى تعليم الملكين من علماه من الناس اثم ، اذ كان تعليمها من علماه ذلك باذن الله لهما بتعليمه بعد ان يخبراه بأنهما فتنة وينهياه عن السحر والعمل به والكفر وانما الاثم على من يتعلمه منهما ويعمل به ، اذ كان الله تعالى قد نهاه عن تعلمه والعمل به .

قال ابو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى ، قول من وجه "ما" التى فى قوله : (ومانزل على الملكين) الى معنى "الذى" ، دون معنى "ما" التى هى بمعنى الجحد ... [2] .

وقد عد ابن كثير - رحمه الله - قول ابن جرير هذا ورجيحه مسلكا غريبا فقال فى تفسيره ، وذكر ماذكره ابن جرير من قول من قال "ما" بمعنى "لم"

---

(١) سورة البقرة الاية / ١٠٢

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ٢ ص/ ٤١٩ - ٤٢٤

فقال : "ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول ، وان "ما" بمعنى "الذى" وطال القول فى ذلك ، وادعى ان هاروت وماروت ملكان انزلهما الله الى الارض وأذن لهما فى تعليم السحر اختبارا لعباده وامتحانا ، بعد ان بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل ، وادعى ان هاروت وماروت طيحان فى تعليم ذلك ، لانهما امتثلا ما أمرا به ، وهذا الذى سلكه غريب جدا"[1] .

ومن هذا العرض لاقوال الشيخين نرى ان ابن كثير يعترض على ابن جرير فى ترجيحه وتوجيهه لمعنى " ما " التى فى قوله تعالى (وماانزل على الملكين) ومايترتب على ذلك من نزول الملائكة بالسحر .

والحقيقة ان نزول الملائكة بالسحر وعدمه محل خلاف قديم بين العلماء وقد ذهب بعضهم الى اثبات ذلك منهم قتادة والزهرى والسدى وابن زيد والزمخشر والفخر الرازى .

ذكر الزمخشر[2] الحكمة فى ذلك بأنه ابتلاء من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يقترب كان مؤمنا ، كقول القائل : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ، وكما ابتلى قوم لوط بالنهر " فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى "[3] .

وقال الفخر الرازى ان الحكمة فى ذلك : ان العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية المعجزة وبماهية السحر والناس كانوا جاهلين بماهية السحر فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لاجل هذا الغرض[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ١٩٧

(٢) تفسير الكشاف جـ/ ١ ص/ ٢٠١

(٣) سورة البقرة الاية / ٢٤٩

(٤) التفسير الكبير جـ/ ٣ ص/ ٢٢٠

وقال غيرهما : ان الحكمة فى ذلك ان السحرة كثروا فى ذلك الزمان وادعو النبوة وتحدوا الناس بالسحر فجاء ليعلما الناس السحر فيتمكنوا من معارضة فيتبين كذبهم فى دعواهم النبوة (١) .

وقال بعضهم : ان الحكمة من تعميم تعليم السحر هى ان السحرة فى بابل كانوا اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم فى ابدانهم وعقولهم وأموالهم ثم تطلعوا منه الى تأسيس عبادة الاصنام والكواكب وزعموا انهم - اى السحرة - مترجمون عنهم وناطقون بارادة الالهة فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة فأراد الله انقاذ الخلق من ذلك فارسل هاروت وماروت ان يكشفا دقائق هذا الفن للناس حتى يشترك الناس كلهم فى ذلك فيعلموا ان السحرة ليسوا على ذلك ويرجع الناس الى صلاح الحال (٢) .

وذكر أصحاب هذا الرأى أحاديث منسوبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم تدل على هذا المعنى ، كما ذكروا آثارا كثيرة عن الصحابة والتابعين تدل على ذلك .

هذا وقد ذهب بعض العلماء الى نفى ذلك عن الملائكة الذين أخبر عنهم الله جل وعلا بأنهم " لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون " (٣) وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس والربيع بن أنس وغيرهما من المفسرين .

فقد قال ابو حيان - بعد ذكره للرأيين وما ورد من قصة الملكين والمرأة المسمى بـ " الزهرة " - : وهذا كله لا يصح منه شئ والملائكة معصومون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون - يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يصح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : تفسير البحر المحيط لابى حيان جـ/ ١ ص/ ٣٢٩

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور جـ/ ١ ص/ ٦٤٠ - ٦٤١

(٣) سورة التحريم الاية / ٦

كان يلعن الزهرة ولا ابن عمر [1] .

وقال الامام القرطبي عند تفسيره للآية : قوله تعالى : (وما انزل على الملكين) " ما " نفي ، والواو للعطف على قوله : (وما كفر سليمان) وذلك ان اليهود قالوا : ان الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر ، فنفى الله ذلك وفي الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله (ولكن الشياطين كفروا) هذا أولى ما حملت عليه الاية من التأويل ، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت الى سواه ... [2]

هذا وقد رد القرطبي على الرأي الثاني والاحاديث والاثار الواردة في ذلك بقوله : قلت : هذا كله ضعيف لا يصح منه شيء فانه قول تدفعه الاصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه وسفراؤه الى رسله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) (بل عباد مكرمون لا يستبقون بالقول وهم بأمره يعملون) [3] (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) [4] .

وأما العقل فلا ينكر وقوع المعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ويخلق فيهم الشهوات ، اذ في قدرة الله تعالى كل موهوم ، ومن هذا خوف الانبياء والاولياء الفضلاء العلماء ، لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك الا بالسمع ولم يصح ، ومما يدل على عدم صحته ان الله تعالى خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء ، ففي الخبر : " ان السماء لما خلقت خلق فيها سبعة دوارة زحل والمشتري وبهرام وعطارد والزهرة والشمس والقمر) وهذا معنى قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) [5] فثبت بهذا ان الزهرة وسهيلا قد كانا

---

(١) البحر المحيط ج/ ١ ص/ ٣٢٩
(٢) تفسير القرطبي ج/ ٢ ص/ ٥٠
(٣) سورة الانبياء الاية/ ٢٧
(٤) " " " / ٢٠
(٥) " يس " / ٤٠

قبل خلق آدم ... [1]

وقال ابن حزم : ان قوما نسبوا الى الله تعالى مالم يأت به قط أثر يجب ان يشغل به وانما هو كذب مفترى من أنه تعالى أنزل الى الأرض ملكين وهما هاروت وماروت وأنهما عصيا الله تعالى وشربا الخمر وحكما بالزور وقتلا النفس وزنيا وعلما زانية اسم الله الأعظم فطارت به الى السماء فمسخت كوكبا وهى الزهرة وأنهما عذبا فى غار ببابل وأنهما يعلمان الناس السحر وحجتهم على مافى هذا الباب خبر رويناه من طريق عمير بن سعيد وهو مجهول ، مرة يقال له النخعى ومرة يقال له الحنفى مانعلم له رواية الا هذه الكذبة وليس أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه أوقفها عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ...

ومن البرهان على بطلان هذا كله قول الله تعالى (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ماتنزل الملائكة الا بالحق وماكانوا اذا منظرين) [2] ، فقطع الله عز وجل ان الملائكة لا تنزل الا بالحق وليس شرب الخمر ولا زنا ولا قتل النفس المحرمة ولا تعليم العواهر اسماءه عز وجل التى يرتفع بها الى السماء ولا السحر من الحق بل كل ذلك من الباطل ونحن نشهد ان الملائكة مانزلت قط بشىء من هذه الفواحش والباطل ، واذا لم تنزل به فقد بطل ان تفعله لأنها لو فعلته فى الأرض لنزلت به وهذا باطل ، وشهد عز وجل أنه لو أنزل علينا الملائكة لما نظرنا فصح أنه لم ينزل قط ملك ظاهر الا للنبى بالوحى فقط ...

---

(١) تفسير القرطبى : جـ ٢ / ص ٥٢ .

(٢)

فان بابل هى الكوفة وهى بلد معروف يقربها محدودة معلومة ليس فيها غارفيه ملك فصح أنه خرافة موضوعة اذ لو كان ذلك لما خفى مكانهما على أهل الكوفة فبطل التعليق بها روت وما روت والحمد لله رب العالمين . (١)

وقال الامام الآلوسى عند تفسيره للآية - بعد سرده لأقوال العلماء فى الرأيين وقصة الملائكة والمرأة - : هذا ومن قال بصحة هذه القصة فى نفس الأمر وحطها على ظاهرها فقد ركب شططا ، وقال غلطا وفتح بابا من السحر يضحك الموتى ، ويبكى الأحياء ، وينكس راية الاسلام ، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين . (٢)

هذا ومما لا شك فيه هو ان الأحاديث التى رفعت الى النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن نزول الملكين وفى شأن الزهرة ، أحاديث مشكوك فى سندها والآثار التى رويت عن السلف لا تخرج عما جاء فى هذه الاحاديث ، ولعلى وان صحت بعض أسانيدها فانها من السمعيات التى لا تثبت الا بخبر من المعصوم وحيث ان الخبر لم يثبت فهى من الاسرائيليات التى لا تستند الى برهان .

وقد توقف كثير من المحققين من هذه القصة وماورد فيها من الآثار ، وهذا ابن حجر يقول - بعد مراجعة الآثار وجمع طرقها - :

" له طرق كثيرة جمعتها فى جزء مفرد يكاد الواقف عليه ان يقطع بوقوع هذه القصة لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج اكثرها .. والله أعلم " (٣) .

---

(١) الفصل فى الملل والاهواء والنحل لابن حزم : جـ ٤ / ص : ٥٦ - ٥٨ ، مطبعة محمد على صبح بالقاهرة .

(٢) روح المعانى : جـ ١ / ص ٣٤٢ .

(٣) أنظر القول المسدد فى الذب عن المسند الامام أحمد : ص ٥٣ - ٥٤ .

ولـذا ختم ابن كثير تفسير الآيـة بقولـه : وقد روى فـي قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ... وحاصلها راجع في تفصيلها الى اخبار بني اسرائيل ، اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهـوى وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما اراده الله تعالى . . .

والله أعلم بحقيقة الحال [1] }

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٢٠٣ .

١١ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ...) (١) :

فان قال قائل : ومن الذى عنى بقوله : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) ؟ وأى المساجد هى ؟

قيل : ان أهل التأويل فى ذلك مختلفون ، فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله ان يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجد بيت المقدس ... ...

وقال آخرون : وهو بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى والمسجد مسجد بيت المقدس ... ...

وقال آخرون : بل عنى الله عز وجل بهذه الآية ، مشركى قريش اذ منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام ...

وأولى التأويلات التى ذكرتها بتأويل الآية ، قول من قال : عنى الله عز وجل بقوله : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) . النصارى ، وذلك أنهم هم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس ، واعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا مؤمنى بنى اسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم الى بلاده .

والدليل على صحة ماقلنا فى ذلك ، قيام الحجة بأن لا قول فى معنى هذه الآية الا أحد الأقوال الثلاثة التى ذكرناها ، وأن لا مسجد عنى الله عز وجل بقوله : (وسعى فى خرابها) الا أحد المسجدين : اما مسجد

---

(١) سورة البقرة : الآية (١١٤) ، وتكملة الآية (... أولئك ماكان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) .

بيت المقدس ، وأما المسجد الحرام ، واذا كان ذلك كذلك = وكان معلوما ان مشركى قريش لم يسعوا قط فى تخريب المسجد الحرام ، وان كانوا قد سعوا فى بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه = صح وثبت ان الذين وصفهم الله عز وجل بالسعى فى خراب مساجده غير الذين وصفهم الله بعمارتها ، اذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام فى الجاهلية ، وبعمارته كان افتخارهم ، وان كان بعض أفعالهم فيه ،كان منهم على غير الوجه الذى يرضاه الله منهم .

واخرى ، ان الآية التى قبل قوله : (ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه) مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم والتى بعدها نبهت بذم النصارى ، والخبر عن افترائهم على ربهم ،ولم يجر لقريش ولا لمشركى العرب ذكر ، ولا للمسجد الحرام قبلها ، فيوجه الخبر - بقول الله عز وجل : (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه)- اليهم والى المسجد الحرام .

واذ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها اليه وهو ماكان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها ، اذ كان خبرها لخبرهما نظيرا وشكلا ، الا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وان اتفقت قصصها فاشتبهت (١) .

هذا ولم يرض ابن كثير بهذا الترجيح فقال عند تفسيره لهذه الآية - بعد ذكره الرأيين - : ثم اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج بأن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة ، وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٥١٩ - ٥٢٢ .

قلت - ابن كثير - : الذى يظهر القول الثانى ... لأن النصارى اذا منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس ، كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا اذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتمدون وأيضا فانه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى ، شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام ، واما اعتماده على ان قريشا لم تسع فى خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم ومشركهم ، كما قال تعالى : (مالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وماكانوا أولياءه ان أولياءه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ...

وليس المراد من عمارتها زخرفتها واقامة صورتها فقط ، انما عمارتها بذكر الله فيها واقامة شرعه فيها ، ورفعها عن الدنس والشرك (١) .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هى : من الذين سعوا فى خراب المسجد وأى مسجد يعنى ؟ ذهب ابن جرير الى أن الذين سعوا فى خراب المسجد هم النصارى والمسجد بيت المقدس بينما ذهب ابن كثير الى أن - الذين سعوا فى خراب المسجد هم مشركوا قريش والمسجد هو المسجد الحرام

(والذى يظهر لى هو ان ماذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - أولى بالقبول ، لأن الآيات التى قبل هذه الآية وبعدها تؤيد ماذهب اليه ، وان استدراك ابن كثير على ابن جرير فى هذه المسألة ليس فى محله كما قال الشيخ محمود شاكر عند تعليقه حيث قال : اراد ابن كثير ان يرد ماذهب اليه

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ ص / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

الطبرى فى تفسير الآية ... ثم استدل بآيات من كتاب الله وقال : ليس المراد بعمارتها ، زخرفتها واقامة صورتها فقط ، انما عمارتها بذكر الله واقامة شرعه فيها ، الى آخر ماقاله .

وهذا الاعتراض من ابن كثير على أبى جعفر رحمهما الله ، ليس يقوم فى وجه حجة الطبرى على صواب ماذهب اليه فى تأويل الآية والطبرى لم يغفل عن مثل اعتراض ابن كثير ، ولكن ابن كثير غفل عن سياق تأويل الطبرى وصحيح ان ماكان من أمر أهل الشرك فى الجاهلية فى البيت الحرام يدخل فى عموم معنى قوله : (وسعى فى خرابها) .

ولكن سياق الآيات السابقة ، ثم التى تليها ، توجب - كما ذهب اليه الطبرى - ان يكون معنيا بها من كانت الآيات نازلة فى خبره وقصته والآيات السالفة جميعا خبر عن بنى اسرائيل الذين كانوا على عهد موسى ، وتأنيب لبنى اسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ماكان منهم لأهل الايمان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عتاب بعض أهل الايمان على ماجرى على ألسنتهم من ألفاظ اليهود فى خطاب نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ثم تحذير لهم من أهل الكتاب جميعا ، يهودهم ونصرانيهم ، وذكر الافتراء الفريقين بعضهم على بعض ، وادعاء كل فريق أنه هو الفريق الناجى يوم القيامة ، ثم أفرد بعد ذلك أخبار النصارى ، كما أفرد من قبل اخبار بنى اسرائيل ، فحدد سوء فعلهم فى منعهم مساجد الله ان يذكر فيها اسمه ، ثم كذبهم على ربهم أنه اتخذ ولدا ، ثم قول بعضهم : (لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) ، وان ذلك شبيه بقول اليهود : (أرنا الله جهرة) ، ثم أخبر أنه أرسل رسوله محمد بشيرا ونذيرا ، وأمره أن يعرض عن أهل الجحيم من هؤلاء وهؤلاء ، ثم أعلمه أن اليهود والنصارى جميعا لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وطريقهم فى الافتراء على رب العالمين .

فالسياق كما ترى بمعزل من المشركين من العرب ...[1]

قلت : ومع ان رأى ابن جرير - كما قلنا سابقا - هو الأقرب الى السياق كما يدل عليه السابق واللاحق الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم عام يتناول بيت المقدس وكل مسجد كما يتناول اليهود والنصارى وغيرهم من جميع الكفار والمشركين .

---

(١) انظر تفسير الطبري : تعليق محمود شاكر ، جـ ٢ / ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

١٢ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ...)[1] :

فان قال : فكيف خص المشارق والمغارب بالخبر عنها أنها له فى هذا الموضع دون سائر الاشياء غيرها ؟

قيل : قد اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله خص الله ذكر ذلك بما خصه به فى هذا الموضع ...

فقال بعضهم : خص الله - جل ثناؤه - ذلك بالخبر ، من أجل ان اليهود كانت توجه فى صلاتها وجوهها قبل بيت المقدس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة ثم حول الى الكعبة ، فاستنكر اليهود ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟فقال تبارك وتعالى لهم : المشارق والمغارف كلها لى أصرف وجوه عبادى كيف أشاء منها ، فحيثما تولوا فثم وجه الله ...

وقال آخرون : بل انزل الله هذه الآية قبل أن يفرض على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين به التوجه شطر المسجد الحرام ، وانما أنزلها عليه معلما نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك وأصحابه ان لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحى المشرق والمغرب ، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك ، وناحية الا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له المشارق والمغارف ، وأنه لا يخلوا منه مكان ، كما قال جل وعز : (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا)[2] قالوا : ثم

---

(١) سورة البقرة : الآية (١١٥) .

(٢) سورة المجادلة : الآية (٧) .

نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم فى التوجه شطر المسجد الحرام[1]

وقد استدرك ابن كثير على ابن جرير فى قوله - أى ابن جرير - : " وأنه لا يخلوا منه مكان " فقال - ابن كثير - : وفى قوله : "وانه تعالى لا يخلو منه مكان " ان اراد علمه تعالى فصحيح ، فان علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شئ من خلقه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[2] .

والذى يظهر هو أن ماقاله ابن كثير - رحمه الله - هو عقيدة ابن جرير رحمه الله - وقد بين ذلك فى تفسيره لسورة المجادلة عند قوله تعالى : (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الارض مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ماكنوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شئ عليم)[3] قال ابن جرير :

يقول تعالى - ذكره - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى (ان الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض) من شئ ، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره ، يقول جل ثناؤه : فكيف يخفى على من كانت هذه صفته اعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم ، ثم وصف جل ثناؤه قربه من عباده وسماعه نجواهم ، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم ، فيتحدثونه سرا بينهم ، فقال (مايكون من نجوى ثلاثة) من خلقه (الا هو رابعهم) يسمع سرهم ونجواهم لا يخفى عليه شئ من اسرارهم . .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢ / ص ٥٢٦ - ٥٢٨ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٢٢٧ .

(٣) سورة المجادلة : الآية (٧) .

(ولا خمسة الا هو سادسهم) يقول : ولا يكون من نجوى خمسة الا هو سادسهم كذلك (ولا أدنى من ذلك) يقول : ولا أقل من ثلاثة (ولا أكثر) من خمسة (الا هو معهم) اذا تناجوا (اينما كانوا) يقول : فى أى موضع ومكان كانوا .

وعنى بقوله (هو رابعهم) بمعنى أنه مشاهدهم بعلمه ، وهو على عرشه كما حدثنى عبد الله بن أبى زياد ، قال ثنى نصر بن ميمون المضروب قال : ثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن الضحاك فى قوله (مايكون من نجوى ثلاثة) ... الى قوله (هو معهم) قال : هو فوق العرش ، وعلمه معهم ، (أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم) (١) .

وبهذا يزول تشكك ابن كثير فى كلام امام ضابط من أئمة أهل الحق ويتضح أنه لا يقصد بقوله الحصر أو التجسيم أو التشبيه أو ما الى ذلك .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٨ / ص ١٢ - ١٣ .

١٣ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)[1] : يعني تعالى ذكره بقوله (وعهدنا) ، وأمرنا ...

فمعنى الآية : وأمرنا ابراهيم واسماعيل بتطهير بيتي للطائفين .

والتطهير الذي أمرهما الله به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ، ومن الشرك بالله .

فان قال قائل : وما معنى قوله " وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين " ؟ وهل كان ايام ابراهيم - قبل بنائه البيت - بيت يطهر من الشرك وعبادة الأوثان في الحرم ، فيجوز ان يكون أمرا بتطهيره ؟

قيل : لذلك وجهان من التأويل ، قد قال بكل واحد من الوجهين جماعة من أهل التأويل .

أحدهما : ان يكون معناه : وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن - ابنيا بيتي مطهرا من الشرك والريب ، كما قال تعالى ذكره : (افمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من أسس بنيانه على شفا جرف هار)[2] .

فكذلك قوله : (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي) أي ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب ...

فهذا أحد وجهيه .

والوجه الآخر منهما : أن يكونا أمرا بأن يطهرا مكان البيت قبل بنيانه ، والبيت بعد بنيانه ، مما كان أهل الشرك بالله يجعلونه فيه - عهد نوح ومن قبله - من الأوثان ، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما ، اذ كان الله

---

(١) سورة البقرة : الآية (١٢٥) .

(٢) سورة التوبة : الآية (١٠٩) .

- تعالى ذكره - قد جعل ابراهيم امامًا يقتدى به من بعده ، كما حدثنى يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله (ان طهرا) قال : من الاصنام التى يعبدون ، التى كان المشركون يعظمونها (١) .

وهذا الوجه الثانى لم يعجب ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية - بعد ان ساق هذا الوجه وهذا الأثر - :

قلت : وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل ابراهيم عليه السلام ، ويحتاج اثبات هذا الى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

أقول : وهذا الذى ذهب اليه ابن كثير من أن الرأى الثانى الذى فسر به ابن جرير الآية يحتاج الى دليل عن النبى عليه الصلاة والسلام اتجاه حسن من ابن كثير ، ودليل واضح على دقة استدراكه ، لأن أمثال هذه الأحكام لا تؤخذ الا بالدليل الثابت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى ان مكان المسجد الحرام قبل بنائه كان مشغولا بالأصنام .

ولقد جرى كثير من المفسرين على الرأى الأول ، الذى معناه : ابنيا بيتى مطهرا من الشرك والريب .

فقد قال الامام الرازى عند تفسيره لهذه الآية : اما قوله (ان طهرا بيتى) فيجب أن يراد به التطهير من كل أمر لا يليق بالبيت ، فاذا كان موضع البيت وحواليه مصلى ، وجب تطهيره من الانجاس والأقذار ، واذا كان موضع العبادة والاخلاص لله - تعالى - وجب تطهيره من الشرك وعبادة غير الله وكل ذلك داخل تحت الكلام .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١ / ص ٣٨ - ٤٠ .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٢٤٨ .

ثم ان المفسرين ذكروا وجوها ، أحدها : ان معنى (طهرا بيتى) ابنياه وطهراه من الشرك وأسساه على التقوى ، كقوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله) .

وثانيها : عرفا الناس ان بيتى طهرة لهم ، متى حجوه وزاروه وأقاموا به ، ومجازه : اجعلاه طاهرا عندهم .

وثالثها : ابنياه ولا تدعا أحد من أهل الريب والشرك يزاحم الطائفين فيه ، بل أقراه على طهارته من أهل الكفر والريب ، كما يقال : طهر الله الأرض من فلان .

وهذه التأويلات مبنية على أنه لم يكن هناك مايوجب ايقاع تطهيره من الأوثان والشرك ، وهو كقوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) فمعلوم أنهن لم يطهرن من نجس بل خلقن طاهرات ، وكذلك البيت المأمور بتطهيره خلق طاهرا .

ورابعها : معناه : نظفا بيتى من الأوثان والشرك والمعاصى ليقتدى الناس بكما فى ذلك .

وخامسها : قال بعضهم : ان موضع البيت قبل البناء كان يلقى فيه الجيف والاقذار ، فأمر الله - تعالى - ابراهيم بازالة تلك القاذورات وبناء البيت هناك ، وهذا ضعيف ، لأن قبل البناء ماكان البيت موجودا ، فتطهير تلك العرصة لا يكون تطهيرا للبيت [1] .

وقال ابن جزى عند تفسيره لهذه الآية : (طهرا بيتى) عبارة عن بنيانه بنية خالصة كقوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله) [2] .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ٤ / ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) التسهيل : جـ ١ / ص ٣٨٢ .

وقال صاحب المنار عند تفسيره لهذه الآية : والمراد ان الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذى نسبه اليه وسماه بيته لأنه جعله معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة ، ولم يذكر مايجب ان يطهراه منه ليشمل جميع الرجس الحسى والمعنوى كالشرك واصنامه ولغو والرفث والتنازع (١) .

وبهذا يتبين ان ماذهب اليه ابن كثير فى هذا الموضوع أولى بالقبول وان استدراكه على ابن جرير فى محله .

---

(١) تفسير المنار : جـ ١ / ص ٤٦٢ .

١٤ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك "[1] : فخصا بذلك بعض الذرية ، لان الله تعالى ذكره قد كان اعلم ابراهيم خليله - عليه الصلاة والسلام - قبل مسألته هذه ، أن من ذريته من لا ينال عهده لظالمه وفجوره ، فخصا بالدعوة بعض ذريتهما .

وقد قيل : انهما عنيا بذلك العرب ... وهذا قول يدل ظاهر الكتاب على خلافه ، لان ظاهره يدل على أنهما دعوا الله ان يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته ، والمستجيبين لامره ، وقد كان في ولد ابراهيم العرب وغير العرب ، والمستجيب لامر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين فلا وجه لقول من قال عنى ابراهيم بدعائه ذلك فريقا من ولده بأعيانهم دون غيرهم الا التحكم الذى لا يعجز عنه أحد[2] .

وهذا الرأى لابن جرير لم يرتضه ابن كثير فقد قال - بعد ذكره لرأى ابن جرير هذا - : قلت : وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى[3] فان تخصيصهم بذلك لا ينفى من هداهم ، والسياق انما هو في العرب ولهذا قال بعده (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) الاية ، والمراد بذلك محمد صلى الله عليه وسلم وقد بعث فيهم ...[4] .

قلت : ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير ذهب الى ان دعاء ابراهيم عليه السلام لذريته عام لجميع ذريته من العرب وغيرهم بينما يرى ابن كثير ان دعاءه قصد به العرب .

---

(١) سورة البقرة الاية / ١٢٨

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ٣ ص/ ٧٤ .

(٣) هذا اشارة الى الى ان السدى من الذين قالوا بأن الاية تعنى العرب وانه ممن عناهم ابن جرير بالسرد .

(٤) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٢٦٧ .

والذى يظهر لى هو ان رأى ابن جرير أقرب الى الصواب ، واعتراض ابن كثير عليه - كما قال محمود شاكر - لا يقوم واحتجاجه بالسياق لا ينهض فالدعاء دعاء ابراهيم واسماعيل معا ، ولكل منهما ذرية يشملها الدعاء والسياق هنا سياق الايات المتتابعة لا سياق آية واحدة ، ففى الايات التى تلى هذه الاية ذكر ملة ابراهيم ، وبيانها : (اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون ، ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون) ، وهى آيات متتابعة فالتخصيص فيها غير جائز مع وضوح الدلالة على ان ذرية ابراهيم من غير اسماعيل كانوا على ملة ابراهيم واسماعيل واسحاق وهم له مسلمون (١) .

وقد ذهب جمهور المفسرين الى ماذهب اليه ابن جرير ، فقد قال ابن عطية عند تفسيره للاية : ... وحكى الطبرى (٢) أنه اراد بذلك العرب خاصة ، وهو ضعيف لان دعوته ظهرت فى العرب وفيمن آمن من غيرهم (٣) .

وقال الامام الزمخشرى عند تفسيره للاية (ومن ذريتنا) واجعل من ذريتنا (امة مسلمة لك) ومن للتبعيض أو للتبيين كقوله - وعد الله الذين آمنوا منكم (٤) - فان قلت : لم خصا ذريتهما بالدعاء ؟ قلت لانهم أحق بالشفقة والنصيحة

---

(١) انظر هامش تفسير الطبرى جـ/ ٣ ص/ ٧٥

(٢) لعل مراده حكى الطبرى من بين ماحكى من الاقوال الضعيفة فى ذلك والا فنحن نعلم مما سقناه من ابن جرير أنه يرى ان الاية تشمل العرب وغيرهم .

(٣) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، لابى محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى تحقيق الاستاذ امحمد صادق الملاح جـ/ ١ ص/ ٤٢١ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م القاهرة .

(٤) سورة النور الاية/ ٥٥

ولان أولاد الانبياء اذا صلحوا صلح بهم غيرهم وشايعوهم على الخير ، ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء اذا كانوا على السداد كيف يتسببون السداد من وراءهم (١) .

وقال ابو حيان ضد الاية : (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) لما تقدم الجواب له بقوله لا ينال عهدى الظالمين علم أن من ذريتهما الظالم وغير الظالم فدعا هنا بالتحصيل لا بالتعميم فقال ومن ذريتنا وخص ذريته بالدعاء للشفقة والحنو عليهم ولان في صلاح نسل الصالحين نفعا كثيرا لمتبعيهم اذ يكونون سببا لصلاح من وراءهم (٢) .

وقال الامام القرطبي ضد الاية (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أى ومن ذريتنا فاجعل ، فيقال : أنه لم يدع نبى الا لنفسه ولامته الا ابراهيم فانه دعا مع دعائه لنفسه ولامته ولهذه الامة ، وحكى الطبرى أنه أراد بقوله " ومن ذريتنا " العرب خاصة ... وهذا ضعيف ، لان دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم (٣) .

وقال الامام الآلوسى ضد الاية : والمراد من الامة الجماعة أو الجيل وخصها بعضهم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحمل التنكير على التنويع ، واستدل على ذلك بقوله تعالى (وابعث " الخ ، ولا يخفى انه صرف اللفظ عن ظاهره واستدلال بما لا يدل (٤) .

وبعد هذه النقول من المفسرين يتبين ان ما ذهب اليه ابن جرير في تفسيره لهذه الاية أقرب الى الصواب .

---

(١) تفسير الكشاف جـ/ ١ ص/ ٣١١

(٢) البحر المحيط جـ/ ١ ص/ ٣٨٨

(٣) تفسير القرطبي جـ/ ٢ ص/ ١٢٦ - ١٢٧

(٤) روح المعاني للآلوسى جـ/ ١ ص/ ٣٨٥ .

١٥ - يقول ابن جرير عند قوله تعالى : (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله)[1] ، قال ابو جعفر : يعني بذلك - جل ثناؤه - : فان احصرتم ، فأردتم الاحلال من احرامكم ، فعليكم ما استيسر من الهدى ولا تحلوا من احرامكم - الذى احصرتم فيه ، قبل تمامه وانقضاء مشاعره ومناسكه - محله وذلك ان حلق الرأس احلال من الاحرام الذى كان المحرم قد أوجبه على نفسه فنهاه الله عن الاحلال من احرامه بحلاقة ، حتى يبلغ الهدى - الذى أباح الله - جل ثناؤه - له الاحلال باهدائه - محله[2] .

وهذا التفسير لم يقبله ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الاية : وقوله : (ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله) معطوف على قوله : (واتموا الحج والعمرة لله) ، وليس معطوفا على قوله : (فان احصرتم فما استيسر من الهدى) كما زعمه ابن جرير - رحمه الله - لان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول الى الحرم ، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم ، فأما فى حال الامن والوصول الى الحرم ، فلا يجوز الحلق (حتى يبلغ الهدى محله) ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة - وان كان قارنا - او من فعل احدهما ، ان كان مفردا أو متمتعا ، كما ثبت فى

---

(١) سورة البقرة الاية/ ١٩٥ ، بدايتها قوله تعالى : (واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فان امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة وذلك من لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب) .

(٢) تفسير الطبرى جـ/ ٤ ص/ ٣٦

الصحيحين عن حفصة أنها قالت : يارسول الله ، ماشأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال : انى لبدت رأسى وقلدت هديى ، فـــلا أحل حتى أنحـــر [1] .

هذا ونقطة الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان قوله تعالى : (ولا تحلقوا رؤوسكم ...) الاية يقصد بها المحصـــرون بينما يـــرى ابن كثير - رحمه الله - ان الاية يقصد بها غير المحصرين أى الآمنـــون .

والذى يظهر لى ان الاية تشمل المحصرين وغير المحصرين ، لان النهى عن الحلق هنا عبارة عن النهى عن الاحلال قبل بلوغ الهدى الى المكان الـــذى يحل ذبحه فيه ، وهو فى حال الاحصار حيث يحصر الحاج اقتداء بالنـــبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والا فالكعبة لقوله تعالى : (هديا بالـــغ الكعبة) [2] وقوله : (ثم محلها الى البيت العتيق) [3] .

قال ابو حيان عند تفسيره لهذه الاية (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلـــغ الهدى محله) : هذا نهى عن حلق الرأس نحيا ببلوغ الهدى محله ومفهومـــه اذا بلغ الهدى محله فاحلقوا رؤوسكم ، والضمير فى تحلقوا يحتمل أن يعـــود على المخاطبين بالاتمام فيشمل المحصر وغيره ، ويحتمل ان يعود على المحصرين وكلا الاحتمالين قال به قوم ، وان يكون خطابا للمحصرين هو قول الزمخشرى [4] .

وظاهر قول ابن عطية انه يختار أن يكون الخطاب لجميع الامة محصـــرا كان المحرم أو محـــلى [5] لانه قدم هذا القول ثم حكى القول الاخر قال ومـــن العلماء من يراها للمحصرين خاصة [6] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٢٣٦
(٢) سورة المائدة الاية/ ٩٥
(٣) " الحج " /٣٣
(٤) انظر تفسير الكشاف جـ/ ١ ص/ ٢٤٤
(٥) انظر تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) جـ/ ١ ص/ ٥٤٤
(٦) البحر المحيط جـ/ ٢ ص/ ٧٤ ، انظر التسهيل لابن جزى جـ/ ١ ص/ ٧٤

وقال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الاية : قوله تعالى (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) ، الخطاب لجميع الامة ، محصر ومخلى ومن العلماء من يراها للمحصرين خاصة أى لا تتحللوا من الاحرام حتى ينحر الهدى .

والمحل : الموضع الذى يحل فيه ذبحه ، فالمحل فى حصر العدو عند مالك والشافعى : موضع الحصر ، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية قال تعالى (والهدى معكوفا ان يبلغ محله ...) .

وعند أبى حنيفة " محل الهدى فى الاحصار " : الحرم لقوله تعالى : (ثم محلها الى البيت العتيق) ، وأجيب عن هذا بأن المخاطب به الامن الذى يجد الوصول الى البيت ، فأما المحصر فخارج من قول الله - تعالى - (ثم محلها الى البيت العتيق) بدليل نحر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه هديهم بالحديبية وليست من الحرم .

واحتجوا من السنة بحديث ناجية ابن جندب صاحب النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للنبى عليه السلام : ابعث معى الهدى فأنحره بالحرم قال : فكيف تصنع به ؟ قال : أخرجه بالاودية لا يقدرون عليه ، فانطلق به حتى انحره فى الحرم واجيب بان هذا لا يصح ، وانما ينحر حيث حل ، اقتداء بفعله عليه السلام بالحديبية ، وهو الصحيح الذى رواه الائمة ، ولان الهدى تابع للمهدى والمهدى حل بموضعه فالهدى أيضا يحل معه (١) .

وقال الامام الشوكانى عند تفسيره لهذه الاية : وقوله (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله) هو خطاب لجميع الامة من غير فرق بين محصر وغير محصر ، واليه ذهب جميع من أهل العلم (٢) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ/ ٢ ص/ ٣٧٩

(٢) فتح القدير جـ/ ١ ص/ ١٩٥ - ١٩٦ .

والصحيح فى هذه المسألة هو ماذهب اليه جمهور العلماء ، لان قوله تعالى : (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله) : فهذا نص صريح فى أن ذلك الهدى لم يبلغ محله ، ولو كان فى الحرم لكان بالغا محله .

والفيصل فى هذه المسألة هو ماذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما وهو ان استطاع ارسال الهدى الى الحرم أرسله ولا يحل حتى يبلغ الهدى محله اذ لا وجه لنحر الهدى فى الحل مع تيسر الحرم ، وان كان لا يستطيع ارساله الى الحرم نحره فى المكان الذى احصر فيه من الحل ، وفى ذلك تقرير للمبادىء التى جاءت بها الشريعة الاسلامية تلك المبادىء التى تتوخى فى كل شئونها التيسير لا التعسير والرفق لا التشديد ، قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[1] ، وقال تعالى : (وماجعل عليكم فى الدين من حرج)[2] .

وعلى ذلك يتبين لنا ان ماذهب اليه الشيخان - ابن جرير وابن كثير - يخالف ما عليه جمهور العلماء من ان الخطاب لجميع الامة من غير فرق بين محصر وغير محصر كما قال المحققون من العلماء .

---

(١) سورة البقرة الاية / ١٨٥

(٢) سورة الحج الاية / ٧٨

١٦ - يقول ابن جرير ضد تفسيره لقوله تعالى : (ولا فسوق) [1] :

اختلف أهل التأويل فى معنى (الفسوق) ، التى نهى الله عنها فى هذا الموضع ، فقال بعضهم : هى المعاصى كلها ....

وقال آخرون : بل (الفسوق) فى هذا الموضع : ماعصى الله به فى الاحرام مما نهى عنه فيه من قتل صيد ، وأخذ شعر ، وقلم ظفر ، وماأشبه ذلك مما خص الله به الاحرام وأمر بالتجنب منه فى خلال الاحرام .

وقال آخرون : بل (الفسوق) فى هذا الموضع : السباب .....

وقال آخرون : (الفسوق) ، الذبح للاصنام .....

وقال آخرون : (الفسوق) التنابز بالالقاب .....

قال ابو جعفر : وأولى الاقوال التى ذكرنا بتأويل الاية فى ذلك قول من قال : معنى قوله (ولا فسوق) ، النهى عن معصية الله فى اصابة الصيد وفعل مانهى الله المحرم عن فعله فى حال احرامه ، وذلك ان الله - جل ثناؤه - قال : (فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق) ، يعنى بذلك : فلا يرفث ولا يفسق ، أى لا يفعل مانهاه الله عن فعله فى حال احرامه ، ولا يخرج عن طاعة الله فى احرامه ، وقد علمنا أن الله - جل ثناؤه - قد حرم معاصيه على كل أحد ، محرما كان أو غير محرم ، وكذلك حرم التنابز بالالقاب فى حال الاحرام وغيرها بقوله : " ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب " [2] ، وحرم على المسلم سباب أخيه فى كل حال ، فرض الحج أولم يفرضه .

---

(١) سورة البقرة الاية / ١٩٦ ، بدايتها قوله تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ومتا تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الالباب .

(٢) سورة الحجرات الاية / ١١

فان كان ذلك كذلك ، فلا شك ان الذى نهى الله عنه العبد من الفسوق فى حال احرامه وفرضه الحج ، هو ما لم يكن فسوقا فى حال احلاله وقبل احرامه بحجه ، كما أن (الرفث) الذى نهاه عنه فى حال فرضه الحج ، هو الذى كان له مطلقا قبل احرامه ، لانه لا معنى لان يقال فيما قد حرم الله على خلقه فى كل الاحوال : "لا يفعلن أحدكم فى حال الاحرام ، ما هو حرام عليه فعله فى كل حال" لان خصوص حال الاحرام به لا وجه له ، وقد عم به جميع الاحوال من الاحلال والاحرام .

فاذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم ان الذى نهى عنه المحرم من "الفسوق" فخص به حال احرامه ، وقيل له : "اذا فرضت الحج فلا تفعله" هو الذى كان له مطلقا قبل حال فرضه الحج ، وذلك ماوصفنا وذكرنا ان الله - جل ثناؤه - خص بالنهى عنه المحرم فى حال احرامه مما نهاه عنه ، من الطيب واللباس ، والحلق ، وقص الاظفار ، وقتل الصيد ، وسائر ماخص الله بالنهى عنه المحرم فى حال احرامه .

فتأويل الاية اذا : فمن فرض الحج فى أشهر الحج فأحرم فيهن فلا يرفث عند النساء فيصح لهن بجماعهن ، ولا يجامعهن ، ولا يفسق باتيان مانهاه الله فى حال احرامه بحجه : من قتل صيد ، وأخذ شعر ، وقلم ظفر ، وغير ذلك مما حرم الله عليه فعله وهو محرم (١) .

هذا ولم يقبل ابن كثير هذا التفسير فقال عند تفسيره لهذه الاية : -

بعد ذكره اختلاف المفسرين فى معنى (الفسوق) - :

والذين قالوا : الفسوق هاهنا هو جميع المعاصى ، معهم الصواب كما نهى تعالى عن الظلم فى الاشهر الحرم ، وان كان فى جميع السنة منهيا

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٤ ص/ ١٣٥ - ١٤١

عنه ، الا انه فى الاشهر الحرم آكد ، ولهذا قال : (فيهن أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، وقال فى الحرم : (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم) .

واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا هو ارتكاب مانهى عنه فى الاحرام من قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الاظفار ، ونحو ذلك . . .

وماذكرناه أولى . . . وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابى حازم عن ابى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه [1] .

ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان معنى (الفسوق) فى هذه الاية يقصد به المنهيات فى اثناء الاحرام مثل : قتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الاظفار وغير ذلك ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان معنى (الفسوق) فى الاية يشمل جميع المعاصى .

والذى يظهر لى هو ان ماذهب اليه ابن كثير فى هذه المسألة أولى بالقبول ، لان معنى الفسق يشمل جميع المعاصى ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا هذه الاشياء التى نهى الله عنها خلال الاحرام .

وقد قال ابو حيان عند تفسيره لهذه الاية : رجح ابن عطية والقرطبى وغيرهما قول من قال أنه جميع المعاصى لعموم جميع الاقوال والافعال ولانه قول الاكثر من الصحابة والتابعين ، ولانه روى " والذى نفسى بيده مابين السماء والارض عمل أفضل من الجهاد فى سبيل الله أو حجة مبرورة لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال ، وقال العلماء : الحج المبرور هو الذى لم يعص الله فى أثناء أدائه [2] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ/ ١ ص/ ٢٤٥

(٢) البحر المحيط جـ/ ٢ ص/ ٢٧٨ وانظر تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) تحقيق احمد صادق الملاح جـ١ ص ٢٥٨ وتفسير القرطبى جـ٢ ص ٤٠٨ .

وقال ابن الجوزى عند تفسيره لهذه الاية : وفى الفسوق ثلاثة أقوال : أحدها : انه السباب ، والثانى : انه التنابز بالالقاب ، مثل ان تقول لاخيك : يافاسق ياظالم ، والثالث : انه المعاصى ، وهو الذى نختاره لان المعاصى تشمل الكل ، ولان الفاسق : الخارج من الطاعة الى المعصية[1]

وقال ابن عاشور عند تفسيره لهذه الاية : والفسوق معروف وقد تقدم القول فيه غير مرة ، وقد قيل أراد به هنا النهى عن الذبح للاصنام وهو تفسير مروى عن مالك ، وكأنه قاله لانه يتعلق بابطال ماكانوا عليه فى الجاهلية غير ان الظاهر شمول الفسوق كسائر الفسق[2] .

والظاهر ان لفظ الفسوق فى هذه الاية لا يختص بمعصية معينة وانما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار انه قد أطلق على ذلك الفرد اسم الفسوق كما قال سبحانه وتعالى فى الذبح للاصنام : (او فسقا اهل لغير الله به) وقال فى التنابز : (بئس الاسم الفسوق) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (سباب المسلم فسوق ...)[3] ولا يخفى على كل عالم ان اطلاق اسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصى لا يوجب اختصاصه به .

لذلك نرى ان ماذهب اليه ابن كثير فى هذه المسألة أولى بالقبول .

---

(١) زاد المسير جـ/ ١ ص/ ١٩٧

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ/ ٢ ، الكتاب الاول ص/ ٢٣٤

(٣) الجامع الصغير جـ/ ٢ ص/ ٣٠

((ما ورد في سورة النساء))

= * =

١٧ - قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى (واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا)[1] :

وقد اختار ابن جرير هاهنا قولا غريبا جدا ، وحاصله : ان معنى الآية عنده (واذا حضر القسمة) أي : واذا حضر قسمة مال الوصية أولو قرابة الميت (فارزقوهم منه وقولوا) لليتامى والمساكين اذا حضروا (قولا معروفا) هذا مضمون ماحاوله بعد طول العبارة والتكرير ، وفيه نظر . .

وقد قال العوفي عن ابن عباس (واذا حضر القسمة) : وهي قسمة الميراث ، وهكذا قال غير واحد ، والمعنى على هذا لا على ماسلكه أبو جعفر ابن جرير - رحمه الله - ، بل المعنى أنه اذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فان أنفسهم تتوق الى شيء منه ، اذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يعطون - فأمر الله - تعالى - وهو الرؤوف الرحيم : ان يرضخ لهم شيء من الوسط يكون بزايهم وصدقة عليهم ، واحسانا اليهم وجبرا لكسرهم ...[2]

هذا ماقاله ابن كثير - رحمه الله - في الآية وما نسبه الى ابن جرير - رحمه الله - فلنرجع الى ابن جرير نفسه لنسمع قوله في الآية :

---

(١) سورة النساء : الآية (٨) .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ١٩٣ .

وقد قال - أى ابن جرير - عند تفسيره لهذه الآية : اختلف أهل التأويل فى حكم هذه الآية ، هل هو محكم أو منسوخ ؟

قال بعضهم هو محكم ... وقال آخرون : منسوخة ...

وقال آخرون : هى محكمة وليست بمنسوخة ، غير ان معنى ذلك (واذا حضر القسمة) يعنى بها قسمة الميت ماله بوصيته لمن كان يوصى له به قالوا : وأمر بأن يجعل وصيته فى ماله لمن سماه الله تعالى فى هذه الآية .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة ، قول من قال : هذه الآية محكمة غير منسوخة ، وانما عنى بها الوصية لأولى قربى الموصى وعنى باليتامى والمساكين : ان يقال لهم قول معروف ... (١)

ومن هذا يتبين ان نقطة الخلاف بين الشيخين هى أن ابن جرير - رحمه الله - يرى ان لفظ القسمة فى الآية يعنى به قسمة الوصية بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - انه يقصد به قسمة الميراث ..

قلت : الآية تحتمل المعنيين الا أنها فى التركة والميراث أظهر لاتصالها بما قبلها وهى فيما ترك الوالدان والأقربون .

وهو ماذهب اليه جمهور أهل العلم ، وقد قال الامام الزمخشرى عند تفسيره لهذه الآية (واذا حضر القسمة) أى قسمة التركة (أولوا القربى) ممن لا يرث (فارزقوهم منه) الضمير لما ترك الوالدان والأقربون وهو أمر على الندب ،قال الحسن : كان المؤمنون يفعلون ذلك اذا جتمعت الورثة حضرهم هؤلاء فرضخوا لهم بالشىء من ورثة الميت فخصهم الله على ذلك تأديبا من غير ان يكون فريضة ، قالوا : ولو كان فريضة لضرب له حد ومقدار

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٨ / ص ٧ - ١٣ .

كما لغيره من الحقوق ، وروى ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكـــر رضي الله عنه قسم ميراث أبيه وعائشة رضي الله عنها حية ، فلم يدع في الدار أحدا الا اعطاه ، وتلا هذه الآية (١) .

وقال ابن جزي عند تفسيره لهذه الآية : الآية خطاب للوارثين أمروا ان يتصدقوا من الميراث على قرابتهم ، وعلى اليتامى وعلى المساكين فقيل ان ذلك على الوجوب ، وقيل على الندب وهو الصحيح (٢) .

وقال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : بين الله - تعالى - ان من لم يستحق شيئا ارثا وحضر القسمة وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون ان يكرموا ولا يحرموا ان كان المال كثيرا ، والاعتذار اليهـــم ان كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرضخ ، وان كان عطاء من القليل ففيه أجـــر عظيم ، درهم يسبق مائة ألف (٣) .

وقال ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآية : قوله تعالى (واذا حضر القسمة أولوا القربى) في هذه القسمة قولان : احدهما : قسمة الميراث بعد موت المورث ، فعلى هذا يكون الخطاب للوارثين وبهذا قال الأكثـــرون منهم ابن عباس والحسن والزهري .

والثاني : أنها وصية الميت قبل موته ، فيكون مأمورا بأن يعين لمن لا يرثه شيئا ، روى عن ابن عباس وابن زيد .

---

(١) الكشاف : جـ ١ / ص ٥٠٣ ، أنظر السنن الكبرى للبيهقي : جـ ٦ / ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، الطبعة الأولى طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٥٢هـ ، وانظر فتح الباري : جـ ٨ / ص ٢٤٢ .

(٢) التسهيل : جـ ١ / ص ١٣١ .

(٣) تفسير القرطبي : جـ ٥ / ص ٤٨ - ٤٩ .

قال المفسرون : والمراد بأولى القربى : الذين لا يرثون (فارزقوهم منه) أى : اعطوهم منه ، وقيل : اطعموهم وهذا على الاستحباب (١) .

وقال ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية : (واذا حضر القسمة . .) جملة معطوفة على جملة (للرجال نصيب) الى آخرها ، وهذا أمر بعطية يعطى من الأموال الموروثة ، أمر الورثة أن يسهموا لمن يحضر القسمة من ذوى قرابتهم غير الذين لهم حق فى الارث من شأنهم ان يحضروا مجالس الفصل بين الأقرباء .

وقوله (للرجال نصيب) وقوله (وللنساء نصيب) يقتضيان مقسوما .

فالتعريف فى قوله (القسمة) تعريف العهد الذكرى . .

وعن ابن عباس أيضا وزيد بن اسلم : ان الامر موجه الى صاحب المال فى الوصية التى كانت مفروضة قبل شرع الميراث واجب عليه أن يجعل فى وصيته شيئا لمن يحضر وصيته من أولى القربى واليتامى والمساكين غير الذين أوصى لهم ، وان ذلك نسخ تبعا لنسخ وجوب الوصية ، وهذا يقتضى تأويل قوله (القسمة) بمعنى تعيين ما لكل موصى له من مقدار وقد علمت ان موقع الآية تمهيد لتفصيل الفرائض ، وان ما ذهب اليه جمهور أهل العلم هو التأويل الصحيح للآية ، وكفاك باضطراب الرواية عن ابن عباس فى تأويلها توهينا لتأويلاتهم (٢) .

وبهذا يتبين ان ما ذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب .

---

(١) زاد المسير : جـ ٢ / ص ١٩ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير لمحمد ابن عاشور : جـ ٤ / ص ٢٥٠ - ٢٥١ الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٠م .

١٨ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ...)[1] الآية :

وأما (الرقبة المؤمنة) فان أهل العلم مختلفون فى صفتها :

قال بعضهم : لا تكون الرقبة مؤمنة حتى تكون قد اختارت الايمان بعد بلوغها ، وصلت وصامت ، ولا يستحق الطفل هذه الصفة ...

وقال آخرون : اذا كان مولودا بين أبوين مسلمين فهو مؤمن ، وان كان طفلا ...

وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال : لا يجزئ فى قتل الخطأ من الرقاب الا من قد آمن وهو يحتمل الايمان من بالغى الرجال والنساء ، اذا كان ممن كان أبواه على ملة من الملل سوى الاسلام ، وولد بينهما وهما كذلك ثم لم يسلما ولا واحد منهما حتى اعتق فى كفارة الخطأ .

وأما من ولد بين أبوين مسلمين فقد اجمع الجميع من أهل العلم أنه وان لم يبلغ حد الاختيار والتمييز ، ولم يدرك الحلم فمحكوم له بحكم أهل الايمان فى الوارثة والصلاة عليه ان مات وما يجب عليه ان جنى ، ويجب له ان جنى عليه وفى المناكحة فان كان ذلك من جميعهم اجماعا فواجب ان يكون له من الحكم - فيما يجزئ فيه من كفارة الخطأ ان اعتق فيها - من حكم أهل الايمان ، مثل الذى له من حكم الايمان فى سائر المعانى التى ذكرناها وغيرها .[2]

وهذا الترجيح من قبل ابن جرير لم يقبله ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وقوله (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى

---

(١) سورة النساء : الآية (٩٢) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ٨/ص ٣٥ - ٣٧ .

أهله) هذان واجبان فى قتل الخطأ أحدهما : الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وان كان خطأ ، ومن شرطها ان تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة .

وحكى ابن جرير عن ابن عباس والشعبى وابراهيم النخعى والحسن البصرى انهم قالوا : لا تجزئ الصغير حتى يكون قاصدا للايمان ، وروى عن طريق عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال فى حرف ، أى (فتحرير رقبة مؤمنة) لا يجزئ فيها صبى .

واختار ابن جرير أنه ان كان مولودا بين أبوين مسلمين أجزأ والا فلا والذى عليه الجمهور : انه متى كان مسلما صح عتقه عن الكفارة ، سواء كان صغيرا أو كبيرا (١) .

من هنا يتبين ان نقطة الخلاف بين الشيخين هى ان ابن جرير يرى ان الرقبة المؤمنة لا بد ان تكون قد اختارت الايمان بعد بلوغها أو ان تكون مولودة بين أبوين مسلمين بينما يرى ابن كثير أنه لا يشترط ذلك ، بل يكفى ان تكون مسلمة صغيرة كانت أو كبيرة .

والذى يظهر لى هو أنه ان وجد رقبة مؤمنة بالغة عاقلة فهى أولى بالعتق والا فبأية رقبة مؤمنة صغيرة كانت أو كبيرة كما قال ابن كثير - رحمه الله - لأن قوله تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ) يدخل فيه الصغير ، فكذلك قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) فوجب أن يدخل فيه الصغير .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

قال الامام الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية : والمراد برقبة مؤمنة كل رقبة كانت على حكم الاسلام عند عامة العلماء[1] .

وقال الامام أبو حيان عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن كل رقبة اتصفت بأن يحكم لها بالايمان منتظم تحت قوله (رقبة مؤمنة) انتظام عموم البدل فيندرج فيها من ولد بين مسلمين ومن أحد أبويه مسلم صغيرا كان أو كبيرا ، ومن سباه مسلم من دار الحرب قبل البلوغ[2] .

---

(١) الكشاف : جـ ١ / ص ٥٥٢ .

(٢) البحر المحيط : جـ ٣ / ص ٣٢٢ .

١٩ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (واتخذ الله ابراهيم خليلا)[1] : يعني بذلك جل ثناؤه : واتخذ الله ابراهيم وليا ..

وقد قيل : سماه الله " خليلا " من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جدب فارتحل الى خليل له من أهل الموصل ، وقال بعضهم من أهل مصر فيما استيار طعام لأهله من قبله ، فلم يصب عنده حاجته ، فلما قرب من أهله مر بمفازة ذات رمل ، فقال : لو ملأت غرائري من هذا الرمل ، لئلا اغم أهلي برجوعي اليهم بغير ميرة ، وليظنوا أني قد أتيتهم بما يحبون ففعل ذلك فتحول ما في غرائره من الرمل دقيقا ، فلما صار الى منزله نام ، وقام أهله ففتحوا الغرائر فوجدوا دقيقا ، فعجنوا منه وخبزوا ، فاستيقظ ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا ، فقالوا : من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك فعلم ، فقال : نعم ، هو من خليل الله . قالوا : فسماه الله بذلك " خليلا "[2] .

وقد استدرك ابن كثير على ابن جرير في نقله هذا الأثر ، فقال : وفي صحة هذا ووقوعه نظر ، وغايته أن يكون خبرا اسرائيليا لا يصدق ولا يكذب وانما سمي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل له لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها ، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال :

" أما بعد أيها الناس ، فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله " .

---

(١) سورة النساء : الآية (١٢٥) بدايتها (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٩ / ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

وجاء من طريق جندب بن عبد الله البجلي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم " ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا " (١) .

والذي يظهر هو ان استدراك ابن كثير على ابن جرير في هذه المسألة في محله ، ومع ان أكثر المفسرين ذكروا هذه القصة وسكتوا عنها (٢) الا أن - ماذهب اليه ابن كثير هو الصواب ، لأن الأثر الذي ذكره ابن جرير من رواية أبو صالح عن ابن عباس وهي من أوهى الطرق عن ابن عباس (٣) .

ثم ان هذه القصة قد وردت بعبارات مختلفة تدل على أنه لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وتشير مارواه ابن جرير من ان ابراهيم عليه السلام هو الذي ذهب بنفسه الى خليله في مصر أو الموصل بينما يروى غيره من ان غلمانه هم الذين ذهبوا لطلب الميرة (٤) .

ثم ان المفسرين ذكروا روايات وقصص أكثرها تدور حول الاسرائيليات ، ومن هذه القصص مارواه الفخر الرازي عن شهربن حوشب قائلا : هبط ملك في صورة رجل وذكر اسم الله بصوت رهيم شجي فقال ابراهيم عليه السلام : اذكره مرة أخرى فقال : لا اذكره مجانا ، فقال لك مالي كله فذكره الملك بصوت أشجى من الأول ، فقال : اذكره مرة ثالثة ولك أولادي ، فقال الملك أبشر فاني ملك لا احتاج الى مالك وولدك ، وانما كان المقصود امتحانك ، فلما بذل المال والاولاد على سماع ذكر الله لا جرم اتخذه الله خليلا (٥) .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) انظر الكشاف : جـ ١ / ص ٥٦٦ - ٥٦٧ ، والقرطبي جـ ٥ / ص ٤٠٠ وتفسير أبي السعود : جـ ٢ / ص ٣٣٧ .

(٣) أنظر التفسير والمفسرون جـ ١ ص ٨١ ، وزاد المسير لابن الجوزي جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٤) انظر الكشاف جـ ١ ص ٥٦٦ ، والتفسير الكبير جـ ١١ ص ٥٩ .

(٥) التفسير الكبير : جـ ١١ / ص ٥٩ .

وعن طاوس عن ابن عباس ان جبريل والملائكة لما دخلوا على ابراهيم في صورة غلمان حسان الوجوه ، وظن الخليل أنهم أضيافه وذبح لهم عجلا سمينا وقربه اليهم وقال : كلوا على شرط ان تسموا الله في أوله وتحمدون في آخره فقال جبريل : أنت خليل الله ، فنزل هذا الوصف (١) .

ومن هنا ندرك ان هذه القصص التي ذكروها وجعلوها سببا لهذا اللقب ليست ثابتة لذا نعود فنقول بأن رأي ابن كثير في المسألة هو الأصوب ، خصوصا اذا عرفنا ان هناك آثار وردت تؤيد ماذهب اليه ، ومن ذلك ما أخرجه البيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل لم اتخذ الله ابراهيم خليلا ؟ قال لاطعامه الطعام يامحمد .

وأخرج الديلمي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس ياعم أتدري لم اتخذ الله ابراهيم خليلا ؟ هبط اليه جبريل فقال : أيها الخليل هل تدري بما استوجبت الخلة ؟ فقال لا أدري ياجبريل ، قال لأنك تعطي ولا تأخذ (٢) .

والمقصود ان الله جل وعلا اصطفى عبده ورسوله ابرهيم - عليه السلام - وجعله خليله لاخلاصه العبادة لله - تعالى - ولاقامة دينه في زمن وبلاد غلبت عليها الوثنية ، وبين قوم أفسد الشرك عقولهم ، ودنس فطرتهم فكان ابراهيم خالصا مخلصا لله ، وبهذا المعنى سماه الله خليلا .

---

(١) التفسير الكبير : ج ١١ / ص ٥٩ .

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي : ج ٢ / ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

٢٠ - قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ...) [1] يعني بذلك جل ثناؤه (من كان يريد) من أظهر الايمان لمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل النفاق الذين يستبطنون الكفر وهم مع ذلك يظهرون الايمان (ثواب الدنيا) يعني : عرض الدنيا باظهار ما أظهر من الايمان بلسانه ، (فعند الله ثواب الدنيا) يعني جزاؤه في الدنيا منها وثوابه فيها هو مايصيب من المغنم اذا شهد مع النبي مشهدا وأمنه على نفسه وذريته وماله ، وما أشبه ذلك ، وأما ثوابه في الآخرة فنارجهنم ..ف

فمعنى الآية : من كان من الصائمين في الدنيا من المنافقين يريد بصنعه ثواب الدنيا وجزاءها من عنده ، فان الله مجازيه جزاءه في الدنيا من الدنيا وجزاءه في الآخرة من الآخرة من العذاب والنكال ، وذلك ان الله قادر على ذلك كله ، وهو مالك جميعه ، كما قال في الآية (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم ...) [2] .

وقد اعترض ابن كثير - رحمه الله - على ابن جرير في تفسيره هذا بقوله : وقد زعم ابن جرير ان المعنى في هذه الآية (من كان يريد ثواب الدنيا) أي من المنافقين الذين أظهروا الايمان لأجل ذلك (فعند الله ثواب الدنيا) وهو ماحصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين ، وقوله (الآخرة) أي عند ثواب الآخرة ، وهو ما ادخره لهم من العقوبة في نار جهنم ، وجعلها كقوله (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) الى قوله (وباطل ماكانوا يصنعون)

---

(١) سورة النساء : الآية (١٣٤) .

(٢) سورة هود : الآية (١٥) ، وأنظر تفسير الطبري جـ ٩ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر ، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر ، فان قوله : (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) ظاهر فى حضور الخير فى الدنيا والآخرة ، أى بيده هذا وهذا ، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية الى نيل المطالب العالية فى الدنيا والأخرة ، فان مرجع ذلك كله الى الذى بيده الضر والنفع ، وهو الذى لا اله الا هو الذى قد قسم السعادة والشقاوة فى الدنيا والآخرة بين الناس وعدل بينهم فيما علمه فيهم من يستحق هذا ، ومن يستحق هذا ... (١)

وخلاصة القول هى ان الامام ابن جرير - رحمه الله - يرى ان الآية تخص المنافقين الذين أظهروا الاسلام واشتركوا فى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل الحصول على المغانم ، واستفادوا من ذلك حياتهم الدنيوية ، بينما يرى الامام ابن كثير - رحمه الله - ان الآية تخاطب الناس جميعا وترشدهم الى ان الخير فى الدنيا والآخرة بيد الله سبحانه وتعالى

والذى نراه أقرب الى الصواب هو ماقاله ابن كثير ، والآية الكريمة تخاطب الناس عامة فتبين لهم ان خير الدنيا بيد الله وخير الآخرة أيضا بيد الله لهذا من الواجب عليهم الا يشغلهم طلب خير الدنيا على طلب خير الآخرة بل عليهم ان يقدموا ثواب الآخرة على ثواب الدنيا ، عملا بقوله تعالى فى آية أخرى (واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (٢) .

والدليل على شمول هذه الآية الكريمة للناس جميعا هو ان ماقبلها خطاب للمؤمنين ولاهل الكتاب جميعا ، قال تبارك وتعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ١ / ص ٣٧٤ .

(٢) سورة القصص : الآية (٧٧) .

(ولله مافى السموات ومافى الأرض ، ولقد وصينا الذين آوتو الكتـــاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وان تكفروا فان لله مافى السموات ومافى الأرض ، وكان الله غنيا حميدا ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا ان يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) .

ثم جاءت الآية التى معنا بعد ذلك لتأكد لهم مانبههم اليه فى الآيـات السابقة من الوصية بتقوى الله عز وجل ، لأنه لما كان شأن التقوى عظيما علـــى النفوس ، لأنها يصرفها عنها استعجال الناس لمنافع الدنيا على خيرات الآخرة نبههم الله الى ان خير الدنيا بيد الله ، وخير الآخرة أيضا ، فان اتقـــوه نالوا الخيرين .

ويكون معنى الآية تذكيرا للمؤمنين وغيرهم بأن لا يلهيهم طلب خيـــر الدنيا عن طلب الآخرة ، وكلاهما من عند الله ، كما تدل الآية على أن الاسلام يهدى أهله الى سعادة الدارين ، ويذكرهم على ان كلا من ثواب الدنيا وثواب الآخرة من فضل الله ورحمته .

والخلاصة أننا نوافق ابن كثير - رحمه الله - فى ان الآية عامـــة ولا نرى مقتضيا لتخصيصها بالمنافقين كما يرى ذلك الامام ابن جـريـــر - رحمه الله - .

٢١ - يقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : " لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما "[1] :

وقوله : (والمقيمين الصلاة) هكذا هو فى جميع المصاحف الأئمة وكذا هو فى مصحف أبى بن كعب ، وذكر ابن جرير أنها فى مصحف ابن مسعود (المقيمون الصلاة) .

قال : والصحيح قراءة الجميع ، ثم رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب ، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم : هو منصوب على المدح ، كما جاء فى قوله : " والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا " ، قالوا : وهذا سائغ فى كلام العرب ، كما قال الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين همو * سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر

وقال آخرون : هو مخفوض عطفا على قوله : (بما أنزل اليك من قبلك) يعنى : وبالمقيمين الصلاة ، وكأنه يقول : وباقامة الصلاة أى : يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم ، أو ان المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة ، وهذا اختيار ابن جرير ، يعنى : يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، وبالملائكة ، وفى هذا نظر[2] .

---

(١) سورة النساء : الآية (١٦٢) .

(٢) تفسير ابن كثير : : ٢ / ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

هذا ومن المستحسن أن نرجع الى ابن جرير نفسه لنسمع قولته في الآية ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية - وبعد ذكره لاختلاف العلماء في قوله (والمقيمين الصلاة) - :

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال عندي بالصواب ، أن يكون (المقيمين) في موضع خفض ، نسقا على " ما " التي في قوله : " بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك " وان يوجه معنى " المقيمين الصلاة " الى الملائكة فيكون تأويل الكلام : " والمؤمنون منهم يؤمنون بما أنزل اليك " يا محمد من الكتاب ، " وبما أنزل من قبلك " من كتبي ، وبالملائكة الذين يقيمون الصلاة ثم يرجع الى صفة " الراسخون في العلم " فيقول : لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بالكتاب والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر [1] .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هي ان ابن جرير - رحمه الله - يرى أن قوله تعالى (والمقيمين الصلاة) صفة للملائكة بينما يرى ابن كثير رحمه الله أنه صفة للمؤمنين من بني البشر .

والذي يظهر هو ان قول ابن كثير في هذه المسألة أقرب الى الصواب لأن الملائكة لا يعرفون بهذا الوصف ، ولا أضيف اليهم في غير هذه الآية وانما هو وصف للمؤمنين من بني البشر قال تعالى : " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة " [2] وقال (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) [3] الى غير ذلك من الآيات .

---

(١) تفسير الطبري : جـ ٩ / ص ٣٩٧ .

(٢) سورة البقرة : الآية (٣) .

(٣) سورة البقرة : الآية (٤٣) .

قال الامام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية :

والمراد بالمقيمين الصلاة الأنبياء ، وذلك لأنه لم يخل شرع أحد منهم من الصلاة ، قال تعالى في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعد أن ذكر أعدادا منهم (وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة)[1] ... فقوله (يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) يعني يؤمنون بالكتاب ، وقوله (والمقيمين الصلاة) يعني يؤمنون بالرسل[2] .

وقال صاحب المنار عند تفسيره لهذه الآية :

وأما قوله تعالى (المقيمين الصلاة) فهو جملة مستقلة ، و (المقيمين) فيه منصوب على الاختصاص أو المدح ... والتقدير أعني أو أخص المقيمين الصلاة منهم الذين يؤدونها على وجه الكمال ، فانهم أجدر المؤمنين بالرسول في الايمان[3] .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية (٧٣) .

(٢) التفسير الكبير : جـ ١١ / ص ١٠٦ .

(٣) تفسير المنار : جـ ٦ / ص ٦٤ .

٢٢ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : " وكلمته ألقاها الى مريم "[1] :

فانه يعني بـ " الكلمة " الرسالة التي أمر الله ملائكته أن تأتي مريم بها بشارة من الله لها ،التي ذكر الله جل ثناؤه في قوله : " اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه " يعني برسالة منه ، وبشارة من عنده :

وقوله (ألقاها الى مريم) يعني : أعلمها وأخبرها ، كما يقال : ألقيت اليك كلمة حسنة ، بمعنى : أخبرتك بها وكلمتك بها[2] .

وهذا التفسير لم يقبله ابن كثير فقد قال عند تفسيره للآية :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال :سمعت شاذ بن يحيى يقول في قول الله : (وكلمته القاها الى مريم وروح منه)

قال : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : (القاها الى مريم) أي أعلمها بها كما زعمه في قوله : (اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه) أي - يعلمك بكلمة منه ، ويجعل ذلك كما قال تعالى : (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك) ، بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل الى مريم ، فنفخ فيها باذن الله فكان عيسى عليه السلام[3] .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هي ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان قوله تعالى (وكلمته القاها الى مريم) معنى بها الرسالة والبشارة منه سبحانه وتعالى الى مريم عليها السلام ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان الاية

---

(١) سورة النساء الاية/ ١٧١

(٢) تفسير الطبري جـ/ ٦ ص/ ٤١٨ - ٤١٩

(٣) تفسير ابن كثير جـ/ ٢ ص/ ٤٣١

يقصد بها الكلمة التي جاء بها جبريل الى مريم ، فنفخ فيها باذن الله فوجد عيسى عليه السلام .

وقبل ان نبدي رأيا في هذا الموضوع نرى من المستحسن ان ننقل أقوال بعض المفسرين البارزين في تفسير هذه الاية الكريمة حتى يتضح الامر :

قال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الاية : (وكلمته ألقاها الى مريم) أي هو - أي عيسى - مكون بكلمة " كن " فكان بشرا من غير أب ، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء اذا كان صادرا عنه ... وقد ورد ان جبريل نفخ في درع مريم فحملت منه باذن الله ، وعلى هذا يكون قوله " وروح منه " معطوفا على المضمر الذي هو اسم الله في " القاها " التقدير : ألقى الله وجبريل الكلمة الى مريم [1] .

وقال الامام الفخر الرازي عند تفسيره للاية : فاعلم أنا فسرنا "الكلمة" في قوله تعالى (ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح) .. أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .) [2] .

وقال الامام الالوسي : (وكلمته) عطف على رسول الله ومعنى كونه كلمة انه حصل بكلمة " كن " من غير مادة معتادة ...

وقال الغزالي - رحمه الله - لكل مولود سببان قريب وبعيد ، فالأول : المني والثاني قول " كن " .

---

(١) تفسير القرطبي : جـ ٦ / ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) التفسير الكبير : جـ ١١ / ص ١١٤ ، الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية / طهران .

ولما دل الدليل على عدم القريب في حق عيسى عليه السلام اضافة الى البعيد وهو قول "كن" اشارة الى انتفاء القريب ، وأوضحه بقوله سبحانه : (القاها الى مريم) أى أوصلها اليها وحصلها فيها فجعله كالمنى الذى يلقى في الرحم ... (١)

وقال سيد قطب - رحمه الله - : وأقرب تفسير لهذه العبارة ، انه سبحانه خلق عيسى بالامر الكونى المباشر ، الذى يقول عنه في مواضع شتى من القرآن : انه "كن" ... فيكون" فلقد ألقى هذه الكلمة الى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب - كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم - والكلمة التى تخلق كل شىء من العدم ، لاعجب في ان تخلق عيسى عليه السلام في بطن مريم من النفخة التى يعبر عنها بقوله "وروح منه ..." (٢) .

وأخرج الشيخان البخارى ومسلم في صحيحهما عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من شهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته القاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ادخله الله الجنة على ماكان من العمل" (٣) .

هذا ويبدو لنا بعد هذه النقول من العلماء ، ان المتبادر من ظاهر الاية ان المراد بقوله تعالى (وكلمته القاها الى مريم) أى أمره سبحانه الذى وجهه عن طريق جبريل - عليه السلام - بأن ينفخ في مريم لتلد عيسى عليه السلام من غير أب .

---

(١) تفسير الالوسى (روح المعانى) جـ/٦ ص/٢٢ . انظر : تفسير ابى السعود جـ/١ ص/٥٨٤ ، والتسهيل لابن جزى الكلبى جـ/١ ص/١٦٥ وتفسير القاسمى جـ/٥ ص/١٧١

(٢) في ظلال القرآن جـ/٢ ص/٦١٠ - ٦١١ .

(٣) انظر صحيح البخارى كتاب الانبياء جـ/٤ ص/٢٠١ ، وصحيح مسلم كتاب الانبياء جـ/١ ص/٤٢ .

وهذا هو المعنى الذى ذهب اليه ابن كثير وأكثر المفسرين ، وما يقوله ابن جرير - رحمه الله - من ان المراد بقوله تعالى (وكلمته ألقاها الى مريم) أى بشارته اياها عن طريق الملائكة ليس بعيدا عن الصواب ، الا انه ليس هو الظاهر المتبادر من الاية ، بل يصح ان ذلك كان بعد ان نفخ جبريل فى مريم فصار عيسى بشرا سويا ، فجاءت الملائكة وبشرتها بذلك زيادة فى اطمئنانها وادخال السرور على نفسها ، وهذا موافق لما يشير اليه قوله وتعالى (اذ قالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والاخرة ومن المقربين) (١)

---

(١) سورة آل عمران الاية/ ٤٥

ما ورد في سورة المائـــدة

٢٣ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ...) (١)

يقول تعالى - ذكره - للمؤمنين به : (يا أيها الذين آمنوا شـــهادة بينكم) يقول ليشهد بينكم (اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية) ، يقـــول وقت الوصية (اثنان ذوا عدل منكم) يقول : ذوا رشد وعقل وحجى من المسلمين

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله : (ذوا عدل منكم) فقال بعضهم عنى به : من أهل ملتكم ... وقال آخرون : عنى بذلك : ذوا عـــــدل من حيي الموصـــي .

واختلفوا في صفة (الاثنين) اللذين ذكرهما الله في هذه الاية ماهـــي وما هما ؟

فقال بعضهم : هما شاهدان يشهدان على وصية الموصي .....

وقال آخرون : هما وصيان .

وتأويل الذين زعموا انهما شاهدان ، قوله (شهادة بينكم) ليشـــهد شاهدان ذوا عدل منكم على وصيتكم .

وتأويل الذين قالوا : هما وصيان لا شاهدان ، قوله (شهادة بينكم) بمعنى الحضور والشهود لما يوصيهما به المريض من قولك : شهدت وصية فـلان بمعنى حضرتـــه .

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين بقوله (اثنان ذوا عدل منكم) تأويـــل من تأوله بمعنى أنهما من أهل الملة دون من تأوله انهما من حي الموصي وانما قلنا ذلك أولى التأويلين بالاية ، لان الله تعالى ذكره - عم المؤمنين بخطابهم بذلك في قوله (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حنين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) فغير جائز أن يصرف ماعمه الله - تعالى ذكره -

---

(١) ســـورة المائـــدة الاية / ١٠٦

الى الخصوص الا بحجة يجب التسليم لها ، واذا كان ذلك كذلك فالواجب أن يكون العائد من ذكره على العموم كما كان ذكرهم ابتداء على العموم .

وأولى المعنيين بقوله (شهادة بينكم) اليمين لا الشهادة التى يقوم بها من عنده شهادة لغيره لمن هى عنده ، على من هى عليه عند الحكام لانا لا نعلم لله - تعالى ذكره - حكما يجب فيه على الشاهد اليمين فيكون جائزا صرف الشهادة فى هذا الموضوع الى الشهادة التى يقوم بها بعض الناس عند الحكام والائمة (١) .

وقد استدرك ابن كثير على ابن جرير فى هذه النقطة بقوله : وقد استشكل ابن جرير كون ما شاهدين ، قال (لانا لا نعلم حكما يحلف فيه الشاهد) وهذا لا يمنع الحكم الذى تضمنته هذه الاية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه ، لا يلزم ان يكون جاريا على قياس جميع الاحكام ، على ان هذا حكم خاص بشهادة خاصة فى محل خاص ، وقد اختفر فيه من الامور ما لم يغتفر فى غيره ، فاذا قامت قرائن الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الاية الكريمة (٢) .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هى ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان لفظ الشهادة فى قوله (شهادة بينكم) يقصد به اليمين ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان معناه فى حقيقته أى الشهادة .

والذى يظهر لى هو ان لفظ (الشهادة) ان كان يفيد الشهادة الحقيقية - كما قال ابن كثير - الا انه لا يقصد بهذه الشهادة شهادة المسلمين بعضهم على بعض ، بل يقصد بها شهادة غير المسلمين على المسلمين .

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١١ ص/ ١٥٤ - ١٥٧

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ ص/ ٢١٢

وسبب نزول الاية يؤيد ذلك ، وكذلك سياق الاية .

وقد روى ان تميم الدار وأخاه عديا كانا نصرانيين خرجا الى الشام ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا خرجوا للتجارة فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه تسمية جميع ماعه وألقاه فيما بين الاقمشة ولم يخبر صاحبيه بذلك ، ثم أوصى اليهما وأمرهما ان يدفعا متاعه اذا رجعا الى أهله ومات بديل فأخذا من متاعه اناء من فضة منقوشا بالذهب ثلثمائة مثقال ، ورفعا باقى المتاع الى أهله لما قدما ، ففتشوا فوجدوا الصحيفة وفيها ذكر الاناء فقالوا لتميم وعدي : اين الاناء ؟ فقالوا : لا ندرى ، والذى رفع الينا رفعناه اليكم فرفعوا الواقعة الى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله - تعالى- هذه الاية (١) .

وأما سياق الاية هو قوله تعالى : (وآخران من غيركم ان أنتم ضربتم فى الارض) يعنى : وشهادة آخرين من غير المسلمين اذا كنتم فى السفر .

وقد قال الامام الشوكانى عند تفسيره لهذه الاية : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن ابى حاتم والنحاس من طريق على بن ابى طلحة عن ابن عباس (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الاية قال : هذا لمن مات وعنده المسلمون امره الله ان يشهد على وصيته عدلين مسلمين ثم قال : (وآخرون من غيركم ان - انتم ضربتم فى الارض) فهذا لمن مات وليس عنده احد من المسلمين امره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين ، فان ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ماشتريا بشهادتهما ثمنا قليلا ، فان اطلع الاولياء على ان الكافرين كذبا فى شهادتهما ، وثم رجلان من الاولياء فحلفا بالله ان شهادة الكافرين باطلة ، فذلك قوله : (فان عثر على انهما استحقا اثما) يقول : ان اطلع

---

(١) انظر : التسهيل لابن جزى جـ/ ١ ص/ ١٩١ ، والتفسير الكبير جـ/ ١٢ ص/ ١١٤ .

على ان الكافرين كذبا (ذلك أدنى أن) يأتي الكافرين (بالشهادة على وجهها ان يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم) فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الاولياء فليس على شهود المسلمين أقسام ، انما الاقسام اذا كانا كافرين (١) .

ومما يدل على ان الحلف في هذه الشهادة يقصد به الكافرون هو ان الله - تعالى - قال في اول الاية (ياأيها الذين آمنوا) فخصهم بهذا الخطاب جميع المؤمنين ، فلما قال بعده (أو آخران من غيركم) كان المراد او آخران من جميع المؤمنين لا محالة .

ثم انه تعالى قال (وآخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض) وهذا يدل على ان جواز الاستشهاد بهذين الاخرين مشروط بأن يكون المستشهد في السفر ، فلو كان هذان الشاهدان مسلمين لما كان جواز الاستشهاد بهما مشروطا بالسفر ، لان الاستشهاد المسلم جائز في السفر والحضر .

ثم ان الاية دالة على وجوب الحلف على هذين الشاهدين من بعد الصلاة واجمع المسلمون على ان الشاهد المسلم لا يجب عليه الحلف ، فعلمنا ان هذين الشاهدين ليسا من المسلمين .

فقد روى الشعبي - رحمه الله - قائلا : مرض رجل من المسلمين في الغربة فلم يجد احدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، فقدما الكوفة واتيا أبا موسى الاشعري وكان واليا عليها فأخبراه بالواقعة وقدما تركته ووصيته قال ابو موسى : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد الرسول عليه السلام ثم حلفهما في مسجد الكوفة بعد العصر بالله انهما ماكذبا ولا بدلا واجاز شهادتهما (٢) .

وبهذا يتضح جليا ان لفظ (الشهادة) في قوله (شهادة بينكم) وان كان

---

(١) فتح القدير جـ/ ٢ ص/ ٨٦

(٢) التفسير الكبير جـ/ ١٢ ص/ ١١٤ - ١١٦ .

يقصد به الشهادة الحقيقية ، الا انه بالنسبة للحلف في هذه الشهادة يقصد به الكافرون لا المسلمون .

٢٤ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول مالي بحق ان كنت قلته فقد علمته)[1]

يقول تعالى - ذكره - : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) ، (اذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله) .

وقيل : ان الله قال هذا القول لعيسى حين رفعه اليه في الدنيا : ذكر من قال ذلك ، وذكر - أي ابن جرير - أثرا مرويا عن السدي في هذا المعنى

ثم قال : وقال آخرون : بل هذا خبر من الله تعالى ذكره عن أنه يقول لعيسى ذلك في القيامة . ذكر من قال ذلك ، وذكر ثلاثة آثار مروية عن ابن جريج وميسرة وقتادة في هذا المعنى .

ثم قال - ابن جرير - : وأولى القولين عندنا بالصواب في ذلك ، قول من قال بقول السدي وهو ان الله تعالى ذكره قال ذلك لعيسى حين رفعه اليه .

وان الخبر خبر عما مضى لعلتين :

احداهما : أن " اذ " انما تصاحب - في الاغلب من كلام العرب المستعمل بينهما - الماضي من الفعل ، وان كانت قد تدخلها احيانا في موضع الخبر عما يحدث اذا عرف السامعون معناها ، وذلك غير فاش ، ولا فصيح في

---

(١) سورة المائدة الآية/ ١١٦

كلامهم ، وتوجيه معاني كلام الله تعالى الى الاشهر الاعرف ما وجد اليه السبيل ، أولى من توجيهها الى الاجهل الانكر .

والاخرى : ان عيسى لم يشك هو ولا أحد من الانبياء . ان الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ...(١)

وهذا التفسير والتوجيه من قبل ابن جرير لم يرض بهما ابن كثير فقد استدرك عليه قائلا : وهذان الدليلان فيهما نظر ، لان كثيرا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ، ليدل على الوقوع والثبوت ... والذي قاله قتادة وغيره هو الاظهر ... ان ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الاشهاد يوم القيامة(٢) .

ومحل الخلاف بين الشيخين في تفسير هذه الاية الكريمة هو ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان هذه الاية مخاطب بها عيسى - عليه السلام - حين رفع الى السماء ، اي قبل يوم القيامة ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان هذا الخطاب سيكون يوم القيامة .

والذي يبدو لنا في هذا الموضوع هو أن ماذهب اليه ابن كثير في هذه الاية هو الاصوب ، وان هذا القول انما يكون في الاخرة ، لان بداية القصة تدل على ذلك وهي قوله تعالى : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب)(٣) . كما يدل على ذلك مابعدها وهي قوله تعالى : (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم)(٤)

---

(١) تفسير الطبري جـ/ ١١ ص/ ٢٣٢ - ٢٣٦

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ ص/ ٢٢٧

(٣) سورة المائدة الاية/ ١٠٩

(٤) " " " / ١١٩

هذا وقد ذهب جمهور المفسرين الى هذا الرأى :

قال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الاية : "المسألة الاولى" هذا معطوف على قوله "اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك" وعلى هذا القول فهذا الكلام انما يذكره لعيسى يوم القيامة ، ومنهم من قال : انه تعالى قال هذا الكلام لعيسى عليه السلام حين رفعه اليه وتعلق بظاهر قوله (واذ قال الله) واذ تستعمل للماضى . والقول الاول أصح ، لان الله تعالى عقب هذه القصة بقوله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) والمراد به يوم القيامة .(١)

وقال الامام الزمخشرى تأكيدا لهذا المعنى عند تفسيره لقوله تعالى : "قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم" : ما معنى قوله (ينفع الصادقين صدقهم) ؟ ان اريد صدقهم فى الاخرة فليست الاخرة بدار عمل ، وان أريد صدقهم فى الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه ، لانه فى معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة ؟

قلت : معناه الصدق المستمر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم ، ومن قتادة متكلمان تكلما يوم القيامة : اما ابليس فقال : (ان الله وعدكم وعد الحق) فصدق يومئذ وكان قبل ذلك كاذبا فلم ينفعه صدقه . وأما عيسى عليه السلام فكان صادقا فى الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه .(٢)

وقال الامام ابن جزى عند تفسيره للاية - واذ قال ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس : قال ابن عباس والجمهور : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ليبرئ الكفار تبرئة عيسى مما نسبوه اليه ، ويعلمون انهم كانوا على باطل ، وقال السدى لما رفع الله عيسى اليه قالت النصارى ، مافعلوا وزعموا ان عيسى امرهم بذلك ، وسأله الله حينئذ عن ذلك . فقال سبحانه الاية

---

(١) التفسير الكبير جـ/ ١٢ ص/ ١٣٤ .
(٢) الكشاف جـ/ ١ ص/ ٦٥٨ .

فعلى هذا يكون اذ قال ماضيا فى معناه كما هو فى لفظه ، وعلى قول ابن عباس يكون بمعنى المستقبل [1] .

وقال الامام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية : اختلف فى وقت هذه المقالة ، فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين : انما يقول له هذا يوم القيامة .

وقال السدى وقارب : قال ذلك حين رفعه الى السماء وقالت النصارى فيه ماقالت فان " اذ " فى كلام العرب لما مضى ، والأول أصح يدل عليه ماقبله من قوله (يوم يجمع الله الرسل ...) الآية ، كما يدل عليه مابعده وهو قوله :

(هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ...) .

وعلى هذا تكون اذ بمعنى اذا كما فى قوله (ولو ترى اذ فزعوا فلافوت) أى اذا فزعوا ... فعبر عن المستقبل بلفظ الماضى ، لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه كأنه قد وقع [2] .

وقال الامام الشوكانى عند تفسيره لهذه الآية : وقد ذهب جمهور المفسرين الى ان هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة ، والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى ، وقال السدى وقارب : انه قال له هذا القول عند رفعه الى السماء لما قالت النصارى فيه ماقالت ، والأول أولى [3] .

ومن كل ماسبق يتبين لنا أن ماذهب اليه ابن كثير هو الأقرب الى الصواب.

---

(١) كتاب التسهيل : جـ ١ / ص ١٩٤ .

(٢) تفسير القرطبى : جـ ٦ / ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٣) فتح القدير : جـ ٢ ص ٨٩ ، أنظر تفسير روح المعانى : جـ ٧ ص ٦٤ ، ومابعدها ، وتفسير أبى السعود جـ ٣ ص ١٠٠ ، وتفسير المنار جـ ٧ / ص ٢٦١ ، وفى ظلال القرآن : جـ ٣ / ص ٧٥ .

((ماورد فى سورة الأنعام))

===

٢٥ - يقول ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (ثم اتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شئ ...)[1] :

قال أبو جعفر : يعنى - جل ثناؤه - بقوله : " ثم آتينا موسى الكتاب " ، ثم قل بعد ذلك يا محمد : آتى ربك موسى الكتاب ، فترك ذكر " قل " اذ كان قد تقدم فى أول القصة مايدل على أنه مراد فيها وذلك قوله : " قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم " فقص ماحرم عليهم وأحل ، ثم قال : ثم قل : " آتينا موسى " فحذف " قل " لدلالة قوله : " قل " عليه ، وأنه مراد فى الكلام .

وانما قلنا : ذلك مراد فى الكلام ، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لا شك أنه بحث بعد موسى بدهر طويل ، وأنه انما أمر بتلاوة هذه الآيات على من أمر بتلاوتها عليه بعد مبعثه ، زمن لم يؤت الكتاب [illegible] ، بتلاوة [illegible] ، به نه ، ومعلوم أن موسى أوتى الكتاب من قبل أمر الله محمدا بتلاوة هذه الآيات على من أمر بتلاوتها عليه و " ثم " فى كلام العرب ، حرف يدل على أن مابعده من الكلام والخبر ، بعد الذى قبلها[2] .

وهذا الذى ذهب اليه ابن جرير فى تفسير الآية لم يرتضه ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : قال ابن جرير : (ثم آتينا موسى الكتاب)

---

(١) سورة الأنعام : الآية (١٥٤) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ١٢ / ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

تقديره : ثم قل يا محمد مخبرا عنا بأنا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) . .

قلت : وفي هذا نظر ، ثم هاهنا انما هي لعطف الخبر بعد الخبر لا الترتيب هاهنا ، كما قال الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ✻✻ ثم قد ساد قبل ذلك جده

وهاهنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله : (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) ، عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : (ثم آتينا موسى الكتاب) وكثيرا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى : (ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا)[1] ، وقوله أول هذه السورة : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثير . . .)[2] الآية وبعدها : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك . . .)[3] .

ويظهر من هذا ان ابن جرير يرى ان لفظ " ثم " يفيد الترتيب وهو معطوف على قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) بينما يرى ابن كثير ان لفظ " ثم " وان كان للعطف الا أنه لا يفيد الترتيب هنا بل هو لعطف الخبر بعد الخبر لا لعطف الانشاء على الانشاء كما جعله ابن جرير .

والذي يبدو : ان ما ذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب ، لأن كلمة (ثم) هنا لا تفيد الترتيب الزمني ، وانما تفيد عطف معنى على معنى

---

(١) سورة الأحقاف : الآية (١٢) .

(٢) سورة الأنعام : الآية (٩١) .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٣٦٢ .

فكأنه - سبحانه وتعالى - يقول : لقد بينت لكم فى هذه الوصايا مافيه صلاحكم ، ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونورا

ومع ان المفسرين قد ذكروا الرأيين وغيرهما الا أنهم جعلوا ماذهب اليه ابن كثير فى مقدمة أقوالهم .

قال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية : اعلم ان قوله (ثم آتينا ...) فيه وجوه :

الأول : التقديم : ثم انى أخبركم بعد تحديد المحرمات وغيرها من الأحكام ، انا آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة (ثم) لتأخير الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة .

ونظيره قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) .

والثانى : ان التكاليف التسعة المذكورة فى الآية المتقدمة التكليف لا يجوز اختلافها بحسب اختلاف الشرائع ، بل هى أحكام واجبة الثبوت من أول زمان التكليف الى قيام القيامة ، وأما الشرائع التى كانت التوبة مختصة بها فهى انما حدثت بعد ذلك التكاليف التسعة ، فتقدير الآية أنه تعالى لما ذكرها قال : ذلكم وصاكم به يابنى آدم قديما وحديثا ، ثم بعد ذلك آتينا موسى الكتاب .

الثالث : ان فيه حذفا تقديره : ثم قل يا محمد آنا آتينا موسى ، - فتقديره : اتل ما أوحى اليك ، ثم اتل عليهم خبر ما آتينا موسى (١) .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ١٤ / ص ٣ - ٤ .

وقال الامام الالوسي عند تفسيره لهذه الاية : قوله (ثم آتينا موسى الكتاب) كلام مستأنف مسوق من جهته - تعالى - تقريرا للوصية وتحقيقا لها وتمهيدا لما تعقبه من ذكر انزال القرآن المجيد كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى التكلم ، معطوف على مقدر يقتضيه المقام ، وتستوفيه النظام كأنه قيل بعد قوله (ذلكم وصاكم به) بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريرا لمضمونه ، فعلنا ذلك (ثم آتينا ...) .

وقيل عطف على (ذلكم وصاكم به) . وعند الزجاج أنه عطف على معنى التلاوة ، كأنه قيل : (قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم) ثم اتل عليهم ماآتاه الله موسى ، وقيل عطف على " قل " وفيه حذف أي قل تعالوا ثم قل آتينا موسى الكتاب (١) .

وقال الامام الشوكاني عند تفسيره لهذه الاية : هذا الكلام مسوق لتقرير التوصية التي وصى الله عباده بها ، وقد استشكل العطف بثم مع كون قصة موسى وايتائه الكتاب قبل المعطوف عليه ، وهو ماتقدم من قوله (ذلكم وصاكم به) فقيل ان ثم ههنا بمعنى الواو ، وقيل تقدير الكلام : ثم كما قد آتينا موسى الكتاب قبل انزالنا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل المعنى : قل تعالوا اتل ماحرم ربكم عليكم ، ثم اتل ايتاء موسى الكتاب .

وقيل : ان التوصية المعطوف عليها قديمة لم يزل كل نبي يوصي بها امته . وقيل : ان ثم للتراخي في الاخبار كما تقول : بلغني ماصنعت اليوم ثم ماصنعت بالامس أعجب (٢) .

---

(١) روح المعاني جـ/٨ ص/٥٩

(٢) فتح القدير جـ/٢ ص/١٧٩ - ١٨٠ .

وهكذا يتبين بعد هذه النقول بأن الاية وان كانت تحتمل كلا الرأيين اللذين ذهب اليهما الشيخان الا أننا نرى ان ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - أقرب الى الصواب ، لانه المتبادر من معنى العطف ومن السياق القرآني ، اذ ان كلمة "ثم" هنا لا تفيد الترتيب الزمني وانما تفيد عطف معنى على معنى كما اشرت الى ذلك من قبل .

ما ورد في سورة الاعراف

=== * ===

٢٦ - قال ابن جرير عند قوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) (١) .

يقول تعالى - ذكره - : أقسم يا محمد ، لقد جئنا هؤلاء الكفرة بكتاب ، يعني القرآن الذي أنزله اليه . يقول : لقد أنزلنا اليهم هذا القرآن ، مفصلا مبينا فيه الحق من الباطل ، "على علم" ، يقول : على علم منا بحق ما فصل فيه ، من الباطل الذي ميز فيه بينه وبين الحق "هدى ورحمة" يقول : بيناه ليهدي ويرحم به قوم يصدقون به ، وبما فيه من أمر الله ونهيه ، واخباره ، ووحده ووعيده ، فينقذهم به من الضلالة الى الهدى .

وهذه الاية مردودة على قوله : (كتاب أنزلناه اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين - سورة الاعراف الاية/ ٢ - "ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم" (٢) .

وهذا القول الاخير لم يقبله ابن كثير واستدرك قائلا :

وهذا الذي قاله فيه نظر ، فانه قد طال الفصل ، ولا دليل على ذلك وانما لما أخبر عما صاروا اليه من الخسار في الدار الاخرة ، ذكر انه قد أزاح - عللهم في الدار الدنيا ، بارسال الرسل وانزال الكتب ، كقوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٣) ، ولهذا قال : (هل ينظرون الا تأويله) أي : ماوعد من العذاب والنكال والجنة والنار . قاله مجاهد وغير واحد (٤) .

---

(١) سورة الاعراف الاية/ ٥٢

(٢) تفسير الطبري جـ/ ١٢ صـ/ ٤٧٧

(٣) سورة الاسراء الاية/ ١٥

(٤) تفسير ابن كثير جـ/ ٣ صـ/ ٤٢١ .

قلت : استدراك ابن كثير على ابن جرير فى هذه المسألة فى محلـــــه ولم أجد احدا من المفسرين التفت الى قول ابن جرير هذا ، لان بين هـــذه الاية والاية التى فى أول هذه السورة قضايا كثيرة تجعل تفسير ابن جرير هـــذا بعيدا لطول الفصل بين هذه وتلك ، وتفسير الاية كما قال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لهـــا :

اعلم انه تعالى لما شرح أحوال اهل الجنة ، وأهل النار ، وأهـــل الاعراف ، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصـــير سماع تلك المناظرات حاملا للمكلف على الحذر والاحتراز ، وداعيا له الى النظر والاستدلال ، بين شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته ، فقال (ولقـــد جئناهم بكتاب) وهو القرآن (فصلناه) اى ميزنا بعضه عن بعض ، تمييزا يهدى الى الرشد ويؤمن من الخلل والخبط ... (١) .

ومع هذا ، فلا نرى بأسا فيما ذهب اليه ابن جرير ، ان كان مـــراده من كلمة مردودة أى مؤكده لما جاء فى مطلع السورة من مدح القرآن الكريم أو بيان وظيفته .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ١٤ / ص ٩٤ .

٢٧ - قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى : (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين)[1] :

يقول تعالى ذكره : (واذكر) أيها المستمع المنصت للقرآن اذا قرئ فى صلاة أو خطبة (ربك فى نفسك) يقول : اتعظ بما فى آى القرآن واعتبر بها وتذكر معاد ك اليه عند سماعك له (تضرعا) يقول : افعل ذلك تخشعا لله وتواضعا له ...[2]

وقد رد ابن كثير ما ذهب اليه ابن جرير فى تفسير هذه الآية بقوله : زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم قبله : ان المراد بهذه الآية أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ، وهذا بعيد مناف للانصات المأمور به ، ثم المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم ، أو الصلاة والخطبة ، ومعلوم ان الانصات اذ ذاك أفضل من الذكر باللسان ، سواء كان سرا أو جهرا ، فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين[3] .

ومحل الخلاف بينهما هو ان ابن جرير يرى ان هذه الآية الكريمة تدل على جواز الذكر فى اثناء الصلاة - تابعا اذا كان المصلى مأموما - كما يجوز ذلك فى اثناء الخطابة ، بينما يرى ابن كثير عكس ذلك أى السكوت والانصات فى اثناء الصلاة والخطبة .

---

(١) سورة الأعراف : الآية (٢٠٥) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ١٣ / ص ٣٥٣ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٢ / ص ٥٤٤ .

والذى يظهر لنا فى ذلك هو أن رأى ابن كثير هنا أقرب الى الصواب بدليل ان الآية قبلها تأمر بالسكوت عند سماع قراءة القرآن وهى قوله تعالى : (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون)[1] .

الأنصات : هو السكوت مع الاصغاء اليه[2] ، المعروف ان الاشتغال بالذكر - ولو كان قلبيا - يمنع من الاستماع المأمور فى الآية .

قال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لقوله تعالى (واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا ... الآية) : لا شك ان قوله (فاستمعوا له وانصتوا) أمره ، وظاهر الأمر للوجوب ، فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبا[3] .

وقد قيل ان هذه الآية نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة ، قال أبوهريرة كانوا يتكلمون فى الصلاة فنزلت هذه الآية ، وأمروا بالانصات ، وقال قتادة كان الرجل يأتى وهم فى الصلاة فيسألهم ، كم صليتم وكم بقى ؟ وكانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأنزل الله تعالى هذه الآية[4] .

وقد أورد الامام البخارى وسلم حديثا تحت عنوان " باب الانصات يوم الجمعة فى الخطبة " عن سعيد بن المسيب ان أبا هريرة أخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اذا قلت لصاحبك انصت يوم الجمعة والامام يخطب

---

(١) سورة الاعراف : الآية (٢٠٤) .

(٢) تفسير البحر المحيط لابو حيان : جـ ٤ / ص ٤٥٢ .

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى : جـ ١٥ / ص ١٠٢ .

(٤) التفسير الكبير : جـ ١٥ / ص ١٠٢ .

فقد لغـوت "[1] .

وقال الامام الرازى - أيضا - عند قوله (واذكر ربك فى نفسك ..) : المعنى ان يذكر ربه على وجه يسمح نفسه ، فالمراد حصول الذكر اللسانـى والذكر اللسانى اذا كان بحيث يسمح نفسه ، فانه يتأثر الخيال من ذلك - الذكر وتأثر الخيال يوجب قوة فى الذكر القلبى الروحانى ... الى أن قال انه يجب أن يكون الذكر حاصلا فى كل الأوقات ... وان لا يخفل الانسان لحظة واحدة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية والقـوة الانسانية[2] .

وقال الامام الزمخشرى عند تفسيره للآية : هو عام فى الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك (تضرعا وخفية) متضرعا وخائفا (ودون الجهر) ومتكلما كلاما دون الجهر ، لأن الاخفاء ادخل فى الاخلاص واقرب الى حسن التفكر[3] .

وقال ابن جزى عند تفسيره للآية : (واذكر ربك فى نفسك) يحتمل أن يريد الذكر بالقلب دون اللسان أو الذكر باللسان سرا ، فعلى الأول ان يكون قوله (ودون الجهر من القول) عطف تفاير أى حالة أخرى ، وعلـى الثانى يكون بيانا وتفسيرا للأول[4] .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب الجمعة " باب الانصات يوم الجمعة والامـام يخطب " جـ ١ / ص ١١٩ ، وصحيح مسلم - كتاب الجمعة " باب فى الانصات يوم الجمعة فى الخطبة " .

(٢) التفسير الكبير : جـ ١٥ / ص ١٠٢ - ١٠٩ .

(٣) تفسير الكشاف : جـ ٢ / ص ١٤٠ .

(٤) التسهيل : جـ ٢ / ص ٦٠ .

واعتبر الامام القرطبي والشوكاني - رحمهما الله - ان الآية يقصد بها في الدعاء [1] .

قلت : وأن هذا الدعاء يكون باللسان بدليل قوله تعالى (ودون الجهر من القول) . .

لأن معناه : ومتكلما كلاما دون الجهر ، وهذا - طبعا - ينافي الانصات التي في الآية قبلها .

ومن هنا يتضح وجاهة رأي ابن كثير - رحمه الله - وهو ان تـــرك الذكر اثناء الصلاة واثناء خطبة الجمعة أفضل وأصوب .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي : جـ ٧ / ص ٣٥٥ ، وفتح القدير : جـ ٢ / ص ٢٨٠ .

ما ورد في سورة يونس

=== * ===

٢٨ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : " فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين "(١)

يقول تعالى ذكره : فلم يؤمن لموسى مع ما آتاهم به من الحجج والادلة الا ذرية من قومه خائفين من فرعون وملئهم .

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الذرية في هذا الموضع ، فقال بعضهم : الذرية في هذا الموضع : القليل ، ذكر من قال ذلك وذكر - أي ابن جرير - الاثرين عن قتادة وعن الضحاك في هذا المعنى .

ثم قال وقال آخرون : معنى ذلك : فما آمن لموسى الا ذرية من أرسل اليه موسى من بني اسرائيل لطول الزمان لان الاباء ماتوا وبقي الابناء فقيل لهم ذرية ، لانهم كانوا ذرية من هلك ممن أرسل اليهم موسى عليه السلام ، ذكر من قال ذلك ، وذكر أربعة آثار عن مجاهد والاعمش في هذا المعنى .

ثم قال وقال آخرون : بل معنى ذلك : فما آمن لموسى الا ذرية من قوم فرعون ، ذكر من قال ذلك ، وذكر أثرا واحدا عن ابن عباس ثم قال وقد روى عن ابن عباس خبر يدل على خلاف هذا القول ، وذلك ما حدثني به المثنى ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية عن علي ، عن ابن عباس ، قوله (ذرية من قومه) يقول : بني اسرائيل فهذا الخبر ينبيء عنه أنه كان يرى ان الذرية في هذا الموضع هم بنو اسرائيل دون غيرهم من قوم فرعون .

---

(١) سورة يونس الاية / ٨٣

ثم قال - أى ابن جرير - وأولى هذه الاقوال عندى بتأويل الايـــة القول الذى ذكرته عن مجاهد ، وهو ان الذرية فى هذا الموضع أريد بها ذرية من أرسل اليه موسى من بنى اسرائيل ، فهلكوا قبل أن يقروا بنبوتـه لطول الزمان ، فأدركت ذريتهم فآمن منهم من ذكر الله بموسى .

وانما قلت : هذا القول أولى بالصواب فى ذلك لانه لم يجر فى هـذه الاية ذكر لغير موسى ، فان تكون الهاء فى قوله من قومه من ذكر موســى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون لبعد ذكره منها ، اذ لـم يكن بخلاف ذلك دليل من خبر ولا نظر (١) .

وهذا الترجيح من قبل ابن جرير فى تفسير هذه الاية الكريمة لم يقبلـه ابن كثير فقد استدرك عليه بقوله : واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية انها من بنى اسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكوريـــن وفى هذا نظار ، لانه أراد بالذرية الاحداث والشباب وأنهم من بنى اسرائيل فالمعروف أن بنى اسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وان الله تعالـى سينقذهم به من أسر فرعون وبظهورهم عليه ، ولهذا لما بلغ فرعون حذر كـل الحذر فلم يجد منه شيئا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الاذى ، - و(قالوا أوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ماجئتنا ، قال : عسى ربكـم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون) (٢) .

واذا تقرر هذا فكيف يكون المراد الا ذرية من قوم موسى وهم بنو اسرائيل (٣)

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ١١ ص/ ١٤٩ - ١٥٠

(٢) ســورة الاعــراف الايــة/ ١٢٩

(٣) تفسير ابن كثير جـ/ ٤ ص/ ٢٢٢ - ٢٢٣

ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير يرى ان كلمة " الذرية " في الاية الكريمة يقصد بها ذرية بني اسرائيل الذين أرسل اليهم موسى عليه السلام بينما يرى ابن كثير ان الكلمة قصد بها ذرية من قوم فرعون .

والذي يبدو لنا هو ان رأي ابن جرير أقرب الى الصواب ، لان الضمير في " قومه " - كما قال - عائد على موسى وانه لا يعود على فرعون لان موسى هو المحدث عنه في هذه الاية وهو أقرب مذكور ، ولانه لو كان عائدا على فرعون لم يظهر لفظ فرعون ، وكان التركيب : على خوف منه ومن ملائهم ان يفتنهم كما ذكر ذلك ابو حيان (١) .

وقد ذهب الى هذا الرأي جمهور المفسرين :

قال الامام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الاية : واما الضمير في قوله " من قومه " فقد اختلفوا ان المراد من قوم موسى ، ام من قوم فرعون لان ذكرهما جميعا قد تقدم والاظهر انه عائد الى موسى ، لانه أقرب المذكورين ، ولانه نقل ان الذين آمنوا به كانوا من بني اسرائيل (٢) .

وقال ابن جزي عند تفسيره للاية : الضمير عائد على موسى ومعنى الذرية شبان وفتيان من بني اسرائيل آمنوا على خوف من فرعون ، وقيل ان الضمير عائد على فرعون ، فالذرية على هذا من قوم فرعون ، وروى في هذا انها امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وهذا بعيد ، لان هؤلاء لا يقال لهم ذرية ، ولان الضمير ينبغي ان يعود على أقرب مذكور (٣) .

---

(١) . انظر : البحر المحيط جـ/ ٥ صـ/ ١٨٣

(٢) التفسير الكبير جـ/ ١٧ صـ/ ١٤٤

(٣) التسهيل جـ/ ٢ صـ/ ٧٠٠

وقال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الاية : الهاء عائدة على موسى قال مجاهد أي لم يؤمن منهم أحد ، وانما آمن اولاد من ارسل موسى اليهم من بني اسرائيل لطول الزمان هلك الاباء وبقي الابناء فآمنوا (١) .

وقال سيد قطب عند تفسيره للاية : ويفيد هذا النص ان الذين أظهروا ايمانهم وانضمامهم لموسى من بني اسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الاسرائيلي ، وان هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم ورد هم عن اتباع موسى ، خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذو المصالح عند أصحاب السلطان ، والاذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من اسرائيل وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كان مسرفا في الطغيان لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من اجراء قاس (٢)

وقال ابن عاشور عند تفسيره للاية : تفريع على ما تقدم من المحاورة اى فتفرع على ذلك ان فرعون وملأه لم يؤمنوا بموسى لان حصر المؤمنين في ذرية من قوم موسى يفيد ان غيرهم لم يؤمنوا وهو المقصود ، فكانت صيغة القصر في هذا المقام ايجاز ، والتقدير : تفرع على ذلك تصميم على الاعراض (٣) .

وبهذا يتبين ان ما ذهب اليه ابن جرير في هذه المسألة أولى بالقبول

---

(١) تفسير القرطبي جـ/٨ ص/٣٦٩ ، وانظر فتح القدير للشوكاني جـ/٢ ص ٤٦٦ .

(٢) في ظلال القرآن جـ/٤ ص/٤٦٨

(٣) تفسير التحرير والتنوير جـ/١١ ص/٢٥٨

ما ورد في سورة يوسف

=== * ===

٢٩ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : "قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل ان يأتيكما ذلكما مما علمني ربي ، اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة كافرون "(١)

فان قال قائل : ما وجه هذا الخبر ومعناه من يوسف ، واين جواب الفتيين عما سألاه من تعبير رؤياهما من هذا الكلام ؟

قيل له : ان يوسف كره ان يجيبهما عن تأويل رؤياهما لما علم من مكروه ذلك على احدهما ، فأعرض عن ذكره ، وأخذ في غيره ليعرضا عن مسألته الجواب بما سألاه من ذلك(٢) .

وقد استدرك ابن كثير على ابن جرير في هذه المسألة بقوله :

وقد قال ابن جرير : انما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا الى هذا لانه عرف أنها ضارة لاحدهما ، فأحب ان يشغلهما بغير ذلك ، لئلا يعاودوه فيها فعاودوه ، فأعاد عليهم الموعظة . وفي هذا الذي قاله نظر لانه قد وعدهما أولا بتعبيرها ، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببا الى دعائهما الى التوحيد والاسلام لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والاقبال عليه والانصات اليه ، ولهذا لما فرغ من دعوتهما ، شرع في تعبير رؤياهما ، من غير تكرار سؤال فقال : -

(ياصاحبي السجن اما احدكما ...)(٣) .

---

(١) سورة يوسف الاية/ ٣٧

(٢) تفسير الطبري ج/ ١٢ ص/ ٢١٧

(٣) تفسير ابن كثير ج/ ٤ ص/ ٣١٦

ونقطة الخلاف بين الشيخين هى : سبب عدول يوسف عليه السلام عن الجواب عما سألاه عنه ، ويرى ابن جرير ان سبب ذلك معرفة يوسف عليه السلام بأن أحدهما سيقتل بينما يرى ابن كثير ان سبب ذلك اغتنام الفرصة للدعوة الى الله سبحانه وتعالى .

والذى يظهر هو ان ماذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب ، لأن سياق الآية يؤيده ، حيث أقر لهما بأنه سيخبرهما حتى عن الطعام الذى يأتيهما قبل ان يرياه ، ثم ان يوسف عليه السلام لم يكن بهمه تعبير الرؤيا أكثر مما يهمه الوعظ والتعليم عند سنوح الفرصة ، فلذا ابتدأ بما هو أهم فى نظره .

ولقد جرى كثير من المفسرين على رأى ابن كثير هذا ، فقد قال الامام الزمخشرى عند تفسيره لهذه الآية : لما استعبراه ووصفاه بالاحسان ، افترض ذلك فوصف يوسف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام فى السجن قبل أن يأتيهما ويصف لهما ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجد انه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصا الى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه لهما ويقبح اليهما الشرك بالله وهذه طريقة كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة اذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والارشاد والموعظة والنصيحة أولا ، ويدعوه الى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بعد ذلك .

وقال الامام الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : وكأنه عليه السلام أراد أن يعرض عليهما التوحيد ويزينه لهما ويقبح لهما الشرك بالله - تعالى -

---

(١) الكشاف : جـ ٢ / ص ٣٢٠ .

قبل أن يجيبهما عما سألاه من تعبير رؤياهما ثم يجيبهما عن ذلك وهـذه طريقة على كل ذى عقل أن يسلكها ... ولعل ذلك كان مفترضا عليه عليه السلام فوصف نفسه أولا بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالمغيبات وجعله تمهيدا لما أراد كالتخلصات المعروفة عندهم فان الاخبار بالغيب يناسب ماسألاه من تأويل رؤياهما وان من كان هكذا لا محال يكون بغيره صادقا ، ويقوى أمر المناسبة تخصيص الطعام بالذكر من بين سائر المغيبات كما لا يخفى ، ويناسب ما اراده من الدعوة الى التوحيد لأنه ثبت صدقه ونبوته وكونه من المرتضين عند الله - تعالى - الصادقين فى أقوالهم وأفعالهم ، وفى حكاية الله - تعالى - ذلك ارشاد لمن كان له قلب ..[1]

وقال صاحب المنار عند تفسيره لهذه الآية : افترض يوسف عليه السلام ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله واصغائهما لقوله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من فى السجن فحقق قوله (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه)[2] .

وقال ابن عاشور عند تفسيره للآية : أراد بهذا الجواب أن يفترض اقبالهما عليه وملازمة الحديث معه اذ هما يترقبان تعبيره الرؤيا فيدمج فى ذلك دعوتهما الى الايمان الصحيح مع الوعد بأن يعبر لهما رؤياهما غير بعيد[3] .

---

(١) روح المعانى : جـ ١٢ / ص ٢٤٠ .

(٢) تفسير المنار : جـ ١٢ / ص ٣٠٤ .

(٣) تفسير التحرير والتنوير : جـ ١٢ / ص ٢٧٠ .

وهكذا يتبين أن ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - فى هـذه المسألة أقرب الى الصواب ، لأن يوسف - عليه السلام - أراد أن يفتـح قلب صاحبيه فى السجن على وحدانية الله - تعالى - بطريقة مشوقـة ولأنه قد فسر لهما الرؤيا بعد ذلك مباشرة عندما قال لهما - كما حكى القرآن عنه - : (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمـرا وأما الأخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان)

فسر لهما الرؤيا بدون تحرج أو تخوف ، ولكن بعد ان دعاهمـا الى اخلاص العبادة لله ، لأن هذه الدعوة فى نظره - عليه السلام - هى الأولى من غيرها .

٣٠ - قال ابن جرير عند قوله تعالى: (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ...)[1] الآية :

يقول جل ثناؤه: فلما دخل يعقوب وولده وأهلوهم على يوسف (آوى إليه أبويه) يقول: ضم إليه أبويه، فقال لهم[2]: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ، فإن قال قائل[3]: وكيف قال لهم يوسف: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) بعد أن دخلوها، وقد أخبر الله عز وجل عنهم أنهم لما دخلوها على يوسف، وضم إليه أبويه قال لهم هذا القول[4]؟ قيل: قد اختلف أهل التأويل في ذلك ... والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي في ذلك، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولاده هنا وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين

(١) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير: ٢ / ٤٠٠.

(٣) انظر: معاني القرآن، باب: تأخير ما حقه التقديم، تأليف الفراء: ٢ / ٧٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٢ / ٢١٠، وتفسير ابن كثير: ٢ / ٤٠٠.

((ما ورد في سورة ابراهيم))

٣١ - يقول ابن جرير - رحمه الله - عند قوله تعالى : (ألم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به ... ، الآية)[1] .

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل موسى لقومه : ياقوم (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ...)[2] .

هذا الاتجاه الذي سلكه ابن جرير في تفسير هذه الآية لم يقبله ابن كثير ، فقد قال عند تفسير الآية : قال ابن جرير : هذا من تمام قول موسى لقومه يعني : وتذكيره اياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فانه قد قيل : ان قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم ذلك ، فلا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة[3] .

ومما نقلناه عن الشيخين يظهر ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان الآية خطاب من موسى عليه السلام لقومه بني اسرائيل وهو داخل تحت التذكير بأيام الله بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان الآية مستقلة عما قبلها ويقصد بها هذه الأمة . أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة ابراهيم : الآية (٩) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ١٣ / ص ١٨٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ٤٠٠ .

وأما استدلال ابن كثير بأن القصة ليست في التوراة ، فلا ينهض دليلا ، لأكثيرا من الحقائق التي وردت في القرآن الكريم والتي تتعلق بالأنبياء بوجه عام وبأنبياء بني اسرائيل بوجه خاص لم ترد في التوراة ولا في الانجيل . .

مثل كيفية ولادة عيسى عليه السلام وكلامه في المهد ، وغير ذلك من الحقائق الموجودة في كتابنا العزيز ، ولقد اتفق جميع المؤرخين على ان المذكورين في الآية جاءوا قبل موسى عليه السلام . أي قوم نوح وعاد (هود) وثمود (صالح) .

((ما ورد في سورة الحجر))

== * ==

٣٢ - قال ابن جرير عند قوله تعالى : (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)[1] : يقول الله تعالى ذكره : لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر يا محمد (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فاذا سويته) يقول : فاذا صورته فعدلت صورته (ونفخت فيه من روحى) فصار بشرا حيا (فقعوا له ساجدين) سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة .

وقد حدثني جعفر بن مكرم ، قال : ثنا أبو عاصم ، قال : ثنا شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما خلق الله الملائكة قال : انى خالق بشرا من طين ، فاذا أنا خلقته فاسجدوا له ، فقالوا لا نفعل فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم ، وخلق ملائكة أخرى ، فقال : انى خالق بشرا من طين ، فاذا أنا خلقته فاسجدوا له ، فأبوا ، قال : فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة أخرى ، فقال : انى خالق بشرا من طين ، فاذا أنا خلقته فاسجدوا له ، فأبوا ، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة ، فقال : انى خالق بشرا من طين ، فاذا انا خلقته فاسجدوا له ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ، الا ابليس كان من الكافرين الأولين[2] .

هذا وقد استدرك ابن كثير على هذا الأثر - بعد أن ساقه عن ابن جرير - بقوله : وفى ثبوت هذا عنه بعد ، والظاهر أنه اسرائيلى[3] .

---

(١) سورة الحجرات : الآية (٢٩) .
(٢) تفسير الطبرى : جـ ١٤ / ص ٣١ .
(٣) تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ٤٥٢ .

قلت : ولا شك أن هذه الرواية من الاسرائيليات - كما قال ابن كثير رحمه الله - لأنها تخالف ماجاء عن الله سبحانه وتعالى فى تنزيه ملائكته الكرام بقوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون) (١) .

وأما قوله فى الأثر (الا ابليس ...) فيفهم منه ان ابليس كان من الملائكة ، والذى عليه المحققون ان ابليس ليس من الملائكة بدليل قوله تعالى : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) (٢) .

وبما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلقت الملائكة من نور ، وخلق ابليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم (٣) .

---

(١) سورة التحريم : الآية (٦) .

(٢) سورة الاعراف : الآية (١٢) .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق : جـ ٤ / ص ٢٢٩٤ .

((ما ورد في سورة الاسراء))

== * ==

٣٣ - يقول ابن جرير عند قوله تعالى (نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا)[1] :

كان بعض أهل العربية من أهل البصرة يذهب بقوله (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) الى معنى : ما تتبعون الا رجلا له سحر أى له رئة والعرب تسمى الرئة سحرا ، والسحر من قولهم للرجل اذا جبن : قد انتفخ سحره ، وكذلك يقال لكل ما أكل أو شرب من آدمي وغيره مسحورا ومسحر كما قال لبيد :

فان تسألينا فيم نحن فاننا ** عصافير من هذا الأنام المسحّر

وقال آخرون : ونسحر بالطعام وبالشراب .

أى نغذى بهما ، فكأن معناه عنده كان : ان تتبعون الا رجلا له رئة يأكل الطعام ، ويشرب الشراب ، لا ملكا لا حاجة له الى الطعام والشراب ، والذى قال من ذلك غير بعيد من الصواب[2] .

وهذا التصويب من قبل ابن جرير لم يقبله ابن كثير فقد قال : بعد أن أورد هذا المعنى الثاني - : وقد صوب هذا القول ابن جرير وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استحموه من الكلام الذى يتلوه ، ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر . .

---

(١) سورة الاسرائيل : الآية ٤٧ - ٤٨ .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ١٥ / ص ٩٦ .

ولهذا قال تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فـــلا يستطيعون سبيلا) أى فلا يهتدون الى الحق ولا يجدون اليه مخلصا .(١)

ويظهر مما نقلناه عن الشيخين ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان قوله تعالى (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) معناه : ان تتبعون الا رجلا لـه رئة يأكل الطعام ويشرب الشراب ، بينما يرى ابن كثـــير - رحمه الله - أن الآية تفيد أنه مسحور لـه رئى يأتيه بما استحموه من الكلام الذى يتلوه .

والذى نراه هو ان لفظ (مسحورا) وان كان يحتمل كلا المعنيين من حيث اللغة الا ان ماذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب ويدل عليه كذلك قوله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الامثال) ، لأنهم لو اراد وا رجلا ذا رئة ، لم يكن فى ذلك مثل ضربوه ، فلما اراد وا أنـه مسحور بالسحر كان مثلا ضربوه ، وكأنهم ذهبوا الى ان جنا أو قوما يحملونه ويخدعونـه لـذا قال تعالى (انظر كيف ضربو لك الامثال) ، أى بينوا لك الاشباه حتى شبهوك بالساحروالشاعر والمجنون (فضلوا) عن الحق (فلايستطيعون سبيلا) أى لا يجدون سبيلا الى تصحيح مايصيبونك بـه .

وقد ذهب جمهور المفسرين الى هذا المعنى ، فقد قال الامام الفخر الرازى عند الآية : والمسحور الذى سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حـــد الاستواء ، هذا هو القول الصحيح .(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ٨١ .

(٢) التفسير الكبير : جـ ٢٠ / ص ٢٢٣ .

وقال ابن جزى : (رجلا مسحورا) معناه : جن فسحر ، وقيل معناه : ساحر ، وقيل هو من السحر بفتح السين وهى الرئة : أى - بشر اذا سحر مثلكم وهذا بعيد [1] .

وقال الامام الآلوسى : (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) أى سحر فجن فهو كقولهم ان هو الا رجل مجنون ، وقيل جعل له سحر يتوصل بلطافه ودقته الى مايأتى به ويدعيه فهو فى معنى قولهم ساحر ، وجعل بعضهم مسحورا بمعنى ساحرا كمستور بمعنى ساترا .

وعن أبى عبيدة ان مسحورا بمعنى جعل له سحر أو ذا سحر أى رئة ومن هذا قول امرىء القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب

أراد نغذى . . وقول لبيد أو أمية بن أبى الصلت :

فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الأنام المسحر

وكنوا بذلك عن كونه بشرا يتنفس ويأكل ويشرب لا يمتاز عنهم بشىء يقتضى اتباعه على زعمهم الفاسد ، ولا يخفى مافيه من البعد حتى قال ابن قتيبة : لا أدرى مالذى حمل ابا عبيدة على هذا التفسير المستكره مع ان السلف فسروه بالوجوه الواضحة ، وقال ابن عطية أنه لا يناسب قوله تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الامثال) أى مثلوك فقالوا تارة شاعر ، وتارة ساحر وتارة مجنون مع علمهم بخلافه [2] فضلوا) فى جميع ذلك عن منهاج المحاجه

ثم ان ابن جرير نفسه قد فسر نفس اللفظ فى بعض الأماكن فى تفسيره بنفس المعنى .

---

(١) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل : جـ ٢ / ص ١٧٢ .

(٢) روح المعانى : جـ ١٥ / ص ٧٣ - ٨٤ .

فقد قال عند تفسيره لقوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا)[1]

يقول تعالى ذكره : ولقد آتينا موسى بن عمران تسع آيات بينات تبين لمن رآها أنها حجج لموسى شاهدة على صدقه وحقيقة نبوته ... فقال فرعون لموسى : انى لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر ، فهذه العجائب التى تفعلها من سحرك ، وقد يجوز أن يكون مراده انى لأظنك يا موسى ساحرا ، فوضع مفعول موضع فاعل .

كما قيل : انك مشئوم علينا وميمون ، وانما هو شائم ويامن ، وقد تأول بعضهم حجابا مستورا بمعنى حجابا ساترا ، والعرب قد تخرج فاعلا بلفظ مفعول كثيرا[2] .

وبعد هذه النقول يتضح لنا جليا ان ما ذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - أولى بالقبول .

---

(١) سورة الاسراء : الآية (١٠١) .

(٢) تفسير الطبرى : جـ ١٥ / ص ١٧٣ - ١٧٤ .

((ما ورد في سورة الكهف))

===

٣٤ - قال ابن جرير عند قوله تعالى (ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شئ سببا ، فأتبع سببا)[1] :

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ويسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن ذى القرنين ماكان شأنه ، وماكانت قصته ، فقل لهم سأتلو عليكم من خبره ذكرا ، يقول : سأقص عليكم منه خبرا .

وقد قيل : ان الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر ذى القرنين ، كانوا قوما من أهل الكتاب ... حدثنا به أبو كريب قال : ثنا زيد بن حباب عن أبو لهيعة ، قال : ثنى عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن شيخين من نجيب ، قال احدهما لصاحبه : انطلق بنا الى عقبة بن عامر نتحدث ، قالا : فأتياه فقالا : جيئنا لتحدثنا فقال : " كنت يوما أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت من عنده ، فلقيني قوم من أهل الكتاب ، فقالوا : نريد أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستأذن لنا عليه ، فدخلت عليه فأخبرته ،فقال : مالى ولهم مالى علم الا ماعلمني الله ، ثم قال : اسكب لى ماء ، فتوضأ ثم صلى ، قال : فما فرغ حتى عرفت السرور في وجهه ، ثم قال : أدخلهم على ، ومن رأيت من أصحابى فدخلوا فقاموا بين يديه ، فقال : ان شئتم سألتم فأخبرتكم عما تجدونه في كتابكم مكتوبا ، وان شئتم أخبرتكم ، قالوا :

---

(١) سورة الكهف : الآية (٨٥) .

بلى أخبرنا ، قال جئتم تسألونى عن ذى القرنين ، وما تجدونه فى كتابكم كان شابا من الروم ، فجاء فبنى مدينة مصر الاسكندرية ، فلما فرغ جاءه ملك فعلا به فى السماء ، فقال له ماترى ، فقال : أرى مدينتى ومدائن ثم علا به ، فقال : ماترى ؟ فقال : أرى مدينتى ، ثم علا به فقال : ماترى ؟ قال : أرى الأرض ، قال : فهذا اليم محيط بالدنيا ان الله بعثنى اليك تعلم الجاهل ، وتثبت العالم ، فأتى به السد وهو جبلان لينان يزلق عنهما كل شىء ، ثم مضى به حتى جاوز يأجوج ومأجوج ثم مضى به الى أمة أخرى ، وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج ثم مضى به حتى تطلع به أمة أخرى يقاتلون هؤلاء الذين وجوههم وجوه الكلاب ، ثم مضى حتى تطلع به هؤلاء الى أمة أخرى قد سماهم .(١)

وقد استدرك ابن كثير على ابن جرير فى نقله هذا الأثر بقوله :

وقد أورد ابن جرير هاهنا ، والاموى فى مغازيه ، حديثا اسنده وهو ضعيف ، عن عقبة بن عامر : ان نفرا من اليهود جاءوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء ، فكان فيما أخبرهم به : " أنه كان شابا من الروم ، وأنه بنى الاسكندرية وأنه علا به ملك فى السماء ، وذهب به الى السد ، ورأى أقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب ، وفيه طول ونكارة ، ورفعه لا يصح ، وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى اسرائيل .....

وفيه من النكارة أنه من الروم ، وانما الذى كان من الروم الاسكندر الثانى بن فيليبس المقدونى ، الذى توثخ به الروم ، فأما الأول فقد ذكره

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ١٦ / ص ٨ .

الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع ابراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه ، وكان معه الخضر عليه السلام ، وأما الثاني فهو اسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني ، وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف المشهور ، وهو الذي تؤرخ به من ملكته ملة الروم ، وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل ، كما ذكره الأزرقي وغيره ، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه ابراهيم عليه السلام وقرب الى الله قربانا ، وقد ذكرنا طرفا من أخباره في كتاب " البداية والنهاية " بما فيه كفاية (١) .

ومن هذا يتبين ان نقلة الخلاف بين الشيخين هي ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان ذا القرنين هو الاسكندر الرومي الذي كان قبل المسيح بثمانمائة سنة بينما يرى ابن كثير أن ذا القرنين هذا كان في عهد ابراهيم عليه السلام .

والذي نرجحه بل ونعتقده ان ذا القرنين ليس هو الشخص الذي تحدث عنه ابن جرير في تفسيره ، لأن الأثر الذي ساقه ضعيف كما ذكر ابن كثير . .

وكذلك قول ابن كثير بأن ذا القرنين كان في زمن الخليل فهذا القول لم يقم دليل مقنع على صحته ، اذ لم يرد حديث صحيح أو حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم يحدد لنا فيه الزمن الذي وجد فيه ذو القرنين .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٥ / ص ١٨٥ .

((ما ورد في سورة النمل))

===

٣٥ - قال ابن كثير - رحمه الله - عند قوله تعالى : (واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)[1] :

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل من مكة وقيل من غيرها ، فتكلم الناس على ذلك ، قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن علي رضي الله عنه : تكلمهم كلاما أي تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراساني : تكلمهم فتقول لهم : ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير ، وفي هذا القول نظر لا يخفى[2] .

هذا هو تفسير ابن كثير لهذه الآية وما نسبه الى ابن جرير - رحمه الله - فلنرجع الى ابن جرير نفسه لنسمع مايقول :

قال ابن جرير عند الآية : اختلفت القراء في قراءة قوله (تكلمهم) فقرأ ذلك عامة قراء الامصار (تكلمهم) بضم التاء وتشديد اللام بمعنى تخبرهم وتحدثهم ، وقرأه أبو زرعة بن عمرو (تكلمهم) بفتح التاء وتخفيف اللام بمعنى تسمهم ، والقراءة التي لا استجيز غيرها في ذلك مالطيه قراء الأمصار ، وبنحو الذي قلنا في ذلك ، قال أهل التأويل : ذكر من قال ذلك :

---

(١) سورة النمل : الآية (٨٢) .
(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٢٢٠ .

حدثنا علي قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثنا معاوية ، عن علي عن ابن عباس قوله (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) قال تحدثهم

حدثنا بشر قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة قوله (اخرجنا لهم دابة الأرض تكلمهم) وهي في بعض القراءة تحدثهم تقول لهم (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، قال : ثني حجاج عن جريج ، عن عطاء الخراساني عن ابن عباس ، في قوله (تكلمهم) قال : كلامها تنبئهم (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

وقوله (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والبصرة والشام (انّ النّاس) بكسر الالف من (ان) على وجه الابتداء بالخبر عن الناس أنهم كانوا بآياتنا لا يوقنون وهي وان كسرت في قراءة هؤلاء فان الكلام لها متناول ، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة وبعض أهل البصرة (أن الناس كانوا) بفتح أن بمعنى : تكلمهم بأن الناس ، فيكون حينئذ نصبا بوقوع الكلام عليها .

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى مستفيضتان في قراءة الأمصار ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب [1] .

وبعد نقل نص ماقاله ابن جرير - رحمه الله - يظهر أن ابن جرير يرى ان قوله تعالى (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) يجوز ان يكون من كلام الدابة ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان هذه الكلمة من كلام الله جل وعلا .

---

(١) تفسير الطبري : جـ ٢٠ / ص ١٦ .

والذى نراه هو أنه بعد تتبع أكثر التفاسير وجدنا أن غالبيـــة المفسرين مجمعون على أن قوله تعالى (ان الناس كانوا ...) يجـوز ان يكون من كلام الدابة[1] .

وأما قول البعض بأن قوله (بآياتنا) ينفى أن يكون من كلام الدابة[2] فقد رد بعض العلماء هذا القول بقولهم : ان قول الدابة حكاية لقول الله تعالى ، أو على معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده وأنها من خواص خلقه أضافت آيات الله الى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا ، انما هى خيل مولاه وبلاده[3] .

وعلى هذا نقول ان استدراك ابن كثير على ابن جرير فى تفسيـر هذه الآية ليس فى محله وان ماذهب اليه ابن جرير فى تفسير الآية ليس بعيدا عن الصواب . .

وأما ما ادعاه بعض الناس بأن هذه الدابة انسان لوصفها بالكلام[4] فبعيد ، لأن أقوال الصحابة والتابعين المتعلقة بهذه الدابة تنفى هذا الرأى .

---

(١) أنظر تفسير الكشاف : جـ ٣ /ص ١٦٠ ، والتفسير الكبير للفخر الرازى : جـ ٢٤ /ص ٢١٨ ، وتفسير القرطبى جـ ١٣ /ص ٢٣٧ ، وكتاب التسهيل لعلوم التنزيل : جـ ٣ /ص ١٠٠ - ١٠١ ، وحاشية العلامة الصاوى على تفسير الجلالين : جـ ٣ / ص ٢٠٥ .

(٢) أنظر الفتوحات الألهية ، المشهور بالجمل : جـ ٣ /ص ٣٢٨ .

(٣) انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٦٠ ، والتفسير الكبير جـ ٢٤ ص ٢١٨ ، وتفسير أبى السعود تحقيق عبد القادر أحمد عطا جـ ٤ /ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٤) انظر التفسير الواضح لمحمد محمود حجازى جـ ٢٠ /ص ١٣ ، الطبعـة الثالثة سنة ١٩٦٤م ، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة .

((ما ورد في سورة القصص))

==

٣٦ - قال ابن جرير عند قوله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون)[1] : يقول تعالى ذكره (وربك) يا محمد (يخلق مايشاء) أن يخلقه (ويختار) لولايته الخيرة من خلقه ، ومن سبقت له منه السعادة .

وانما قال جل ثناؤه (ويختار ماكان لهم الخيرة) والمعنى ماوصفت لأن المشركين كانوا فيما ذكر عنهم يختارون أموالهم ، فيجعلونها لآلهتهم فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وربك يا محمد يخلق مايشاء ان يخلقه ، ويختار للهداية والايمان والعمل الصالح من خلقه ماهو في سابق علمه أنه خيرتهم ، نظير ماكان من هؤلاء المشركين لآلهتهم خيار أموالهم ، فكذلك اختياري لنفسي واجتبائي لولايتي ، واصطفائي لخدمتي وطاعتي خيار مملكتي وخلقي ...

فاذا كان معنى ذلك كذلك ، فلا شك ان (ما) من قوله (ويختار ماكان لهم الخيرة) في موضع نصب بوقوع يختار عليها ، وأنها بمعنى الذي[2] .

وأما ابن كثير فلم يرتض رأي ابن جرير هذا فقال بعد تفسير الآية : وقد اختار ابن جرير أن (ما) ههنا بمعنى الذي تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة ، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره

---

(١) سورة القصص : الآية (٦٨) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢ / ص ٩٩ - ١٠٠ .

أيضا ، فان المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وانه لا نظير له فى ذلك ، ولهذا قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) أى من الاصنام والانداد التى لا تخلق ولا تختار شيئا [1] .

ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان لفظة " ما " فى قوله تعالى : (ويختار ماكان لهم الخيرة) يرى ابن جرير أنها موصولة بمعنى " الذى" بينما يرى ابن كثير أنها نافية .

والذى يظهر هو أنها نافية كما ذهب اليه ابن كثير ، لان هذه الاية شبيهة بقوله تعالى (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ...) [2] . وقد ذهب ابن جرير نفسه الى ان لفظة " ما " فى هذه الاية نافية اذ قال عند تفسيرها : يقول تعالى ذكره : لم يكن لمؤمن بالله ورسوله ، ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله فى أنفسهم قضاء ان يتخيروا من أمرهم غير الذى قضى فيهم ، ويخلفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيخصوهما ، ومن يعص الله ورسوله فيما أمر أو نهى (فقد ضل ضلالا مبينا ...) [3] .

هذا وقد ذهب أغلب المفسرين الى هذا المعنى ، فقال الامام الزمخشرى عند الاية (ويختار ماكان لهم الخيرة) المعنى : ان الخيرة لله تعالى فى أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٢٦١ .

(٢) سورة الاحزاب : الآية (٣٦) .

(٣) تفسير الطبرى : جـ ٢٢ / ص ١١ .

وقيل معناه : ويختار الذى لهم فيه الخيرة : أى يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم من قولهم فى الأمرين ليس فيهما خيرة لمختار (١) .

وقال الامام الفخر الرازى عند الآية : فى الآية وجهان :

الأول وهو الأحسن ان يكون تمام الوقف على قوله (ويختار) ويكون " ما " نفيا ، والمعنى (وربك يخلق مايشاء ويختار) ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم ان يختاروا على الله أن يفعل .

والثانى : أن يكون " ما " بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله (وربك يخلق مايشاء) ثم يقول (ويختار ماكان لهم الخيرة) (٢) .

وقال الامام محمد ابن جزى عند الآية : ما نافية والمعنى ماكان للعباد اختيار انما الاختيار والارادة لله وحده ، فالوقف على قوله ويختار .

وقيل ان ما مفعولة بيختار ، ومعنى الخيرة على هذا الخير والمصلحة وهذا يجرى على قول المعتزلة ، وذلك ضعيف لرفع الخيرة على أنها اسم كان ، ولو كانت ما مفعولة لكان اسم كان مضمرا يعود على ما ، وكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ، وقد اعتذر عن هذا من قال ان ما مفعولة بأن يقال تقدير الكلام : يختار ماكان لهم الخيرة فيه ثم حذف الجار والمجرور وهذا ضعيف (٣) .

---

(١) تفسير الكشاف : جـ ٣ / ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) التفسير الكبير : جـ ٢٥ / ص ١٠ .

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل : جـ ٣ / ص ١١٠ .

وقال الامام القاضي ناصر الدين البيضاوي عند الاية : (ماكان لهم الخيره) أي التخير كالطيرة بمعنى التطير وظاهره نفي الاختيار عنهم رأسا والامر كذلك عند التحقيق فان اختيار العباد مخلوق باختيار الله ضرورة لا اختيار لهم فيها (١) .

وقال الامام سليمان بن عمر الجمل عند الاية : لم يزل الناس يقولون ان الوقف على يختار والابتداء بما على أنها نافية وهو مذهب أهل السنة ، ونقل ذلك عن جماعة كأبي جعفر وغيره ، وان كونها موصولة متصلة بيختار مذهب المعتزلة (٢) .

وقال الامام محمد الشوكاني عند الاية : (وماكان لهم الخيرة) أي - التخير ، وقيل المراد من الاية انه ليس لاحد من خلق الله ان يختار بل الاختيار هو الى الله عز وجل ، وقيل ان هذه الاية جواب عن قولهم - لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقيل هذه الاية جواب عن اليهود حيث قالوا لو كان الرسول الى محمد غير جبريل لامنا به .

قال الزجاج : الوقف على "يختار" تام على ان ما نافية ، قال ويجوز ان تكون ما في موضع نصب بيختار ، والمعنى : ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة ، والصحيح الاول لاجماعهم على الوقف (٣) .

وقال الامام الالوسي عند الاية - بعد ماذكر اختلاف العلماء في تفسيرها : ويظهر لي في الاية غير ماذكر من الاوجه وهو أن يكون يختار مصروفا على يخلق والوقف عليه تام كما نص عليه غير واحد وهو من الاختيار

---

(١) تفسير البيضاوي جـ/ ٢ ص/ ١٠٦ طبعة المشهد الحسيني سنة ١٩٦٤م

(٢) الفتوحات الالهية جـ/ ٣ ص/ ٣٥٨

(٣) فتح القدير جـ/ ٤ ص/ ١٨٢ - ١٨٣

بمعنى الانتقاء والاصطفاء ، وكذا الخيرة بمعنى الاختيار بهذا المعنى والفعل متعد حذف مفعوله ثقة بدلالة ماقبله عليه أى ويختار مايشاء وتقديم المسند اليه فى كل من جانبى المعطوف والمعطوف عليه لافادة الحصر وجملة ماكان لهم الخيرة مؤكدة لما قبلها حيث تكفل الحصر بافادة النفى الذى تضمنته .

والكلام مسوق لتجهيل المشركين فى اختيارهم ماأشركوا . . . . . والمعنى : وربك لاغيره يخلق مايشاء خلقه ، وهو سبحانه دون غيره ينتقى ويصطفى مايشاء انتقاءه واصطفاءه . . . (١)

وقال الامام المراغى عند الاية (ماكان لهم الخيرة) أى ليس لهم ان يختاروا على الله شيئا ، وله الخيرة عليهم ، فله ان يرسل من يشاء رسولا بحسب مايعلمه من الحكمة والمصلحة دون ان يكون ذلك منوطا بمال أو جاه كما خيل الى بعض المشركين فقالوا : (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (٢) .

وبعد هذه النقول المستفيضة عن بعض كبار المفسرين يتضح جليا ان رأى ابن كثير فى تفسير هذه الاية أولى بالقبول ثم ان الملاحظ فى الامر هو ان المفسرين الذين ذكروا رأى ابن جرير ذكروه بصيغة التمريض مما يدل على انهم يرجحون ماذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - .

---

(١) روح المعانى جـ/ ٢٠ ص/ ٩١

(٢) تفسير المراغى جـ/ ١٨ ص/ ٨٦ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م مطبعة مصطفى البابى الحلبى /بمصر .

٣٧ - يقول ابن كثير عند قوله تعالى : (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ...) [1] الاية :

وقد اختلف النحاه في معنى قوله تعالى (ويكأن) ، فقال بعضهم معناها : " ويلك اعلم ان " ولكن خففت فقيل : " ويك" ودل فتح "أن" على حذف "اعلم" . وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر انه قوى ولا يشكل على ذلك الا كتابتها في المصاحف متصلة "ويكأن" ، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي ، والمرجع الى اللفظ العربي ... [2]

هذا مانسبه ابن كثير الى ابن جرير فلنرجع الى ابن جرير نفسه لنرى رأيه وقوله في ذلك :

يقول - أي ابن جرير - عند تفسيره لهذه الاية : يقول - تعالى ذكره - : وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس من الدنيا وغناه وكثرة ماله وما بسط له منها بالامس ، يعني قبل ان ينزل به مانزل من سخط الله وعقابه ، يقولون : ويكأن الله ...

اختلف في معنى (ويكأن الله) فأما قتادة ، فانه روى عنه في ذلك قولان : احدهما : ماحدثنا به ابن بشار ، قال : ثنا محمد بن خالد بن عثمة ، قال : ثنا سعيد بن بشير عن قتادة ، قال في قوله "ويكأنه" قال : الم تر أنه .....

والقول الاخر : ماحدثنا القاسم ، قال : ثنا الحسين قال : ثنا ابو سفيان عن معمر ، عن قتادة في قوله (ويكأن الله يبسط الرزق) قال :

---

(١) سورة القصص الاية / ٨١

(٢) تفسير ابن كثير جـ/ ٦ ص/ ٢٦٦ - ٢٦٨

أولم يعلم أن الله (ويكأنه) او لا يعلم انه .

وتأول هذا التأويل الذى ذكرناه عن قتادة فى ذلك أيضا بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة واستشهد لصحة تأويله ذلك كذلك بقول الشاعر :

سألتانى الطلاق أن رأتانى ** قل مالى قد جئتما بنكر

ويكأن من يكن له نشب ** يحسب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال بعض نحويى الكوفة : ويكأن فى كلام العرب تقرير ، كقول الرجل : أما ترى الى صنع الله واحسانه ، وذكر انه أخبره من سمع اعرابية تقول لزوجها : اين ابننا ، فقال : ويكأنه وراء البيت ، معناه : اما ترينه وراء البيت ؟ قال : وقد يذهب بها بعض النحويين الى انها كلمتان يريد ويك انه ، كأنه أراد ويلك فحذف اللام ، فتجعل " ان " مفتوحة بفعل مضمر ، كأنه قال : ويلك اعلم انه وراء البيت فأضمر اعلم .....

وقال آخرون : ان معنى قوله (ويكأن) : وى منفصلة من كأن كقولك للرجل : وى أما ترى مابين يديك ؟ فقال : وى ثم استأنف ، كأن الله يبسط الرزق ، وهى تعجب ، وكأن فى معنى الظن والعلم ، فهذا وجه يستقيم ، قال : ولم تكتبها العرب منفصلة ، ولو كانت على هذ الكتبوها منفصلة ، وقد يجوز ان تكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليست منه .

وقال آخر منهم : ان (وى) تنبيه ، وكأن حرف آخر غيره بمعنى : - لعل الامر كذا ، وأظن الامر كذا ، لان كأن بمنزلة أظن وأحسب واعلم .

وأولى الاقوال فى ذلك بالصحة ، القول الذى ذكرنا عن قتادة ، من ان معناه : ألم تر ان ، ألم تعلم ان للشاهد الذى ذكرنا فيه من قول الشاعر ، والرواية عن العرب ، وأن ويكأن فى خط المصحف حرف واحد ومتى وجه ذلك الى غير التأويل الذى ذكرنا عن قتادة ، فانه يصير حرفين وذلك

أنه اذا وجه الى قول من تأوله بمعنى : ويلك اعلم ان الله وجب ان يفصل "ويك" من "أن" وذلك خلاف خط جميع المصاحف مع فساده فى العربية لما ذكرنا ، وان وجه الى قول من يقول : "وى" بمعنى التنبيه ، ثم استأنف الكلام بكأن ، وجب ان يفصل "وى" من "كأن" ، وذلك أيضا خلاف خطوط المصاحف كلها ، فاذا كان ذلك خرقا واحدا ، فالصواب من التأويل ماقاله قتادة . وان كان ذلك هو الصواب فتأويل الكلام : وأصبح الذين تمنوا مكان قارون وموضعه من الدنيا بالامس يقولون لما عاينوا ماأحل الله به من نقمته ، ألم تر ياهذا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، لا لفضل منزلته عنده ، ولا لكرامته عليه ، كما كان بسط من ذلك لقارون لا لفضله ولا لكرامته عليه ...(١)

هذا ويتبين مما نقلناه عن الشيخين ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان لفظ (ويكأن) معناه : ألم تر ان أو ألم تعلم ان ، بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - أن معناه ويلك اعلم ان .

والذى يظهر - بعد الاطلاع على أقوال علماء اللغة والمفسرين - هو ان لفظ "ويكأن" يحتمل كلا المعنيين .

قال الامام الزمخشرى عند تفسيره لهذه الاية : (وى) مفصولة عن (كأن) وهى كلمة تنبيه على الخطأ وتندم ، ومعناه : ان القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم ...(٢)

وقال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الاية : اما قوله (ويكأن الله) فاعلم ان وى كلمة مفصولة عن كأن وهى كلمة مستعملة عند التنبيه للخطأ

---

(١) تفسير الطبرى جـ/ ٢٠ صـ/ ١٢٠ - ١٢٢

(٢) الكشاف جـ/ ٣ صـ/ ١٩٢

واظهار الندم ، فلما قالوا : (ياليت لنا مثل ماأوتى قارون) ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه ، بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة .

قال سيبويه : سألت الخليل عن هذا الحرف فقال : ان (وى) - مفصولة من كأن وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ماسلف منهم وى .

وذكر الفراء وجهين : أحدهما ان المعنى (ويلك) فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها فى الكلام وجعل (أن) مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال : ويلك اعلم أن الله . وهذا قول قطرب حكاه عن يونس .

الثانى : وى منفصلة من كأن وهو للتعجب ، يقول الرجل لغيره وى أما ترى مابين يديك فقال الله وى ثم استأنف كأن الله يبسط ، فالله - تعالى - انما ذكرها تعجيبا لخلقه .

قال الواحدى وهذا وجه مستقيم غير ان العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ماقالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الاولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه (١) .

وقال ابو حيان عند تفسيره لهذه الاية : ووى عند الخليل وسيبويه اسم فعل مثل صه ومه ومعناها أعجب ، قال الخليل وذلك ان القوم ندموا فقالوا متندمين على ماسلف منهم وى ، وكل من ندم فأظهر ندامته قال وى ، وكأن هى كاف التشبيه الداخلة على أن وكتبت متصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال .....

---

(١) التفسير الكبير جـ/ ٢٥ ص/ ١٩

وذهب الكسائي ويونس وابو حاتم وغيرهم الى ان أصله (ويـــــلك) فحذفت اللام ، والكاف في موضع جر بالاضافة .....

وقال أبو زيد وفرقه معه : (ويكأن) حرف واحد بجملته وهو بمعنى ألم تر (١) .

وقال القاسمي عند تفسيره لهذه الاية : وعندي أنها - ويكأن - مركبة من (وي) للتعجب و(كأن) التي للتحقيق وهو احد معانيها المعروفة والوقف على (وي) ولا يشكل على ذلك كتابتها في المصاحف متصلة ، لان الكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع الى اللفظ العربي (٢) .

وقال الامام الشوكاني عند تفسيره لهذه الاية (واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس) أي منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يقول كل واحد منهم متندما على مافرط منه من التمني .

قال النحاس : أحسن ماقيل في هذا ماقاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي ان القوم تنبهوا فقالوا : وي ، والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه وي (٣) .

هذا وبعد هذه النقول يتبين أن لفظ (ويكأن) تحتمل كلا المعنيين بل أكثر من المعنيين كما رأيت لذا نقول ان استدراك ابن كثير على ابن جرير في هذا الموضوع في محله ، لان تضعيف ابن جرير للاقوال الاخرى لـــم يستند الى دليل يعتمد عليه .

---

(١) البحر المحيط جـ/٧ ص/١٣٥

(٢) تفسير القاسمي جـ/١٣ ص/٤٧٢٨ - ٤٧٢٩

(٣) فتح القدير جـ/٤ ص/١٨٧

((ما ورد في سورة العنكبوت))

===

٣٨ - يقول ابن جرير عند قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم الظالمون) :[1]

وهذا وعيد من الله - تعالى ذكره - لهؤلاء المشركين من قريش القائلين للذين آمنوا : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لا يحزننك يا محمد ماتلقى من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذى ، فاني وان أطيت لهم فأطلت املاءهم فان مصير أمرهم الى البوار ، ومصير أمرك وأمر اصحابك الى الحلو والظفر بهم ، والنجاة مما يحل بهم من العقاب ، كفعلنا ذلك بنوح اذ ارسلنا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى التوحيد ، وفراق الالهة والأوثان ، فلم يزدهم ذلك من دعائه اياهم الى الله من الاقبال اليه وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله الا فرارا .

وذكر أنه أرسل الى قومه وهو ابن ثلاثة مائة وخمسين سنة ، كما حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، قال : ثنا نوح بن قيس ، قال ثنا عون بن أبي شداد ، قال : ان الله أرسل نوحا الى قومه وهو ابن خمسين وثلاث مائة سنة فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاث مائة سنة فأخذهم الطوفان [2] .

وهذا المعنى لعدد السنين التي عاشها نوح عليه السلام والرواية التي أوردها ابن جرير لم يقبله ابن كثير فقد قال - بعد سرده للأثر الذي ذكره ابن جرير وغيره - : هذا غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه

---

(١) سورة العنكبوت : الآية (١٤) .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢٠ / ص ١٣٥ .

يدعوهم الى الله ألف سنة الا خمسين عاما[1].

والذى أراه أن ماذهب اليه ابن كثير هو الحق ، لأنه يترتب على ماقاله ابن جرير ان يكون نوح عليه السلام قد عاش فى هذه الدنيا أكثر من ألف وست مائة وخمسين سنة ، وان كنا لا نشك بتاتا من ان الله جل وعلا قادر على ان يبقى عبده أكثر من ذلك ، الا ان هذا المعنى الذى ذكره ابن جرير راجع فى تفصيله الى اخبار بنى اسرائيل اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، ثم ان كثرة الروايات واختلاف معانيها[2] تدل دلالة واضحة على أنه لم يثبت شىء فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير بسط ولا اطناب ، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ماأراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة ذلك ، وبذلك يكون استدراك ابن كثير فى محله .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٢٧٨ .

(٢) انظر تفسير القرطبى : جـ ١٣ / ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٣٩ - يقول ابن جرير عند قوله تعالى : (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين)[1] :

يقول تعالى ذكره : وان تكذبوا أيها الناس رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما دعاكم اليه من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم والبراءة من الأوثان ، فقد كذبت جماعات من قبلكم رسلنا فيما دعتهم اليه الرسل من الحق فحل بها من الله سخطه ، ونزل بها منه عاجل عقوبته فسبيلكم سبيلها فيما هو نازل بكم بتكذيبكم اياه (وما على الرسل الا البلاغ المبين) يقول : وما على محمد الا أن يبلغكم عن الله رسالته ويؤدى اليكم ما أمره بأدائه اليكم ربه ...

فان قال قائل : وكيف اعترض بهذه الآيات من قوله : (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ... الى قوله (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وترك ضمير قوله (فما كان جواب قومه) وهو من قصة ابراهيم وقوله (ان الذين تعبدون من دون الله) ... الى قوله (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) .

قيل : فعل ذلك كذلك ، لأن الخبر عن أمر نوح وابراهيم وقومهما وسائر من ذكر الله من الرسل والأمم فى هذه السورة وغيرها ، انما هو تذكير من الله تعالى ذكره به الذين يبتدئ بذكرهم قبل الاعتراض بالخبر وتحذير منه لهم ان يحل بهم ما حل بهم فكأنه قيل فى هذا الموضع : فاعبدوه واشكروا له اليه ترجعون ، فكذبتم أنتم معشر قريش رسولكم محمدا كما كذب أولئك ابراهيم ، ثم جعل مكان فكذبتم ، وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، اذ كان ذلك يدل على الخبر عن تكذيبهم رسولهم ، ثم عاد الى

---

(١) سورة العنكبوت : الآية (١٨) .

الخبر عن ابراهيم وقومه وتمم قصته وقصتهم بقوله (فما كان جواب قومه)[1]

هذا ماقاله ابن جرير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية ، وأما ابن كثير - رحمه الله - فيرى غير ذلك فقد قال : قال قتادة فى قوله (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) : يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا الى قوله (فما كان جواب قومه) وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا ، والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام ابراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لاثبات المعاد لقوله بعد هذا كله (فما كان جواب قومه)[2] .

بهذا يتبين ان ابن جرير يرى ان قوله تعالى (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ...) جملة معترضة بين قوله تعالى (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدو الله واتقوه ...) وبين قوله (فما كان جواب قومه) ويعنى بهذه الجملة المعترضة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بينما يرى ابن كثير أن الآيات كلها من كلام ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

والذى يبدو لنا هو ان الآية محتملة - كما قال علماؤنا الأفاضل - ان تكون من جملة قول ابراهيم عليه السلام أو هى معترضة نزلت فى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشأن قريش فى أثناء قصة ابراهيم .

والمناسبة بين القصة وبين الكلام المعترض ظاهرة اذ كل فى موضوع واحد وهو تكذيب الأمم لرسلها ، وقصة ابراهيم ذكرت تسليةً للنبى صلى الله عليه وسلم فوحدة الموضوع والغرض موجودة .

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٠ / ص ١٣٨ - ١٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٢٧٩ .

قال الامام الزمخشري عند تفسيره للآية (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) ، وهذه الآية والآيات التي بعدها الى قوله - فما كان جواب قومه - محتملة ان تكون من جملة قول ابراهيم صلوات الله عليه لقومه ، وان تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة ابراهيم وآخرها .

فان قلت : فاذا كانت خطابا لقريش فما وجه توسطها بين طرفي قصة ابراهيم والجملة أو الجملة الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ، الا تراك لا تقول مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله ؟

قلت : ايراد قصة ابراهيم ليس الا ارادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان تكون مسلاة له ومتفرجا بأن أباه ابراهيم خليل الله كان معنيا بنحو ما منى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان فاعترض بقوله - وان تكذبوا - على معنى أنكم يا معشر قريش ان تكذبوا محمدا فقد كذب ابراهيم قومه وكل أمة نبيها لأن قوله - فقد كذب أمم من قبلكم - لا بد من تناول لامة ابراهيم ، وهو كما ترى اعتراض واقع متصل ، ثم سائر الآيات الواطئة عقيبها من أذيالها وتوابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه (١) .

وقال الامام الفخر الرازي عند الآية : لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال (وان تكذبوا) وفي المخاطب في هذه الآية وجهان :

أحدهما : امة قوم ابراهيم ، والآية حكاية عن قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال

---

(١) الكشاف : ج ٣ / ص ٢٠١ .

لقومه (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) وأنا أتيت بما على من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا البلاغ والبيان .

والثانى أنه خطاب مع قوم محمد عليه الصلاة والسلام ووجهه ان الحكايات أكثرها انما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ولهذا كثيرا مايقول الحاكى لأى شىء حكيت هذه الحكاية ؟ فالنبى صلى الله عليه وسلم كان مقصودة تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب ، فقال فى أثناء حكايتهم ياقوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام واهلكوا ، فان كذبتم أخاف عليكم ماجاء على غيركم (١) .

ومن هذه النقول يتبين ان ماذهب اليه كل من الشيخين فى تفسير الآية يجوز والآية تحتمل كلا الرأيين .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ٢٥ / ص ٤٥ ، وأنظر تفسير القرطبى : جـ ١٣ / ص ٣٣٦ - ٣٣٨ ، والتسهيل لعلوم التنزيل : جـ ٣ / ص ١١٥ ، وتفسير البيضاوى : جـ ٢ / ص ١١٠ ، وفتح القدير : جـ ٤ / ص ١٩٧ - ١٩٨ .

((ما ورد في سورة يس))

==

٤٠ - يقول ابن جرير - رحمه الله - عند قوله تعالى (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله . قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا في ضلال مبين)[1] .

يقال تعالى ذكره : واذا قيل لهؤلاء المشركين بالله أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم ، فأدوا منه ما فرض الله عليكم فيه لأهل حاجتكم ومسكنتكم قال الذين انكروا وحدانية الله وعبدوا من دونه للذين آمنوا بالله ورسوله أنطعم أموالنا وطعامنا من لو يشاء الله أطعمه .

وفي قوله (ان أنتم الا في ضلال مبين) وجهان : أحدهما ان يكون من قيل الكفار للمؤمنين ، فيكون تأويل الكلام حينئذ : ما أنتم أيها القوم في قيلكم لنا : انفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم ، الا في ذهاب عن الحق وجور عن الرشد مبين لمن تأمله وتدبره أنه في ضلال ، وهذا أولى وجهيه بتأويله .

والوجه الآخر : أن يكون ذلك من قيل الله للمشركين ، فيكون تأويله حينئذ : ما أنتم أيها الكافرون في قيلكم للمؤمنين : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه الا في ضلال مبين ، عن ان قيلكم ذلك لهم ضلال[2] .

وهذا الرأي الثاني لمح به ابن كثير - رحمه الله - فقد قال عند الآية (ان أنتم الا في ضلال مبين) : أي في أمركم لنا بذلك .

---

(١) سورة يس : الآية (٤٧) .

(٢) تفسير الطبري : ج ٢٣ / ص ١٢ - ١٣ .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول الله عز وجل للكافرين حين ناظروا المؤمنين ورد وا عليهم ، فقال لهم (ان انتم الا فى ضلال مبين) وفى هذا نظر (١) .

ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان قوله تعالى : (ان أنتم الا فى ضلال مبين) يحتمل أن يكون من قول الكافرين للمؤمنين ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى للكافرين بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان الآية لا تحتمل الا الرأى الأول .

والذى يبدو لنا هو ان سياق الآية وان كان يتفق مع الرأى الأول الا ان الرأى الثانى لا يترتب عليه فساد المعنى ، وابن جرير نفسه قد رجح الأول ، وكثير من المفسرين ذكروا الرأيين .

قال أبو حيان عند تفسيره للآية : والظاهر ان قوله (ان انتم الا فى ضلال مبين) من تمام كلام الكفار يخاطبون المؤمنين أى طلبتم ان تطعموا من لا يريد الله اطعامه اذ لو اراد الله اطعامه لأطعمه هو ويجوز أن يكون من قول الله لهم استأنف زجرهم به ، أو من قول المؤمنين لهم ثم حكى تعالى عنهم مايقولون على سبيل الاستهزاء (٢) .

وقال ابن جزى عند تفسيره للآية : يحتمل ان يكون من بقية كلامهم خطابا للمؤمنين أو يكون من كلام الله خطابا للكافرين (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٥٦٦ .

(٢) البحر المحيط : جـ ٧ / ص ٣٤٠ .

(٣) التسهيل : جـ ٣ / ص ١٦٤ - ١٦٥ .

قال ابن الجوزى عند تفسيره للآيه : ان المؤمنين قالوا لكفار مكه انفقوا على المساكين النصيب الذى زعمتم أنه لله من الحرث والأنعام ، .. فقالوا : (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) . وقال ابن السائب : كان العاص بن وائل اذا سأله مسكين قال : اذهب الى ربك فهو أولى بك ، ويقول : قد منعه الله أطعمه أنا ؟

ومعنى الكلام أنهم قالوا : لو اراد الله ان يرزقهم لرزقهم ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم فلا نطعمهم ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضا ، ليبلوا الغنى بالفقير فيما فرض له فى ماله من الزكاة ، والمؤمن لا يعترض على المشيئة ، وانما يوافق الأمر ، وقيل : انما قالوا هذا على سبيل الاستهزاء .

وفى قوله (ان انتم الا فى ضلال مبين) قولان : احدهما : أنه من قول الكفار للمؤمنين ، يعنون : لنكم فى خطأ من اتباع محمد . والثانى : أنه من قول الله للكفار لما ردوه من جواب المؤمنين (١) .

وقال الامام الآلوسى عند تفسيره للآية : والظاهر ان قوله تعالى (ان أنتم الا فى ضلال مبين) من تتمة قول الذين كفروا للذين آمنوا أى ما أنتم الا فى ضلال ظاهر حيث طلبتم منا مايخالف مشيئة الله عز وجل .

ولعمرى ان الانباء ينضح بما فيه فان جوابهم يدل على غاية ضلالهم وفرط جهلهم حيث لم يعلموا أنه تعالى يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم سبحانه له .

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير : جـ ٧ / ص ٢٤ .

ويجوز أن يكون جوابا من جهته تعالى زجر به الكفرة وجهلهم به أو حكاية لجواب المؤمنين لهم فيكون على الوجهين استئنافا بيانيا جوابا لما عسى ان يقال ، ماقال الله تعالى أو ماقال المؤمنون فى جوابهم (١) .

وقال الامام الشوكانى عند تفسيره للآية : وقوله (ان انتم الا فى ضلال مبين) من تمام كلام الكفار .

والمعنى : أنكم أيها المسلمون فى سؤال المال ، وأمرنا باطعام الفقراء لفى ضلال فى غاية الوضوح والظهور .

وقيل هو من كلام الله سبحانه جوابا على هذه المقالة التى قالها الكفار (٢) .

ومن هذا نرى ان ابن جرير لم يبتعد عن الصواب فيما ذهب اليه .

---

(١) روح المعانى : جـ ٢٣ / ص ٢٨ .

(٢) فتح القدير : جـ ٤ / ص ٣٦٢ .

((ما ورد في سورة الصافات))

===

٤١ - يقول ابن جرير - رحمه الله - عند قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على ابراهيم ، كذلك نجزي المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين)[1] :

وقوله (وفديناه بذبح عظيم) يقول : وفدينا اسحاق بذبح عظيم ، والفدية الجزاء ، يقول جزيناه بأن جعلنا مكان ذبحه ذبح كبش عظيم وانقذناه من الذبح .

واختلف أهل التأويل في المفدى من الذبح من ابني ابراهيم فقال بعضهم هو اسحاق ...

وقال آخرون : الذي فدي بالذبح العظيم من بني ابراهيم هو اسماعيل ...

قال أبو جعفر : وأولى القولين بالصواب في المفدى من بني ابراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول من قال : هو اسحاق ، لأن الله قال (وفديناه بذبح عظيم) فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذي بشر به ابراهيم حين سأله أن يهب له ولدا صالحا من الصالحين ، فقال (رب هب لي من الصالحين) فاذا كان المفدى بالذبح من ابنيه هو المبشر به

---

(١) سورة الصافات : الآية (١٠٧ - ١١١) وبداية الموضوع عند قوله تعالى (رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعي قال يابني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ، فلما اسلما للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم ، قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ...)

وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أن الذى بشر به هو اسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، فقال جل ثناؤه (فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب) وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره اياه بولد ، فانما هو معنى به اسحاق ، كان بيّنا ان تبشيره اياه بقول (فبشرناه بغلام حليم) في هذا الموضع نحو سائر أخباره في غيره من آيات القرآن .

وبعد ؛ فان الله أخبر - جل ثناؤه - في هذه الآية عن خليله أنه بشره بالغلام الحليم من سألته اياه أن يهب له من الصالحين ومعلوم أنه لم يسأله ذلك الا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين ، لأنه لم يكن له من ابنيه الا امام الصالحين ، وغير موهوم منه أن يكون سأل ربه في هبة ما قد كان اعطاه ووهبه له ، فاذا كان ذلك كذلك فمعلوم ان الذى ذكر - تعالى ذكره - في هذا الموضع هو الذى ذكر في سائر القرآن أنه بشره به وذلك لا شك أنه اسحاق اذا كان الفدى هو المبشر به (١) .

هذا هو رأى ابن جرير في الفدى من الذبح ودليله ، وأما ابن كثير - رحمه الله - فلم يرتض هذا الرأى فقد قال عند الآية : عول - ابن جرير في اختياره ان الذبيح اسحاق على قوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فجعل هذه البشارة هي البشارة باسحاق في قوله تعالى (وبشروه بغلام عليم) وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى ، أى العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا ، قال : وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد يقدم أن من الناس من ذهب الى أنه ذبح اسحاق هناك

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٣ / ص ٨١ - ٨٥ .

هذا ما اعتمد عليه في تفسيره ، وليس ما ذهب اليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا ، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه اسماعيل أثبت وأصح وأقوى [1] .

ويتبين من هذا ان ابن جرير - رحمه الله - يرى ان الذبيح في الآية هو اسحاق - على الراجح - بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - أن الذبيح اسماعيل .

قلت : ومما لا شك فيه ان هذا الخلاف صدر من الصحابة ومن التابعين حيث يرى بعضهم ان الذبيح اسحاق بدليل ان أول الآية وآخرها يدل على ذلك ، أما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية (اني ذاهب الى ربي سيهدين) وأجمعوا على ان المراد منه مهاجرته الى الشام ، ثم قال (فبشرناه بغلام حليم) فوجب ان يكون هذا الغلام ليس الا اسحاق ، ثم قال بعده (فلما بلغ معه السعي) وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام الذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الذي حصل في الشام ، فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على ان الذبيح هو اسحاق .

وأما آخر الآية فهو أيضا يدل على ذلك لأنه تعالى لما تم قصة الذبيح قال بعده (وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين) ومعناه أنه بشره بكونه نبيا من الصالحين ، وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على أنه تعالى انما بشره بهذه النبوة لأجل أنه تحمل هذه الشدائد في قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان أول الآية وآخرها يدل على ان الذبيح هو اسحاق عليه السلام

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٣٠ .

وانه اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف عليهما السلام (بن يعقوب اسرئيل نبي الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله) .

هذا ما استدل به الذين يرون بأن الذبيح هو اسحاق عليه السلام . .

وأما الذين يرون ان الذبيح اسماعيل فقد احتجوا بأدلة كثيرة منها : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنا ابن الذبيحين " وقال له اعرابي : " يا ابن الذبيحين " فتبسم فسئل عن ذلك فقال : ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له : افد ابنك بمائة من الابل فداه بمائة من الابل ، والذبيح الثاني اسماعيل .

ومنها : أنه روى عن الاصمعي أنه قال سألت ابا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا اصمعي اين عقلك ، ومتى كان اسحاق بمكة وانما كان اسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة .

ومنها : قوله تعالى (فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب) لو كان الذبيح اسحاق لكان الأمر بذبحه اما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك فالأول باطل لأنه تعالى لما بشرها باسحاق ، وبشرها معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الأمر بذبحه والا حصل الخلف في قوله (ومن وراء اسحاق يعقوب) .

والثاني باطل ، لأن قوله (فلما بلغ معه السعي ، قال يابني اني أرى في المنام اني أذبحك) يدل على ان ذلك الابن لما قدر على السعي ووصل الى حد القدرة على الفعل أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه ، وذلك ينافي وقوع هذه القصة في زمان آخر ، فثبت أنه لا يجوز أن يكون الذبيح هو اسحاق . . .

منها : حكاية الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام أنه قال (انى ذاهب الى ربى سيهدين) ثم طلب من الله تعالى ولدا يستأنس به فى غربته فقال (رب هب لى من الصالحين) وهذا السؤال انما يحسن قبل ان يحصل له الولد ، لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد ، لأن طلب الحاصل محال ، فثبت ان هذا السؤال لا يحسن الا عند عدم كل الأولاد ..

فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول ، وأجمع الناس على ان اسماعيل متقدم فى الوجود على اسحاق ، فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء هو اسماعيل ، ثم ان الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب ان يكون الذبيح هو اسماعيل .

ومنها : ان الاخبار كثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة ، فكان الذبيح بمكة ، ولو كان الذبيح اسحاق لكان الذبيح بالشام (١) .

وبعد هذا العرض السريع لآراء العلماء وأدلتهم نرى ان ما ذهب اليه ابن كثير - رحمه الله - هو الأصوب ، لأن سياق الآيات فى هذه السورة يؤيده ، وايضاح ذلك أنه تعالى قال عند نبيه ابراهيم (وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله

---

(١) انظر التفسير الكبير : جـ ٢٦ / ص ١٥٢ - ١٥٥ ، والكشاف : جـ ٣ ص ٣٥٠ ، والتسهيل فى علوم التنزيل : جـ ٣ / ص ١٧٤ ، وتفسير القرطبى : جـ ١٥ / ص ٩٩ - ١٠١ .

من الصابرين ، فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه - بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين)

قال بعد ذلك عاطفا على البشارة الأولى : (وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين) فدل ذلك على ان البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية ، لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه : فبشرناه باسحاق ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضا : وبشرناه باسحاق ، فهو تكرار لا فائدة فيه يتنزه عنه كلام الله ، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولا الذي فدي بالذبح العظيم هو اسماعيل ، وان البشارة باسحاق نبي الله عليها مستقلة بعد ذلك .

والمعلوم والمقرر في الأصول ان النص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اذا احتمل التأسيس والتأكيد معا ، وجب حمله على التأسيس ولا يجوز حمله على التأكيد الا بدليل يجب الرجوع اليه والمعلوم كذلك في اللغة العربية أن العطف - غالبا - يقتضي المغايرة .

فهذه الآيات دليل واضح المنصف على ان الذبيح اسماعيل لا اسحاق

وكذلك قوله تعالى في سورة هود (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب)[1] ، لقد بشرتها رسل الله من الملائكة باسحاق وان اسحاق يلد يعقوب ، فكيف يعقل ان يؤمر ابراهيم بذبحه وهو صغير وهو عنده ولم يتبين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب . .

---

(١) سورة هود : الآية (٧١) .

فهذه الآية أيضا دليل واضح على ان الذبيح اسماعيل ، فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلة القرآنية على ذلك [1] .

وأما ما ادعى أن يعقوب عليه السلام كتب الى ابنه يوسف عليه السلام يقول (يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرئيل الله ابن اسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله) فقد قال عنه الامام البيضاوي في تفسيره بأنه لم يثبت [2] .

ومن هذا نرى أن استدراك ابن كثير على ابن جرير في هذا الموضوع في محله .

---

(١) انظر أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ج ٦ / ص ٦٩١ - ٦٩٣ .

(٢) انظر تفسير البيضاوي : ج ٢ / ص ١٥٨ .

((مأثور في سورة ص))

==

٤٢ - يقول ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى - في قصة سليمان - (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) [1] :

فجعل يمسح منها السوق ، وهي جمع الساق والاعناق . .

واختلف أهل التأويل في معنى مسح سليمان بسوق هذه الخيل الجياد واعناقها . .

فقال بعضهم : معنى ذلك أنه عقرها وضرب أعناقها ، من قولهم : مسح علاوته : اذا ضرب عنقه . . .

وقال آخرون : بل جعل يمسح اعرافها وعراقيبها بيده حبا لها ذكر من قال ذلك :

حدثني علي ، قال : ثنا أبو صالح ، قال : ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) يقول : جعل يمسح اعراف الخيل وعراقيبها حبا لها ؛

وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية ، لأن النبي الله صلى الله عليه وسلم لم يكن - ان شاء الله - ليعذب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالا من ماله بغير سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر اليها ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر اليها [2] .

---

(١) سورة ص : الآية (٣٣) ، أولها قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ، ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢٣ / ص ١٥٦ .

وهذا الترجيح لم يقبله ابن كثير فقد قال عند الآية : وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر ، لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هـذا ولا سيما اذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما عوض منها لله تعالى عوضه الله عز وجل ماهو خير منها وهو الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهرا وروحهـا شهرا فهذا أسرع وخير من الخيل (١) .

ويظهر من هذا ان ابن جرير يرى ان قوله تعالى (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) معناه : جعل يمسح اعراف الخيول وعراقيبها بيده حبالها ، بينما يرى ابن كثير أنه عقرها وضرب اعناقها ، لأنها اشغلته عن الصلاة .

والذى نراه فى هذا الموضوع هو ان ماذهب اليه ابن جرير أولى بالقبول ، لأنه يحفظ عصمة نبى الله سليمان عليه السلام ، ولا يترتب على رأيه هذا العاصى والأخطاء التى أدخلوا نبى الله سليمان فيها .

وقد قال الامام الفخر الرازى عند هذه الأية : قال تعالى (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقهـا وأعناقها .

قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها واعناقها أى قطعهـا قالوا انه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر الى ذلك الخيل استردها وعقر سوقها واعناقها تقربا الى الله تعالى ، وعندى ان هذا أيضا بعيد ، ويدل عليه وجوه :

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٥٧ .

الأول : أنه لو كان معنى مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى قوله (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم)[1] قطعها ، وهذا مما لا يقوله عاقل ، بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح .

الثاني : القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة : فأولها ترك الصلاة ، وثانيها أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا الى حيث نسى الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم : (حب الدنيا رأس كل خطيئة) ، - وثالثها أنه بعد اتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة .

ورابعها أنه خاطب رب العالمين بقوله (ردوها علي) وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس .

وخامسها : أنه اتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها واعناقها ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه : أنهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله ، فهذه أنواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع ان لفظ القرآن لم يدل على شيء منها .

وسادسها : ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله : (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وان الكفار لما بلغوا في السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم (واذكر عبدنا داود) وذكر

---

(١) سورة المائدة : الآية (٦) .

.. تفسير الرازي .

قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على مايقولون ، واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام انما يكون لائقا لو قلنا ان سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وامتنع عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع ، فثبت ان كتاب الله تعالى ينادى على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والافساد والابطال ، بل التفسير الطابق للحق لألفاظ القرآن الكريم والصواب أن نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وانما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله (عن ذكر ربى) ثم انه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب ، أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها واعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور :

الأول : تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من أعظم الاعوان فى دفع العدو .

الثانى : أنه أراد ان يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

الثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يتحنها ويمسح سوقها واعناقها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .

فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقتا موافقا ، ولا يلزم منا نسبة شئ من تلك المنكرات والمحذورات . . . (١)

وقد أيد صاحب المنار رأى الامام الرازى فقال : (حاسب اللـــه القصاص ، فلقد شوهوا كتب التفسير بقصصهم ، استعرض سليمان نبى اللـــه وملك بنى اسرائيل الخيل ، فقال : " انى أحببت حب الخير " المعقود بنواصى الخيل لا عن هوى نفسى ولكن (عن ذكر ربى) ووعية الذى أمـــر برباط الخيل للدفاع عن الحق فما زالت تعرض (حتى توارت بالحجاب) فقال (ردوها على) لأراها مقبلة ومدبرة لاختبر حالها فقد قيل انه كان - عالما بها وبأمراضها ، أو لأتمتع بمسح سوقها واعناقها فردوها عليـــه (فطفق مسحا بالسوق والأعناق) كما هو شأن محبى الخيل فى كل جيـــل وزمان .

فأى دليل أم أية شبهة فى هذه الآيات على ان سليمان عليه السلام ترك صلاة العصر شغلا بالخيل حتى غربت الشمس ، وأنه انتقم منها بقطع - سوقها واعناقها ، ولو كان المسح هو القطع لكان قوله تعالى (وامسحوا برؤوسكم وارجلكم) بمعنى اقطعوها ، وان قوله (ردوها على) خطاب للملائكة الموكلين بالشمس يأمرهم بردها بعد غروبها ليصلى العصر ؟ وأى حاجة لتطويل الفقهاء البحث فى هذه : هل هى اداء أو قضاء ؟ (٢) .

---

(١) التفسير الكبير : ج ٢٦/ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) منقولا عن الاسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير للدكتور رمزى نعناعـــة ص ٣١٩ ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م / مطبعة دار المعارف للطباعة / دمشق .

وبهذا يتبين ان ما ذهب اليه ابن جرير هو الأولى بالقبول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأن الامام ابن كثير لم يذكر لنا مستندا صحيحا يستند اليه ، وانما ساق ماساق من أدلة على سبيل الظن لا اليقين

((ماورد في سورة فصلت))

===

٤٣ - قال ابن جرير عند قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) [1] :

وقوله (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) : يقول تعالى ذكره : وصديد أهل النار ، وما يسيل منهم للمدعين لله شريكا ، العابدين الأوثان دونه الذين لا يؤتون الزكاة .

اختلف أهل التأويل في ذلك ، فقال بعضهم : معناه الذين لا يعطون الله الذاكاة التي تطهرهم ، وتزكي أبدانهم ولا يوحدونه وذلك قول يذكر عن ابن عباس ... حدثني علي ، قال : ثنا أبوصالح قال : ثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) قال : هم الذين لا يشهدون أن لا اله الا الله

... وقال آخرون : بل معنى ذلك : الذين لا يقرون بزكاة أموالهم التي فرضها الله فيها ، ولا يعطونها أهلها ...

---

(١) سورة فصلت : الآية (٧) .

والصواب من القول في ذلك ما قاله الذين قالوا : معناه : لا يؤدون زكاة أموالهم ، وذلك أن ذلك هو الأشهر من معنى الزكاة ، وان قوله في (وهم بالآخرة هم كافرون) دليلا على أن ذلك كذلك ؛ لأن الكفار الذين عنوا بهذه الآية كانوا لا يشهدون أن لا اله الا الله ، فلو كان قوله (الذين لا يؤتون الزكاة) مرادا به الذين لا يشهدون أن لا اله الا الله لم يكن لقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) معنى ، لأنه معلوم ان من لا يشهد أن لا اله الا الله لا يؤمن بالآخرة ، وفي اتباع الله قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) وقوله (الذين لا يؤتون الزكاة) ماينبئ عن أن الزكاة في هذا الموضع معنى بها زكاة الأموال [1] .

وهذا الترجيح لم يقبله ابن كثير واستدرك قائلا : والمراد بالزكاة هاهنا : طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ...

وقال السدى : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) أى : الذين لا يدينون بالزكاة .

وقال معاوية بن قرة : ليس هم من أهل الزكاة .

وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم .

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، وفيه نظر لأن ايجاب الزكاة انما كان في السنة الثانية من الهجرة الى المدينة على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم الا أن يقال : لا يبعد ان يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة ، كقوله تعالى : (وآتوا

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٢٤ / ص ٩٢ - ٩٣ .

حقه يوم حصاده) ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فانما بين أمرها بالمدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين ، كما ان اصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثه ، فلما كان ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة ونصف ، فرض الله على رسوله الصلوات الخمس ، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا (١) .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هي ان ابن جرير - رحمه الله - يرى أن قوله تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) يقصد به زكاة أموالهم بينما يرى ابن كثير - رحمه الله - ان معناه : طهارة النفس من الرذائل ومنها الشرك بالله جل وعلا .

والذي يظهر هو أنه وان كانت الآية تحتمل كلا المعنيين الا أنها في زكاة الأموال أظهر ، لأن ذلك هو الاشهر من معنى الزكاة لاسيما مع ضميمة الايتاء ، وقد ذهب أكثر المفسرين الى ذلك . . .

وقد قال الامام الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية : فان قلت : لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ؟

قلت : لأن أحب شيء الى الانسان ماله وهو شقيق روحه ، فاذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته ، ألا ترى الى قوله عز وجل ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم - أي يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بانفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم الا بلفظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم ، وأهل الردة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ١٥٣ .

الا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا ، وفيه بعث للمؤمنين على اداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة [1] .

وقال ابن جزى عند تفسيره للآية : (الذين لا يؤتون الزكاة) هى زكاة المال ، وانما وصفها بالذكر لصعوبتها على الناس ولأنها من أركان الاسلام ، وقيل : يعنى بالزكاة التوحيد وهذا بعيد ، وانما حطه على ذلك لأن الآيات مكية ، ولم تفرض الزكاة الا بالمدينة ، والجواب : ان المراد النفقة فى طاعة الله مطلقا وقد كانت مأمورا بها بمكة [2] .

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : (وويل للمشركين) من شركهم بربهم عز وجل (الذين لا يؤتون الزكاة) لبخلهم وعدم اشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل (وهم بالآخرة هم كافرون) ...

والجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم فى الدنيا وانكارهم للآخرة ، وحمل الزكاة على معناها الشرعى مما قاله ابن السائب وروى عن قتادة والحسن والضحاك ، ومقاتل .

وقيل : الزكاة بالمعنى اللغوى أى : لا يفعلون مايزكى أنفسهم وهو الايمان والطاعة ...

والصرف عن الحقيقة الشرعية الشائعة من غير موجب لا يجوز ، وكيف ومعنى الايتاء لا يقر قرارة ، نعم لو كان بدله يأتون كما فى قوله تعالى : (ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى) [3] لحسن لا يقال : ان الزكاة

---

(١) الكشاف : جـ ٢ / ص ٤٤٣ .

(٢) التسهيل : جـ ٤ / ص ١١ .

(٣) سورة التوبة : الآية (٥٤) .

فرضت بالمدينة والسورة مكية لأنا نقول :

اطلاق الاسم على طائفة مخرجة من المال على وجه من القربة مخصوص كان شائعا قبل فرضيتها بدليل شعر امية من أبي الصلت : الفاعلون للزكوات على ان هذا الحق على هذا الوجه المصروف فرض بالمدينة ، وقد كان في مكة فرض شيء من المال يخرج الى المستحق لا على هذا الوجه ، وكان يسمى زكاة أيضا ثم نسخ (١) .

وبهذه المقولات يتبين ان ماذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - هو الأقرب الى الصواب ، خصوصا ان ابن كثير نفسه قد قال في تخريج ماذهب اليه ابن جرير : اللهم الا ان يقال : لا يبعد ان يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة (٢) .

---

(١) روح المعاني : ج ٢٤ / ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٧ / ص ١٥٢ .

((ما ورد في سورة الذاريات))

====

٤٤ - قال ابن جرير عند قوله تعالى (ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين)[1] :

وقوله (ان المتقين في جنات وعيون) يقول تعالى ذكره : ان الذين اتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتين وعيون ماء في الآخرة .

وقوله (آخذين ما آتاهم ربهم) يقول تعالى ذكره : عاملين ما أمرهم ربهم وموفين فرائضه ...

وقوله (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) يقول : انهم كانوا قبل ان يفرض عليهم الفرائض محسنين ، يقول : كانوا لله قبل ذلك مطيعين ...[2]

وقد استدرك ابن كثير على هذا التفسير بقوله :

وقوله (آخذين ما آتاهم ربهم) قال ابن جرير : أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ، (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) أي : قبل ان يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الاعمال أيضا ،

ثم روى عن ابن حميد ، حدثنا مهران عن سفيان عن أبي عمر عن مسلم البطين عن ابن عباس في قوله (آخذين ما آتاهم ربهم) قال : من الفرائض ، (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) قبل الفرائض يعملون ، وهذا الاسناد ضعيف ، ولا يصح عن ابن عباس ...

---

(١) سورة الذاريات : الآية (١٦) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢٦ / ص ١٩٥ - ١٩٦ .

وقد رواه عثمان بن أبي شيبة عن معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي عمر البزار عن سلم العلين عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس ، فذكره .

والذي فسر به ابن جرير فيه نظر ، لأن قوله (آخذين) حال من قوله (في جنات وعيون) ، فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم من النعيم والسرور والغبطة .

وقوله : (انهم كانوا قبل ذلك) أي : في الدار الدنيا (محسنين) كقوله : (كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الأيام الخالية) [1] .

ومحل الخلاف بين الشيخين هو أن ابن جرير فسر قوله تعالى (: (آخذين ما آتاهم ربهم) بعاملين ما أمرهم ربهم من الفرائض ، بينما يرى ابن كثير ان معناه : آخذين ما آتهم ربهم من النعيم والسرور والغبطة .

والظاهر ان مذهب ابن كثير في هذه المسألة هو الأولى بالقبول ، لان سياق الآية يؤيده ، وقوله (آخذين ما أتاهم ...) منصوب على الحال ومعناه : قابلين راضين بما آتاهم وذلك في الجنة [2] .

قال الامام الفخر الرازي عند تفسيره لهذه الآية : وقوله تعالى : (أخذين ما آتاهم ربهم) فيه مسائل ولطائف ، أما المسائل :

فالأولى : منها ما معنى آخذين ؟ نقول فيه وجهان ، أحدهما : قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله لا متناع استيفاء ما لا نهاية له .

---

(١) سورة الحاقة : الآية (٢٤) ، أنظر تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٢٩٣ .

(٢) انظر البحر المحيط : جـ ٨ / ص ١٣٥ .

ثانيها : آخذين قابلين قبول راض ، كما قال تعالى (ويأخذ الصدقات)[1] أى : يقبلها .

وفيه وجه ثالث : وهو أن قوله (فى جنات) يدل على السكنى فحسب ، وقوله (آخذين) يدل على التملك ، ولذا يقال : أخذ بلاد كذا وقلعة كذا ، اذا دخلها متملكا لها ، وكذا يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أى تملكه وان لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضا .

وحينئذ فائدته بيان ان دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضعف يسترد منه ذلك ، بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله (آتاهم) يكون لبيان أن أخذهم ذلك لم يكن عنوة وفتوحا ، وانما كان باعطاء الله تعالى ، وعلى هذا الوجه فراجعة الى الجنات والعيون .[2]

وقال ابن جزى عند تفسيره لهذه الآية : (آخذين ما آتاهم ربهم) يعنى : يأخذون فى الجنة ما أعطاهم ربهم من الخيرات والنعيم

وقيل : المعنى آخذين فى الدنيا ما آتاهم ربهم من شرعه ، والأول أظهر وأرجح لدلالة الكلام عليه .[3]

---

(١) سورة التوبة : الآية (١٠٤) .

(٢) التفسير الكبير : جـ ٢٨ / ص ٢٠٠ .

(٣) التسهيل : جـ ٤ / ص ٦٨ .

وقال الامام الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية : (آخذين ماآتاهم ربهم) أي : قابلين ما أعطاهم ربهم من الخيرات والكرامة وجملة (أنهم كانوا قبل ذلك محسنين) تعليل لما قبلها ، أي : لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم الصالحة من فعل ما امروا به وترك مانهوا عنه (١) .

وبهذا يتضح ان استدراك ابن كثير على ابن جرير في هذه المسألة في محله .

---

(١) فتح القدير : جـ ٥ / ص ٨٤ .

((ماورد في سورة الرحمن))

===

٤٥ - يقول ابن كثير عند تفسير قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان) [1] :

والمراد بقوله (البحرين) الملح والعذب ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ...

وقد اختار ابن جرير هاهنا ان المراد بالبحرين بحر السماء وبحر الأرض ، وهو مروي عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، وابن ابزى .

قال ابن جرير : لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء ، واصداف بحر الأرض ، وهذا وان كان هكذا ليس المراد ماذهب اليه ، فانه لا يساعده اللفظ ، فانه تعالى قد قال : (بينهما برزخ لا يبغيان) أي : وجعل بينهما برزخا وهو الحاجز بين الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ، ومابين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا [2] .

هذا ماقاله ابن كثير في تفسير كلمة (البحرين) ، وما نسبه الى ابن جرير فلنسمع من ابن جرير نفسه .

---

(١) سورة الرحمن : الآية (٢١) .

(٢) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٤٦٨ .

فقد قال ابن جرير عند تفسير الآية : وقوله (من البحرين يلتقيان) يقول - تعالى ذكره - : مرج رب المشرقين ورب المغربين البحرين يلتقيان يعني بقوله (مرج) : أرسل وخلى ، من قولهم : مرج فلان دابته اذا خلاها وتركها ...

واختلف أهل العلم في البحرين اللذين ذكرهما الله جل ثناؤه في هذه الآية ، أي البحرين هما ؟ فقال بعضهم : هما بحران احدهما في السماء والآخر في الأرض ...

وقال آخرون : عني بذلك بحر فارس وبحر الروم ...

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عني به بحر السماء ، وبحر الأرض ، وذلك ان الله قال (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) واللؤلؤ والمرجان انما يخرج من اصداف بحر الأرض عن قطر ماء السماء فمعلوم ان ذلك بحر الأرض وبحر السماء [1] .

هذا وقد تبين في ما قاله ابن جرير في تفسيره لهذه الآية أنه يرى ان كلمة (البحرين) يعني بها بحر السماء وبحر الأرض بينما يرى ابن كثير أن معنى (البحرين) الماء المالح والماء العذب كلاهما في هذه الأرض .

والذي يظهر هو ان ما ذهب اليه ابن كثير أقرب الى الصواب ، لأن الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية جاء موضحا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الفرقان (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) [2] وقوله تعالى في سورة

---

(١) تفسير الطبري : جـ ٢٧ / ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) سورة الفرقان : الآية (٥٣) .

فاطر (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) [1] ، والقرآن يفسر بعضه بعضا والأصل فى الآى التشابه .

وقد قال الامام الزمخشرى عند تفسيره لهذه الآية (من البحرين) أرسل البحر الحالح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا فصل بين الماءين فى مرأى العين (بينهما برزخ) حاجز من قدرة الله تعالى (لا يبغيان) لا يتجاوزان حديهما ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة [2] .

وقال الامام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية : المسألة الثالثة : فى البحرين وجوه احدها : بحر السماء وبحر الأرض ، ثانيها : البحر الحلو والبحر المالح كما قال تعالى (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) وهو أصح وأظهر من الأول [3] .

وقال الامام البيضاوى عند تفسيره للآية : (من البحرين) ... والمعنى ارسل البحر الملح والبحر العذب (يلتقيان) يتجاوران ويتماس سطوحهما ، أو بحر فارس والروم يلتقيان فى المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه (بينهما برزخ) حاجز من قدرة الله أو من الأرض (لا يبغيان) لا يبغى احدهما على الآخر بالممازجة وابطال الخاصية أو لا يتجاوز حديهما باغراق ما بينهما [4] .

---

(١) سورة فاطر : الآية (١٢) .

(٢) الكشاف : جـ ٤ / ص ٤٥ .

(٣) التفسير الكبير : جـ ٢٩ / ص ١٠٠ .

(٤) تفسير البيضاوى : جـ / ٧٠٦ .

وقال الامام الآلوسى : (من البحرين) أى أرسلهما وأجراهما من مرجت الدابة فى المرعى أرسلتها فيه ، والمعنى أرسل البحر الملح ، والبحر العذب (يلتقيان) أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى مرأى العين [1] .

وقال سيد قطب عند الآية : والبحران المشار اليهما هما البحر الملح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار ، ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله [2] .

ومن هذه النقول يتبين ان ما ذهب اليه ابن كثير فى تفسير هذه الآية هو رأى جمهور المفسرين ، وهو أقرب كذلك الى تفسير الآية ، لأنه هو المتبادر والظاهر من معناها .

---

(١) روح المعانى : ج ٢٧ / ص ٩١ .

(٢) فى ظلال القرآن : ج ٧ / ص ٦٨١ .

((ما ورد في سورة الواقعة))

===

٤٦ - يقول ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة ...)[1]:

يقول - تعالى ذكره - : جماعة من الأمم الماضية وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم الآخرون ، وقيل لهم الآخرون : لأنهم آخر الأمم[2] .

وهذا التفسير لم يقبله ابن كثير فقال عند تفسيره للآية :

وقد اختلفوا في المراد بقوله (الأولين) و (الآخرين) قيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد ، والحسن البصري رواها عنهما ابن أبي حاتم .

وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله صلى الله عليه وسلم : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة)[3] ، ولم يحك غيره ، ولا عزاه الى أحد ..

وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد ان يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم الا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة والظاهر ان المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم .

---

(١) سورة الواقعة : الآية (١٤) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢٧ / ص ١٧٢ .

(٣) تنبيه : لم يسق ابن جرير هذا الحديث عند تفسيره لهذه الآية .

فالقول الثانى فى هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله : (ثلة من الأولين) ، أى : من صدر هذه الأمة ، (وقليل من الآخرين) أى : من هذه الأمة [1] .

ومن هذا يظهر ان ابن جرير يرى أن المراد بالأولين الأمم الماضية وأن المراد بالآخرين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بينما يرى ابن كثير ان الآية بكاملها تعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

والذى يظهر هو أن ما ذهب اليه ابن جرير فى تفسير الآية هو الأولى بالقبول ، لأن ظاهر الآيات فى هذا المقام يؤيده ، وان الآية تشمل جميع الأمم كما دل عليه أول السورة ، لأن قوله تعالى (اذا وقعت الواقعة - الى قوله - فكانت هباءً منبثا) لاشك انه لا يخص أمة دون أمة ، وان الجميع مستوون فى الأهوال والحساب والجزاء ، فدل ذلك على أن قوله (كنتم ازواجا ثلاثة) عام فى جميع أهل المحشر .

ثم ان السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة وفيهم أنبياء كثيرون ورسل ، فلا مانع من أن يجتمع من سابقيها من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقى هذه الأمة وحدها وان كان ماذل عليه ظاهر الآيات واختاره ابن جرير لا ينافى ماجاء من ان نصف أهل الجنة من هذه الأمة [2] ، لأن قوله (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) انما هو تفصيل للسابقين فقط .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) انظر شرح صحيح البخارى - فتح البارى - كتاب الأنبياء " باب قصة يأجوج ومأجوج " جـ ٦ / ص ٣٨٢ ، ومسند الامام أحمد جـ ٢ / ص ٢٩١ .

فقد قال الامام الزمخشري عند تفسيره للآية : والمعنى ان السابقين من الاولين كثير وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم .

(وقليل من الآخرين) وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : من الأولين من متقدمي هذه الأمة ، ومن الآخرين من متأخريها ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم الثلثان جميعاً من أمتي (١) .

قلت : ان ثبت هذا الحديث فانه ينطبق على الآية الأربعين اعني قوله تعالى (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) ، لأنها تتحدث عن أصحاب الميمنة لا السابقين .

وقال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : (ثلة من الأولين) أي جماعة من الأمم الماضية ، (وقليل من الآخرين) أي ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم - اللهم اجعلنا منهم بكرمك - وسموا قليلا بالاضافة الى من كان قبلهم لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون الى الايمان منهم ، فزادوا على عدد من سبق الى التصديق من أمتنا (٢) .

وقال الامام البيضاوي عند الآية (ثلة من الأولين وقليل من الاخرين) أي هم كثير من الاولين يعني الامم السالفة من لدن آدم الى محمد عليهما السلام ، وقليل من الآخرين يعني أمة محمد عليه السلام ولا يخالف ذلك قوله عليه السلام ان أمتي يكثرون سائر الامم لجواز أن يكون سابقوا سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة وتابعو هذه أكثر من تابعيهم ، ولا يرده

---

(١) تفسير الكشاف :

(٢) تفسير القرطبي : ج ١٧ / ص ٢٠٠ .

قوله فى أصحاب اليمين (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) لأن كثرة الفريقين لا تنافى أكثرية احدهما [1] .

وقال الامام الشوكانى عند الاية : والمراد بالأولين هم الأمم السابقة من لدن آدم الى نبينا صلى الله عليه وسلم (وقليل من الآخرين) أى من هذه الأمة ، وسموا قليلا بالنسبة الى من كان قبلهم ، وهم كثيرون لكثرة الأنبياء فيهم وكثرة من أجابهم ، قال الحسن : سابقو من مضى اكثر من سابقينا ، قال الزجاج : الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدقوا بهم أكثر ممن عاين النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا يخالف هذا ماثبت فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم : "انى لأرجو ان تكونوا ربع أهل الجنة ، ثم قال : ثلث أهل الجنة ثم قال : نصف أهل الجنة " لأن قوله (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) انما هو تفصيل للسابقين فقط ... [2]

وقال الامام المراغى عند تفسيره للآية - بعد ان ذكر ان الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة : سابقون وأصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة اعقب ذلك بذكر مايتمتع به السابقون من النعيم فى فراشهم وطعامهم وشرابهم ونسائهم واعادبثهم التى تدل على صفاء النفس وأدب الخلق وسمو العقل بعد ذلك قال : (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) أى جماعة كثيرة من سالفى الأمم وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ... [3]

---

(١) تفسير البيضاوى : ص ٧١٠ .

(٢) فتح القدير : جـ ٥ / ص ١٤٩ .

(٣) تفسير المراغى : جـ ٢٧ / ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وخلاصة القول : ان ما ذهب اليه ابن جرير في تفسيره لهذه الآية أولى بالقبول ، لأنه الظاهر من معنى الآية ، ولأن جمهور المفسرين قد قالوا به ، وقول ابن كثير نفسه :

" اللهم الا ان يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة "[1] . .

يشير الى سلامة رأي ابن جرير .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

((ما ورد في سورة المعارج))

====

٤٧ - يقول ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ...) [1] :

يقول - تعالى ذكره - : فلا أقسم برب مشارق الأرض ومغاربها (انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم) يقول : انا لقادرون على ان نهلكهم ، وتأتي بخير منهم من الخلق يطيعونني ولا يعصونني ... [2]

وهذا التفسير لم يرتضه ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره للآية : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فان قدرته صالحة لذلك (وما نحن بمسبوقين) أي : بعاجزين كما قال تعالى : (أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه) [3] وقال تعالى : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون) [4] .

واختار ابن جرير (على ان نبدل خيرا منهم) أي : أمة تطيعنا ولا تعصينا ويعملها كقوله : (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) [5] ، والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخرى عليه [6] .

---

(١) سورة المعارج : الآية (٤١) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢٩ / ص ٨٧ .

(٣) سورة القيامة : الآية (٣ - ٤) .

(٤) سورة الواقعة : الآية (٦٠ - ٦١) .

(٥) سورة محمد : الآية (٣٨) .

(٦) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٢٥٧ .

ويتبين من هذا ان ابن جرير يذهب الى ان الآية يقصد بها هذه الدنيا بينما يذهب ابن كثير الى ان الآية تتحدث عن يوم القيامة .

قلت : لقد تتبعت أكثر التفاسير فوجد أصحابها يؤيدون ما ذهب اليه ابن جرير - رحمه الله - فقد قال الامام الرازى عند الآية : واختلفوا فى ان ماوصف الله نفسه بالقدرة عليه من ذلك هل خرج الى الفعل أم لا ؟

فقال بعضهم بدل الله بهم الأنصار والمهاجرين ، فان حالتهم فى نصرة الرسول مشهورة . .

وقال آخرون بل بدل الله كفر بعضهم بالايمان ، وقال بعضهم لم يقع هذا التبديل ، فانهم أو أكثرهم بقوا على جملة كفرهم الى أن ماتوا ، وان كان يصح وقوع التبديل بهم لو اهلكوا ، لان مراده تعالى بقوله (انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) بطريق الاهلاك فان لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع ، وانما هدد تعالى القوم بذلك لكى يؤمنوا [1] .

وقال البيضاوى عند الآية (انا لقادرون على أن نبدل ...) أى نهلكهم ونأتى بخلق امثل منهم أو نحطى محمد صلى الله عليه وسلم بدلكم من هو خير منكم وهم الأنصار [2] .

وقال القرطبى : (انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) : يقول نقدر على اهلاكهم والذهاب بهم ، والمجىء بخير منهم فى الفضل والطوع والمال [3] .

---

(١) التفسير الكبير : جـ ٣٠ / ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٢) تفسير البيضاوى : ص ٧٦٠ .

(٣) تفسير القرطبى : جـ ١٨ / ص ٢٩٥ ، وأنظر التسهيل لابن جزى : جـ ٤ / ص ٢٧٨ .

وقال ابن الجوزى عند الآية : أى نخلق أشل منهم ، وأطوع للـــه حين عصوا ... (١)

وقال الآلوسى (انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم) أى نهلكهم بالمرة حسبما تقتضيه جناياتهم ونأتى بدلهم بخلق آخرين ليسوا على صفتهم (٢)

وقال الشوكانى (انا لقادرون ...) : أى على أن نخلق أشل - منهم وأطوع لله حين عصوه ونهلك هؤلاء (وما نحن بمسبوقين) أى : بمغلوبين ان اردنا ذلك بل نفعل ما اردنا لا يفوتنا شىء ولا يعجزنا امرا ولكن مشيئتنا وسابق علمنا اقتضيا تأخير عقوبة هؤلاء وعدم تبديلهم بخلـــق آخر (٣) .

قال أحمد الصاوى عند تفسيره لهذه الآية : قوله (انا لقادرون) جواب القسم ، قوله (على ان نبدل خيرا منهم) أى بأن نخلق خلقا - غيرهم أو نحول أوصافهم فيكونوا أشد بطشا فى الدنيا واكثر اموالا وأولادا وأعلى قدرا وأكثر حشما وعددا وجاها فيكونوا عندك على قلب واحد فـــى سماع قولك وتعظيمك والسعى فى مرضاتك بدل فعل هؤلاء من الاستهـــزاء والتصفيق وكل مايغضبك ، وقد فعل - سبحانه وتعالى - ماذكر من الأوصاف بالمهاجرين والأنصار والتابعين فأعطاهم أموال الجبارين وبلادهم وصاروا

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير : جـ ٨ / ص ٢٦٦ ، أنظر تفسير الخازن جـ ٤ / ص ٢١١ ، طبعة دار المعرفة لبنان /بيروت .

(٢) روح المعانى : جـ ٢٩ / ص ٦٥ ، وانظر تفسير أبى السعود : جـ ٩ / ص ٣٥ .

(٣) فتح القدير : جـ ٥ / ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

ملوك الدنيا والآخرة[1] .

وبعد هذه النقول من أكثر المفسرين يتبين جليا ان ما ذهب اليه ابن جرير هو الصواب ، لأن ظاهر معنى الآية يوافقه ، اذ التعبير بقوله " على ان نبدل خيرا منهم " يدل بوضوح على ان التبديل في الدنيا ، أو الخيرية ظاهرة في ذلك ، ولا يمنع انه - سبحانه - قادرا على أن يبدل أبدانهم يوم القيامة بخير منها ، الا أن هذا غير ظاهر من الآية .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين : جـ ٤ / ص ٢٣٦ .

((ماورد في سورة المدثر))

===

٤٨ - يقول ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر)[1] :

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك ،فقال بعضهم معنى ذلك :

ولا تعط يا محمد عطية لتعطى أكثر منها ...

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ولا تمنن عملك على ربك تستكثر

وقال آخرون : بل معنى ذلك : لا تضعف أن تستكثر من الخير

ووجهوا معنى قوله (ولا تمنن) أي ولا تضعف ، من قولهم : حبل منين : اذا كان ضعيفا ...

وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في ذلك قول من قال : معنى ذلك : ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح .

وانما قلت ذلك أولى بالصواب ، لأن ذلك في سياق آيات تقدم فيهن أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالجد في الدعاء اليه والصبر على مايلقى من الأذى فيه ، فهذه بأن يكون من أنواع تلك أشبه منها بأن تكون من غيرها[2]

وهذا الترجيح لم يطمئن اليه ابن كثير فقد مال الى غيره حيث قال عند تفسيره لهذه الآية (ولا تمنن تستكثر) : قال ابن عباس : ولا تعط العطية تلتمس أكثر منها ، وكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وطاووس وأبو الأحوص وابراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم .

---

(١) سورة المدثر : الآية (٦) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٢٩ / ص ١٤٨ - ١٥٠ .

وقال الحسن البصري : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وكذا قال الربيع ، واختاره ابن جرير .

وقال خصيف عن مجاهد في قوله : (ولا تمنن تستكثر) ، قال : لا تضعف ان تستكثر من الخير ، قال تمنن في كلام العرب : تضعف ، وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا ، فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول [1] .

هذا ومحل الخلاف بين الشيخين هو ان ابن جرير ذهب الى ان الأرجح في معنى قوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) ولا تمنن على ربك من أن تستكثر عملك الصالح ، بينما يذهب ابن كثير الى ان الارجح في معنى الآية : ولا تعط العطية تلتمس أكثر منها .

والذي يظهر لي في هذه المسألة هو ان الآية تحتمل كلا التفسيرين لأن لفظ (تمنن) يحتمل أن يكون بمعنى العطاء أو بمعنى المنه وهو ذكر العطاء وشبهه .

وان كان بمعنى العطاء فيكون معناه : لا تعط شيئا لتأخذ أكثر منه أو لا تعط الناس عطاء وتستكثره ، لأن الكريم يستقل ما يعطي وان كثر

واما ان كان بمعنى المن بالشيء فيكون معناه : لا تمنن على الناس بنبوتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه ، أو لا تمنن على الله بعملك وتستكثر اعمالك ، ويقع لك بها اعجاب [2] .

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٢٩٠ .

(٢) انظر التسهيل : جـ ٤ / ص ٢٠٣ .

ورغم ذلك نقول : ان هذين الرأيين ان كان كلاهما مراد الا أن الأظهر قول ابن كثير ، كما قال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية فانه - رحمه الله - بعد ان ذكر احد عشر رأيا في معنى الآية قال : وهذه الأقوال وان كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما اعطيت من المال . . . (١)

وقال الامام الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية : قرأ الحسن : ولا تمنّ وتستكثر ، مرفوع منصوب المحل على الحال : أي لا تعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيرا أو طالبا للكثير ، فنهى عن الاستخزار وهو ان يهب شيئا وهو يطمع ان يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز ومنه الحديث (المستخزر يثاب من هبته) وفيه وجهان :

أحدهما ان يكون نهيا خاصا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى اختار له أشرف الآداب واحسن الاخلاق . .

والثاني ان يكون نهي تنزيه لا تحريم له ولأمته (٢) .

وقال صاحبا الجلالين عند تفسيرهما لهذه الآية (ولا تمنن تستكثر) بالرفع حال : أي لا تعط شيئا لتطلب أكثر منه ، وهذا خاص به صلى الله عليه وسلم ، لأنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب (٣) .

وقال الامام الخازن عند تفسيره لهذه الآية (ولا تمنن تستكثر) يعني لا تعط مالك مصانعة لتصاب أكثر منه ، هذا قول أكثر المفسرين .

---

(١) تفسير القرطبي : جـ ١٩ / ص ٦٦ .

(٢) تفسير الكشاف : جـ ٤ / ص ١٨١ .

(٣) الصاوي على الجلالين : جـ ٤ / ص ٢٥٠ .

وهذا النهي مختص بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وانما نهي عن ذلك تنزيها للمنصب النبوة ، لأن من أعطى شيئا لغيره يطلب منه الزيادة عليه لا بد وأن يتواضع لذلك الذي اعطاه ، ومنصب النبوة يجل عن ذلك ، وهذا غير موجود في حق الأمة فيجوز لغيره من الأمة ذلك ... (١)

قلت : والمفسرون الذين يذكرون كلا الرأيين يقدمون في الذكر ما ذهب اليه ابن كثير ثم يتبعونه بغيره ، مما يدل على نوع من الميل الى هذا الرأي (٢) .

وخلاصة القول : ان الآية تحتمل - كما قلنا - المعنيين الا ان رأي ابن كثير أظهر لما ذكرنا .

---

(١) تفسير الخازن : جـ ٤ / ص ٣٢٧ .

(٢) انظر : البحر المحيط : جـ ٨ / ص ٣٦٩ ، وتفسير البيضاوي : ص ٢٦٩ ، وروح المعاني : جـ ٢٩ / ص ١١٩ .

((ما ورد في سورة عبس))

===

٤٩ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (ثم السبيل يسره ..)[1]

اختلف أهل التأويل في السبيل الذي يسره لها ، فقال بعضهم : هو خروجه من بطن أمه ...

وقال آخرون : بل معنى ذلك : طريق الحق والباطل ، بيناه له وأعلمناه ، وسهلنا له العمل به ...

وأولى التأويلين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : ثم الطريق وهو الخروج من بطن أمه يسره .

وانما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب ، لأنه أشبههما بظاهر الآية ، وذلك ان الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه وتدبيره جسمه ، وتصريفه اياه في الأحوال ، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ماقبله وما بعده[2] .

ولم يرتض ابن كثير هذا الترجيح ، واستدرك قائلا :

(ثم السبيل يسره) ، قال العوفي ، عن ابن عباس ، ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه ، وكذا قال عكرمة والضحاك ، وأبو صالح وقتادة ،

---

(١) سورة عبس : الآية (٢٠) ، بدايتها : (قتل انسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره) .

(٢) تفسير الطبري : جـ ٣٠ / ص ٥٥ .

والسدى ، واختاره ابن جرير ، وقال مجاهد : هذه كقوله : (انا هديناه السبيل : اما شاكرا واما كفورا) أى : بينا له ووضحناه وسهلنا عليه علمه ، وهكذا قال الحسن وابن زيد ، وهذا هو الأرجح [1] .

نقطة الخلاف بين الشيخين هى ان ابن جرير يرى ان معنى قوله تعالى (ثم السبيل يسره) أى : يسر الله على الانسان خروجه من بطن أمه بينما يرى ابن كثير أن معناه : ان الله جل وعلا بين للانسان طريق الحق والباطل .

والذى يظهر هو أن كلا المعنيين تتحملهما الآية . .

وأكثر المفسرين ذهبوا الى ذلك ، ومع ذلك [2] نقول : لعل مارجحه ابن كثير هو الأولى ، لأن تيسير الولادة - كما قال صاحب أضواء البيان - : أمر عام فى كل حيوان ، وهو مشاهد ملموس ، فلا مزية للانسان فيه على غيره .

كما ان ماقبله دال عليه أو على مدلوله ، وهو القدرة فى قوله تعالى : (من نطفة خلقه فقدره) ، وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله : فقدره ، أى قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخاص بالانسان ، وهو المطلوب التوجه اليه وهو الذى يتعلق بغيره مابين تخلقه من نطفة وتقديره ، وبين أماتته واقباره ، أى فترة حياته فى الدنيا ، أى خلقه من نطفة وقدر مجيئه الى الدنيا ويسر له الدين فى التكليف ثم اماته ليرى ماذا عمل (ثم اذا شاء أنشره)

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٣٤٥ .

(٢) انظر الكشاف : جـ ٤ / ص ٢١٩ ، والتفسير الكبير : جـ ٣١ / ص ٦٠ ، والبحر المحيط : جـ ٨ / ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

ولهذا جاء في النهاية بقوله : (كلا لما يقض ما أمره) وليس هذا مايدل على الأمر الا السبيل يسره [1] .

٥٥ - قال ابن جرير عند قوله تعالى : (كلا لما يقض ما أمره) [2] :

يقول تعالى ذكره : كلا ليس الأمر كما يقول هذا الانسان الكافر من أنه قد أدى حق الله عليه ، في نفسه وماله ، لم يقض ما أمره ، لم يؤد ما فرض عليه من الفرائض ربه [3] ...

ولم يقبل ابن كثير هذا التفسير واستدرك قائلا :

وقوله (كلا لما يقض ما أمره) ، قال ابن جرير : يقول : كلا ليس الأمر كما يقول هذا الانسان الكافر ...

ثم روى هو وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قوله : (كلا ، لما يقض ما أمره) ، قال : لا يقضي أحد أبدا كل ما أفترض عليه وحكاه البغوي ، عن الحسن البصري ، بنحو من هذا ، ولم أجد للمتقدمين فيه كلا ما سوى هذا ، والذي يقع لي في معنى ذلك ، ان المعنى : (ثم اذا شاء أنشره) ، أي : بعثه ، (كلا لما يقض ما أمره)

---

(١) أضواء البيان : جـ ٩ / ص ٥٥ .

(٢) سورة عبس : الآية (٢٣) ، بدايتها (قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره) .

(٣) تفسير الطبري : جـ ٣٠ / ص ٥٦ .

لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد منهم ، ويخرج الى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا فاذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم [1] .

ونقطة الخلاف بين الشيخين هي ان ابن جرير - رحمه الله - فسر الآية بالفرائض التي كلف الانسان بها بينما فسرها ابن كثير - رحمه الله - بالمدة التي حددها الله سبحانه وتعالى للانسان الى أن تقوم الساعة .

والذي يظهر لي هو ان ما ذهب اليه ابن جرير أولى بالقبول وجميع المفسرين - تقريبا - ذهبوا الى ما ذهب اليه ابن جرير في تفسير الآية [2] ولقد تتبعت أكثر التفاسير لعلي أجد لابن كثير مؤيدا ولم أعثر على شيء من ذلك ...

قال الامام الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية : (كلا) ردع - للانسان عما هو عليه (لما يقض) لم يقض بعد مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم الى هذه الغاية (ما أمره) الله حتى يخرج عن جميع أوامره يعني أن انسانا لم يخل من تقصير قط [3] .

قال الامام الآلوسي : والمراد بما أمره جميع ما أمره ، والمعنى على ما قال غير واحد : لم يقض من أول زمان تكليفه الى زمان اماتته

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٣٤٦ .

(٢) انظر تفسير القرطبي : جـ ١٩ / ص ٢١٧ - ٢١٨ ، والبحر المحيط جـ ٨ / ص ٤٢٩ ، وتفسير البيضاوي : ص ٧٨٥ ، والتسهيل : جـ ٤ / ص ١٧٩ .

(٣) الكشاف : جـ ٤ / ص ٢١٩ .

واقباره أو من لدن آدم عليه السلام الى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده جميع ما أمره فلم يخرج من جميع أوامره تعالى ، اذ لا يخلو احد من تقصير ما [1] .

والخلاص ان ماذهب اليه ابن جرير في تفسير هذه الآية أولى وجميع المفسرين تقريبا معه في هذا التفسير ، وابن كثير نفسه قال : بعد نقله رأى ابن جرير في الموضوع : ولم أجد للمتقدمين فيه كلاما سوى هذا .

قلت : وحتى المتأخرون من المفسرين لم يقولوا سوى هذا [2] .

---

(١) روح المعاني : جـ ٣٠ / ص ٤٥ .

(٢) انظر تفسير القاسمي : جـ ١٧ / ص ٦٠٦٤ ، وفي ظلال القرآن : جـ ٨ / ص ٤٦٩ .

((ماورد فى سورة التـــين))

====

٥١ - قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : (ثم رددناه أسـفل سافلين)[1] :

اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقـال بعضهم : معنى ذلك ثم رددناه الى أرذل العمر ...

وقال آخرون : بل معنى ذلك : ثم رددناه الى النار فى أقبـح صورة ...

وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصحة وأشبهها بتأويل الآيـة قول من قال : معناه : ثم رددناه الى أرذل العمر ، الى عمر الخرف الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو فى اسفل من سفل فى ادبار العمـر وذهاب العقل .

وانما قلنا هذا القول أولى بالصواب فى ذلك ، لأن الله - تعالى ذكره - أخبر عن خلقه ابن آدم ، وتصريفه فى الاحوال احتجاجا بذلك على منكرى قدرته على البعث بعد الموت ، الا ترى أنه يقول (فما يكذبك بعد بالدين) يعنى بعد هذه الحجج ، ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعانى بما كانوا له منكرين ، وانما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على - دفعه ، مما يعاينونه ، ويحسونه ، أو يقرون بـه وان لم يكونوا له محسين .

---

(١) سورة التين : الآيـة (٥) ، وبدايتها (لقد خلقنا الانسان فـى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

واذا كان ذلك كذلك : وكان القوم للنار التى كان الله يتوعدهم بها فى الآخرة منكرين ، وكانوا لأهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجلد شاهدين ، علم أنه انما احتج عليهم بما كانوا له معاينين من تصريفه خلقه ، ونقله اياهم من حال التقويم الحسن والشباب والجلد الى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف (١) .

وهذا الترجيح من قبل ابن جرير لم يقبله ابن كثير ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وقوله (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) هذا هو المقسم عليه ، وهو انه - تعالى - خلق الانسان فى أحسن صورة وشكل منتصب القامة ، سوى الاعضاء حسنها (ثم رددناه اسفل سافلين) أى الى النار .

قال مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم ، ثم بعد هذا الحسن والنضارة صيره الى النار ان لم يطع الله ويتبع الرسل ، ولهذا قال : (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

وقال بعضهم (ثم رددناه أسفل سافلين) : أى الى أرذل العمر روى هذا عن ابن عباس ، وعكرمه حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يرد الى أرذل العمر ، [illegible]

---

(١) تفسير الطبرى : جـ ٣٠ / ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

واختار ذلك ابن جرير ، ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وانما المراد ماذكرناه كقوله (والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[1] .

قلت : ويظهر من هذا ان ابن جرير يرى ان قوله تعالى (ثم رددناه أسفل سافلين) معناه : رددناه الى أرذل العمر - الهرم والخرف - بينما يرى ابن كثير ان معناه : رددناه الى نار جهنم لكفرهم وعنادهم .

والآية تحتمل كلا المعنيين لأن لفظ (الانسان) فى الآية . .

إما ان يقصد به جنس الانسان ، واما ان يقصد به جماعة من الناس وهم الكفار ، وعلى المعنى الأول سار ابن جرير ، وكأنه تعالى يقول : ثم يردون الى أرذل العمر والهرم الذين آمنوا فى وقت القوة والقدرة ، فانهم حال الكبر غير منقوصين وان عجزوا عن الطاعات ، لأن الله تعالى علم أنهم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير فهو يجرى لهم أجر ذلك .

واما ان كان القصد بلفظ (الانسان) جماعة من الناس - كما سار الى ذلك ابن كثير - فالمراد به الكفار أى خلقناهم فى أحسن خلقة احرارعقلاء ، مكلفين ، فكفروا فرددناهم الى النار فى أقبح صورة ، ثم استثنى

---

(١) تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٤٥٧ .

فقال (الا الذين آمنوا) أى صدقوا بالله (وعملوا الصالحات) أى اخلصوا العبادة لله واضافوا الى ذلك الأعمال الصالحة فان هؤلاء لا يردون الى النار .

ومع ذلك اذا نظرنا نظرة دقيقة الى أدلة كل من الشيخين نجد ان رأى ابن جرير أدق لأن الآيات الأخرى فى القرآن تشير الى ذلك كقوله تعالى (ومن نعمره ننكسه فى الخلق) [1] ، وقوله تعالى (ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) [2] ، وقوله تعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) [3] .

ثم ان الله سبحانه وتعالى قال فى آخر هذه السورة (فما يكذبك بعد بالدين) أى بعد هذه الحجج الواضحة ، وهى بدء خلق الانسان وتطوره الى أحسن أمره ، ثم رده الى أحط درجات العجز اسفل سافلين ، وهذا هو المشاهد لهم يحتج به عليهم .

---

(١) سورة يس : الآية (٦٩) .

(٢) سورة الحج : الآية (٦) .

(٣) سورة الروم : الآية (٥٦) .

أما رده الى النار فأمر لم يشهدوه ولم يؤمنوا به ، فلا يصلح ان يكون دليلا يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل ان ينتقل من المعلوم الى المجهول ، والبحث هو موضع انكارهم ، فلا يحتج عليهم لاثبات ماينكرونه بما ينكرونه [1] ، وهذا الذى ذهب اليه ابن جرير واضح .

وبهذا يكون قد انتهينا من استدراكات ابن كثير على ابن جرير فى تفسيره .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) أنظر تفسير الطبرى : جـ ٣٠ / ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وأضواء البيان : جـ ٩ / ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

((الخاتمـــــة))

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وبتوفيقه ورحمته وفضله تنال الغايات ، والصلاة والسلام على معلم البشرية الخير المبعوث رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد :

فان مما يسعد النفس ان تكون خاتمة رسالتى هذه التى أرجو أن يكون التوفيق حالفنى فيها ، خلاصة ماحوته ، وبيان مانتج عن عملى فيها من ثمرات مباركة فأقول وبالله التوفيق :

لقد رأى القارئ أننى قسمت رسالتى هذه الى ثلاثة أبـــواب : تحدثت فى الباب الأول عن ترجمة ابن جرير ، وهو يشتمل على تسعة فصول : -

الفصل الأول : تكلمت عن نسبه ومولده ، وبينت فيه بأن مولده كان فى سنة ٢٢٤ من الهجرة أو فى مستهل سنة ٢٢٥ من الهجـــرة وأشرت إلى أن هذا الخلاف فى تحديد عام ولادته سببه ان أهل بلده كانوا يؤرخون بالأحداث دون السنين فأرخ مولده بحادث كان فى بلده ، فلما نشأ الامام سأل عن ذلك الحادث فاختلف المخبرون فى تحديد السنة التى وقع فيها ذلك الحادث .

الفصل الثانى : تكلمت فيه عن حياة ابن جرير العلمية ، وبينت بأنه كان يتمتع بذكاء خارق وعلامات النجابة منذ صغره ، ومن نبوغه المبكر

وقوة حفظه واقباله على العلم وهو لم يتجاوز بعد مرحلة الصبا ، كما حفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز سبع سنين ، كما تحدثت عن رحلاته الى بلاد فارس وبغداد والبصرة والكوفة وبيروت ومصر . . .

الفصل الثالث : تكلمت عن مكانته العلمية وثناء العلماء عليه مبينا عن ثقافته ونبوغه في كثير من فروع العلم ، وخاصة التفسير والحديث والفقه والتاريخ والقراءات ، وبينت بأن معاصريه وتلاميذه أجمعوا على الاشادة بحفظه وذكائه وطول كعبه في هذه الفروع العلمية كلها .

الفصل الرابع : تحدثت فيه عن شيوخه الذين التقى بهم اثناء رحلاته المباركة الى حواضر العالم الاسلامي وخصصت بالذكر أربعة منهم لاكثاره الرواية عنهم ، وترجمت لكل واحد منهم ترجمة مختصرة .

الفصل الخامس : تكلمت فيه عن تلاميذه الذين نهلوا من مورده واستناروا بعلمه ونشروا مذهبه ودافعوا عنه في تأليفاتهم ، وخصصت بالذكر ستة منهم ، وترجمت لكل واحد منهم ترجمة مختصرة . . .

الفصل السادس : تحدثت عن مؤلفاته العديدة في مختلف العلوم والفنون مبينا أنها كانت ولا تزال مصدرا هاما من مصادر العلم والمعرفة ، وأن أثرها عميق في توجيه الفكر الاسلامي بمفهومه الشامل ، وخدمة الشريعة والدفاع عنها وبيانها في أوسع نطاق للناس

كما بينت بأن هذا الانتاج العلمي الضخم لم يكن عن جمع من هنا وهناك فحسب ، بل كان يعتمد على التحليل الدقيق والاستنباط المتقن . . .

وأشرت إلى أن بعض تلاميذه قسموا جميع ما ألفه على مجموع عمره منذ البلوغ الى الممات ، فبلغ ما يكتب في اليوم الواحد خمس عشرة ورقة في سبعين سنة . .

وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق الا بحسن عناية الخالق .

الفصل السابع : تكلمت فيه عن مذهبه الفقهية مبينا أنه كان شافعيا في أول أمره - رغم قراءته لجميع المذاهب - حيث أفتى به عشر سنين ، ثم أداه اجتهاده الى انفراده بمذهب فقهي مستقل سمي بالمذهب الجريري ، اختص فيه بآراء جديدة واتجاهات تشريعية لم يسبقه اليها سابق ، كما بينت بأن الطبري كثير ما يحيل القارئ لتفسيره الى كتبه في الفقه وأصول الفقه عند معالجته لآيات الأحكام .

الفصل الثامن : تحدثت فيه عن عقيدة الطبري مبينا أنه سلفي النزعة جاريا على ما عليه أهل السنة والجماعة بعيدا كل البعد عن التيارات المنحرفة التي كانت سائدة في ذلك العصر من الاعتزال والرفض ، وما الى ذلك ، وكان يخالفهم في جميع ما خالفوا فيه أهل السنة والجماعة ، وبينت بأن ما الصق به من التشيع والرفض باطل بالحجة الواضحة والبرهان الدامغ .

منها : -

١ - ان الطبري يذهب في الامامة الى امامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعا ، والشاهد في ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) .

٢ - تأليفه فضائل أبي بكر وعمر ، بل تأليفه فضائل العباس .

٣ - دفاع العلماء الاثبات عنه مثل الحافظ الذهبي ، والحافظ ابن حجر العسقلاني .

٤ - ترجم له كثير من الأئمة المعاصرين له ، فلم يصفوه بذلك وختمت هذا الفصل بالكلام على وفاته سنة ثلاثمائة وعشر ٣١٠ من الهجرة .

الفصل التاسع :

تكلمت عن تفسيره الجليل ومنهجه فيه مبينا أن هذا التفسير لم يؤلف مثله ، ثم تطرقت الى أقوال العلماء في هذا التفسير الكبير ، كما بينت الطريقة التي سلكها مؤلفه في تفسير القرآن الكريم ، وذكرت مايمتاز به مؤلفه ، حيث لا يكتفي بسرد أقوال العلماء الذين سبقوه ، بل يوازن بينها ويرجح مايراه راجحا منها ..

كما يجمع بين الآيات التي ظاهرها التصادم والتعارض ، ويبين أنه لا خلاف بينها في الحقيقة ، كما يهتم بالتفسير المنقول عن الصحابة والتابعين نقلا صحيحا ، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير القويم وأما التفسير بمجرد الرأي فيخاصم أصحابه ولا يؤيدهم ، كما لا يهتم في تفسيره الا بما يفيد من المعاني ، أما الأقوال والمعاني التي لا فائدة من وراء معرفتها فهو يجهلها ويتهكم بمن يهتم بها .

كما بينت بأن ابن جرير في تفسيره اعتنى بالاحتكام الى المعروف من كلام العرب والى اشعارهم ، كما اعتنى بالتعرض للمذاهب النحوية ولا شك أن القارئ لهذا التفسير بعناية وتدبر يرى فيه مزايا أخرى متنوعة وماذكرناه في هذا البحث انما هو من باب قول القائل :

" حسبك من القلادة ما احاط بالعنق "

وأما الباب الثانى فقد خصصته لترجمة ابن كثير ويشتمل على ثمانيـــة فصول :-

الفصل الأول : تكلمت عن نسبه ومولده مبينا أن مولده كان فى سنة احدى وسبعين " ٧٠١ " من الهجرة ، فى قرية صغيرة بالشام تسمى " مجيدل القرية " ثم انتقل هو وأسرته الى دمشق سنة ٧٠٧ من الهجرة حين كان ابن ستة سنين .

الفصل الثانى : تحدثت عن حياته العلمية وبينت بأن ابن كثـــير نشأ فى أسرة عليمة متدينة ، كما بينت بأن دمشق فى ذلك العصر تعتـبر معدن العلم وموئل العلماء ، وجنة الأرض لحسن عمارتها ونضارة بقعتها وكثرة فاكهتها ومياهها وأنهارها الجارية وأشرت الى بداية دراسته علـى يدى شقيقه الأكبر عبد الوهاب الذى آنسه بالعلم وجعله يحب العلم ، - ويجتهد فى حصوله ويتحمل مايعانى فى سبيله ، كما تكلمت عن الـدروس التى تلقاها على يد كبار العلماء فى ذلك العصر مثل شيخ الاسلام بن تيمية وبدر الدين محمد بن بضحان وابن البصيص والوزير أبى القاســـم الأزدى وبرهان الدين الفزارى وغيرهم من جهابذة العلماء ، وبعد ذلك بدأ مواهبه تظهر وتنمو حتى تولى التدريس فى عدد من المدارس وألـــف موسوعات نافعة فى التفسير والتاريخ والحديث ورجاله وغير ذلك من فنـــون العلم والمعرفة .

الفصل الثالث : تحدثت عن مكانته العلمية وثناء العلماء عليه مبينـا من أن مكانته العلمية تتجلى من خلال ماتركه من كتب وتصانيف أودعهـــا عصارة فكره وعقله ، وجمع فيها مبلغ علمه ونقله ، فغدا بذلك مرجعا لطلاب العلم ومريدى المعرفة ، كما بينت بأن كتبه مصدر من مصادر رئيسية وهامـــة

من كتب التراث ، فينهل منها طلاب العلم وخاصة فى تفسير كتاب الله تعالى ومعرفة تاريخ الاسلام العام وتاريخ رجاله العظام .

وأشرت الى أن شيوخه ومعاصريه وتلاميذه أجمعوا على الاشادة بحفظه ومعرفته برجال الحديث وعلو كعبه فى التفسير والتاريخ وغير ذلك .

والفصل الرابع : تحدثت عن شيوخه مبينا ماتلقى من هؤلاء العلماء الأفاضل من العلوم النافعة والتوجيهات السديدة ، وخصصت بالذكر تسعة منهم وترجمت لكل واحد منهم ترجمة مختصرة ، كما أشرت الى تأثره بشيخه ابن تيمية كل التأثر فى نبذ البدع والضلالات المستحدثة ومناصرة السنة وأهلها .

الفصل الخامس : تكلمت عن أشهر تلاميذه الذين تلقوا عنه وخصصت بالذكر سبعة منهم وترجمت لكل واحد منهم ترجمة مختصرة .

الفصل السادس : تكلمت عن مذهبه الفقهية مبينا أنه كان يتمذهب بمذهب الشافعى ، وأشرت الى نضاله عن هذا المذهب ومناقشة معارضيه والدفاع عن آرائه فيه ، وبينت بأن ابن كثير رغم كونه شافعيا لم يكن يسير وراء أقوال الشافعى أو غيره دون تفكر وتدبر ، بل كان مصدره الأول الكتاب والسنة ، فاذا وجد مسألة فى المذهب الشافعى لا ترضيه صرح بذلك وسار على غير مذهبه فى تلك المسألة .

الفصل السابع : تحدثت عن عقيدته مبينا أنه كان أحد العلماء الأجلاء الذين عرفوا بصفاء العقيدة والسير على مذهب السلف الصالح واعلاء هذا المذهب واظهاره والتأكيد عليه فى كتبه ورسائله . .

وأجبت على ادعاءات بعض الناس بأن ابن كثير أشعرى العقيدة وبينت بأن هذه الدعوة تخالف عقيدة ابن كثير وأثبت أقوال ابن كثير نفسه وتقريراته التى تدل على عقيدته وذلك فى تفسيره وكتابه " العقيدة " .

وبينت أنه يرد دائما على الفرق والملل المنحرفة كالشيعة والخوارج ويفند مزاعمهم ويبين أن جميع الفرق على ضلال الا واحد وهم أهل السنة والجماعة المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

الفصل الثامن : تحدثت فيه عن تفسير ابن كثير ومنهجه فيه مبينا أنه بدأ تأليف هذا التفسير وهو صغير أو شاب وأثبت مايدل على ذلك كما بينت بأن هذا التفسير اهتم به المسلمون اهتماما لا نظير له ، بدليل طبعاته الكثيرة واختصاراته التى لا تزال مستمرة ، وكثرة ثناء العلماء عليه .

كما بينت مميزات هذا التفسير ومنهج صاحبه حيث يعتمد على طرق ثلاثة وهى تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالسنة وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين .. وقررنا بأن هذه الطرق التى سلكها ابن كثير فى تفسيره للقرآن الكريم مستنبطة مما أثبتها شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية .

وختمنا هذا الفصل ببيان موقف ابن كثير من التفسير بالرأى وقلنا : أنه - تبعا لشيخه ابن تيمية - قسم التفسير بالرأى الى محمود والى مذموم ، فما كان موافقا للغة القرآن والسنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة فهو محمود ، وما اعتمد على مجرد الرأى والهوى فهو مذموم .

الفصل التاسع : وأما هذا الفصل فقد عقدته للمقارنة بين تفسير ابن جرير الطبرى وتفسير ابن كثير ، تحدثت فيه عن الفرق بينهما وبينت بأننى بعد الاطلاع على التفسيرين والمقارنة بينهما وجدت أن هنـــاك أوجها للاتفاق والتشابه بينهما ، كما نجد هناك أوجها للاختلاف ، . . وذكرت بأن بعض أوجه التشابه والاتفاق بين التفسيرين هى :

ان كلا التفسيرين يغلب عليهما طابع التفسير بالمأثور ، حيث يعتمد كل واحد منهما على ماورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعـــن صحابته الكرام ، وان كلاهما يدافع عن مذهب أهل السنة والجماعـــة ويرد على أهل الزيغ والضلال .

وان كلاهما يحملان الألفاظ القرآنية على حقيقتها مالم يكن هنـــاك مانع ، وان كلا التفسيرين أهتم بهما واختصرهما علماؤنا الأجلاء . . . . والى غير ذلك من وجوه التشابه التى لا يخفى على القارئ الفطن .

وأما أوجه الاختلاف بينهما فقد بينت ان تفسير ابن جرير أضخـــم حجما وأقدم زمنا من تفسير ابن كثير ، وان تفسير ابن جرير فى مجموعـــه أغزر فى سوق الروايات ، وان تفسير ابن جرير مشتمل على كثير مـــن الاسرائيليات والأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية بدون تعليق عليهـــا من مؤلفه بخلاف تفسير ابن كثير الذى يقل فيه وجود هذه الاسرائيليـات وغيرها من الأحاديث الضعيفة ، وبينا بأنه ان وجدت كثيرا ما ينبه عليهـا ابن كثير ، وقد ضربنا أمثلة كثيرة توضح ذلك . .

الباب الثالث :
==========

استدراكات ابن كثير على ابن جرير فى تفسيره :

لقد رأى القارىء الكريم أننى قسمت هذا الباب مبدئيا الى قسمين :

قسم يتعلق بسند الحديث ومتنه ، وقسم آخر يتعلق بتفسير الآيات واعتبرنا هذا القسم الثانى محل بحثنا ، لأنه ألصق بتخصصنا كطلبة شعبة التفسير ،

وأما القسم الأول - كما قلنا فى المقدمة - فهو ألصق بزملائنا فى شعبة السنة ، ومع ذلك لم يمنعنا هذا أن نعطى القارىء نموذجا وأمثلة من هذا القسم .

لقد بينا أن القارىء لتفسير ابن كثير - رحمه الله - يراه قد استدرك على ابن جرير استدراكات متنوعة فيما يتعلق بمتن الحديث وسنده ، فهو تارة يعلق على آثار وأحاديث أورد ها ابن جرير بأنها موضوعة أو من الاسرائيليات أو منكرة أو غريبة ، وتارية يعلق عليها بأنها ضعيفة أو فيها نظر أو غير ذلك من تعبيرات الناقدين للأحاديث والآثار .

ولقد رأى القارىء الكريم أننى سقت نماذجا وأمثلة كثيرة فى هذا الشأن . .

وأما مايتعلق بتفسير الآيات الذى اهتممت به فى هذا البحث اهتماما خاص ، فقد بينت فى المقدمة لهذا البحث بأننى أنقل كلام ابن جرير

كما أنقل كلام ابن كثير في المسألة التي حصل فيها الاستدراك ، ثم أبين نقطة الخلاف في ذلك ثم أقارن بين الرأيين مقارنة موضوعية ، ثم أحكم بعد ذلك بالحكم الذي آراه مناسبا مع التعليل والتدليل على صحة ماذهبت اليه مستعينا بذلك أقوال باقي المفسرين الأجلاء . .

والقارئ الكريم رآني تارة أرجح ماذهب اليه ابن جرير وتارة أرجح ماذهب اليه ابن كثير ، وسندي الوحيد في الترجيح هو ما أيدته الأدلة دون أن أنحاز الى أحدهما بأي لون من ألوان الانحياز . .

ولقد بذلت أقصى ما أستطيع بذله من جهد لكي أحكم على تلك الاستدراكات حكما صادقا أمينا .

فان كنت قد أصبت في ذلك فهذا من فضل الله وتوفيقه ، وان كانت الأخرى فأرجو أن أكون مأجورا بسبب اجتهادي في نقل الخير والنفع عن هذين الامامين الجليلين . .

وكلمة أخيرة أقولها :

رغم وجود هذه الاستدراكات الكثيرة على ابن جرير في تفسيره يجد القارئ لتفسير ابن كثير مايلي : -

١ - احترام ابن كثير الكامل لابن جرير حيث يلقبه بألقاب تدل على التقدير والاحترام كقوله : قال الامام العلم أبو جعفر بن جرير[1] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٤ / ص ١٦٤ ، ٢٨٠ .

٢ - أحيانا اذا ذكر اسم ابن جرير يقول : رحمه الله و أكرم وأحسن مثوله ، ولم يكن يعبر مثل هذه التعبيرات في غيره (١) .

٣ - اعتماد ابن كثير على ابن جرير في أغلب الاحيان وثقته فيه ، ومما يدل على ذلك أنه كثيرا ما يعرض آراء المفسرين وبعد ذلك يقول في احدى الأقوال : واختاره ابن جرير ، أو لم يحك ابن جرير فيره أو توقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال (٢) .

٤ - كثيرا ماينهى ابن كثير تفسير الآية بقوله : وهو اختيار ابن جرير ثم ينتقل الى آية أخرى (٣) .

٥ - أحيانا اذا فسر ابن كثير معنى آية ويؤكد ويدعم ماذهب اليه بقوله : وهو اختيار ابن جرير (٤) .

رحمهما الله رحمةواسعة وجزاهما خير الجزاء عما قدماه لأمتهما الاسلامية . .

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؛

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٢٥٩ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٨ / ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٦ / ص ٤١٢ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير : جـ ٧ / ص ٣٧٩ ز ، وجـ ٨ / ص ١٨ ، ٢٣٥ وص ٣٠٠ .

((مراجع البحث))

١ - القرآن الكريم .

٢ - أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن :
للشيخ محمد الامين بن محمد المختار الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٩٣ من الهجرة - مطبعة المدني سنة ١٣٨٦هـ .

٣ - الأعلام :
لخير الدين الزركلي - المطبعة العربية بمصر ، سنة ١٣٤٧هـ.

٤ - أنباء الرواة على أنباء النحاة :
للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ، المتوفى سنة ٦٤٦ من الهجرة - الطبعة الأولى ، بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٩هـ .

٥ - أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ :
للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٨٧هـ .

٦ - الأنساب للامام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٨٦هـ .

٧ - الاتقان في علوم القرآن :
للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م .

٨ - الاسرائيليات وأثرها فى كتب التفسير :
للدكتور رمزى نعناعة - الطبعة الأولى مطبعة دار المعارف للطباعة دمشق سنة ١٣٩٠هـ .

٩ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لأبى الفداء عماد الدين اسماعيل شهاب الدين بن عمر بن كثير - المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة ، تحقيق أحمد محمد شاكر - الطبعة الأولى مطبعة محمد على صبيح بمصر .

١٠ - البداية والنهاية :
للحافظ أبى الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة ، الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف بيروت/لبنان سنة ١٩٦٦م .

١١ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع :
للقاضى محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ من الهجرة الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٨هـ .

١٢ - بيان تلبيس الجهمية فى تأسيس بدعهم الكلامية :
لشيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ من الهجرة - الطبعة الأولى المطبعة الحكومية بمكة المكرمة سنة ١٣٩١هـ .

١٣ - تاج العروس :
للامام محب الدين أبى الفيض محمد مرتضى الحسينى ، المتوفى سنة ١٢٠٥ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ .

١٤ - تاريخ الأدب العربي :

لكارل بروكلمان ، ترجمة د . السيد يعقوب بكر ، ود . رمضان عبد التواب - الطبعة الرابعة /دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٥م.

١٥ - تاريخ بغداد :

للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٦٣ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩هـ .

١٦ - التاريخ الكبير :

للحافظ شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري ، المتوفى سنة ٢٥٦ من الهجرة - الطبعة الثانية بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية/بالهند سنة ١٣٨٢هـ.

١٧ - تذكرة الحفاظ :

للحافظ أبي عبد الله شمس الدين الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ من الهجرة الطبعة الأولى /دار احياء التراث العربي - بيروت لبنان .

١٨ - تفسير أبي السعود : " ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم " :

لقاضي القضاة أبي السعود بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٨٢من الهجرة - تحقيق عبد القادر أحمد عطا / مطبعة السعادة بمصر .

١٩ - تفسير الآلوسي : " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني " :

لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي ، المتوفى سنة ١٢٧٠ من الهجرة - الطبعة الميزية / بمصر .

٢٠ - تفسير ابن كثير : " تفسير القرآن العظيم " :
للحافظ أبي الفداء اسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير - المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد ابراهيم البنا .
(طبعة دار الشعب بمصر)

٢١ - تفسير البحر المحيط :
للامام محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الشهير بأبي حيان المتوفى سنة ٧٥٤ من الهجرة ، الطبعة الثانية - دار الفكر للطباعة والنشر سنة ١٣٩٨هـ .

٢٢ - تفسير البغوي : " معالم التنزيل " :
للامام الحسين بن مسعود الفراء أبي محمد البغوي ، المتوفى سنة ٥١٦ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٧هـ .

٢٣ - تفسير البيضاوي : " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " :
للحافظ ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي ، المتوفى سنة ٧٩١ من الهجرة - الطبعة الثانية بمطبعة مصطفى البابي الحلبي / بمصر سنة ١٣٨٨هـ .

٢٤ - تفسير التحرير والتنوير :
للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧١م .

٢٥ - تفسير الخازن : " لباب التأويل في معاني التنزيل " -
للشيخ علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ من الهجرة - الطبعة الثانية بمطبعة مصطفى البابى الحلبى / بمصر سنة ١٣٧٥هـ .

٢٦ - تفسير سورة الفاتحة والبقرة :

لأبى المظفر منصور بن محمد السمعانى ، المتوفى سنة ٤٨٩ من الهجرة - تحقيق عبد القادر منصور منصور سنة ١٤٠١هـ .

٢٧ - تفسير الطبرى : " جامع البيان عن تأويل آى القرآن " :

للامام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، المتوفى سنة ٣١٠ من الهجرة - تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة دار المعارف / بمصر .

٢٨ - تفسير فى ظلال القرآن :

لسيد قطب ، المتوفى سنة ١٩٦٦م - الطبعة السابعة / دار احياء التراث العربى بيروت - لبنان سنة ١٣٩١هـ .

٢٩ - تفسير القاسمى : " محاسن التأويل " :

للامام محمد جمال الدين القاسمى ، المتوفى سنة ١٣٣٢ من الهجرة - الطبعة الأولى / دار احياء الكتب العربى بمصر سنة ١٣٧٨هـ .

٣٠ - تفسير القرطبى : " الجامع لأحكام القرآن " :

للامام أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، المتوفى سنة ٦٧١ من الهجرة - الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٣هـ .

٣١ - التفسير الكبير : " مفاتيح الغيب " :
للامام محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين الرازي ، المتوفى سنة ٦٠٦ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة البهية المصرية / سنة ١٣٥٧هـ .

٣٢ - تفسير المراغي :
للشيخ أحمد مصطفى المراغي - الطبعة الثانية بمطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٧٣هـ .

٣٣ - تفسير المنار : " تفسير القرآن الحكيم " :
للسيد محمد رشيد رضا - الطبعة الثانية / دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت/ لبنان .

٣٤ - تفسير النسفي : " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " :
للامام أبو البراكات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي المتوفى سنة ٧٠١ من الهجرة - دار احياء الكتب العربية .

٣٥ - التفسير الواضح :
للشيخ محمد محمود حجازي - الطبعة الثالثة ، مطبعة الاستقلال الكبرى / بالقاهرة سنة ١٩٦٤م .

٣٦ - التفسير والمفسرون :
للشيخ محمد حسين الذهبي : المتوفى سنة ١٣٩٨هـ من الهجرة ، الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨١هـ .

٣٧ - تقريب التهذيب :
للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، مطبعة دار الكتاب العربي / بمصر .

٣٨ - تقويم البلدان :

للسلطان عماد الدين اسماعيل بن الملك نور الدين بن علي بن جمال الدين المعروف بأبي الفداء ، المتوفى سنة ٧٣٢ من الهجرة - طبع بمدينة باريس / بدار الطباعة السلطانية .

٣٩ - التنبيه والايقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ :

للشيخ أحمد رافع الحسيني الطهطاوي - طبعة الترقي سنة ١٣٤٨هـ .

٤٠ - تهذيب الأسماء واللغات :

للحافظ أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي ، المتوفى سنة ٦٧٦ من الهجرة - طبع بالطبعة المنيرية بمصر .

٤١ - تهذيب التهذيب :

للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند / سنة ١٣٢٥هـ .

٤٢ - تهذيب اللغة :

لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، المتوفى سنة ٣٧٠ من الهجرة - تحقيق عبد الكريم العزاوي / طبعة سجل العرب بالقاهرة .

٤٣ - الجامع الصغير :

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة - الطبعة الرابعة / طبعة مصطفى البابي الحلبي / بمصر .

٤٤ - حاشية الصاوى على الجلالين :

وهو أحمد بن محمد الصاوى ، المتوفى سنة ١٢٤١ من الهجرة الطبعة الأخيرة - بمطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٦٠هـ .

٤٥ - حسن المحاضرة :

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم / دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٨٧هـ ، الطبعة الأولى .

٤٦ - خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال :

للحافظ صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى ، المتوفى سنة ٩٢٣ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢هـ .

٤٧ - دائرة المعارف :

للمعلم بطرس بن بولس بن عبد الله البستانى ، المتوفى سنة ١٢٩٩ من الهجرة - مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٠م .

٤٨ - دائرة المعارف الاسلامية :

لمجموعة من المستشرقين - ترجمة : ابراهيم زكى خورشيد وأحمد الشنتناوى ، وعبد الحميد يونس - الطبعة الأولى / دار الشعب بمصر سنة ١٩٣٢م .

٤٩ - الدارس فى تاريخ المدارس :

لعبد القادر بن محمد بن عمر النعيمى - المتوفى سنة ٩٢٧ من الهجرة - تحقيق جعفر الحسنى ، المجمع العلمى العربى دمشق سنة ١٣٧٠هـ .

٥٠ - الدرر الكامنة :

لشيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - تحقيق محمد سيد جاد الحق طبعة المدنى / مصر .

٥١ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور :

للحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة - دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت لبنان .

٥٢ - دقائق التفسير :

لشيخ الاسلام تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ من الهجرة - تحقيق محمد السيد الجليند / الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ، مطبعة التقدم / القاهرة .

٥٣ - ذيل تذكرة الحفاظ :

للامام شمس الدين أبى المحاسن محمد بن على بن الحسن ابن حمزة الحسينى ، المتوفى سنة ٧٦٥ من الهجرة / دار احياء التراث العربى .

٥٤ - الرائد :

لجبران مسعود ، الطبعة الأولى / دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٦٤م .

٥٥ - الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة :

لأبى عبد الله محمد بن جعفر الكتانى ، المتوفى سنة ١٣٤٥ من الهجرة / الطبعة الثالثة - طبعة دار الفكر / دمشق سنة ١٣٨٣هـ .

٥٦ - زاد المسير في علم التفسير :

للامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ من الهجرة - الطبعة الأولى المكتب الاسلامي للطباعة والنشر سنة ١٣٨٤هـ .

٥٧ - سنن ابن ماجة :

للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، المتوفى سنة ٢٧٥ من الهجرة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار احياء التراث العربي / سنة ١٣٩٥هـ .

٥٨ - السنن الكبرى :

للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، المتوفى سنة ٤٥٨ من الهجرة - الطبعة الأولى / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٥٢هـ .

٥٩ - السيرة النبوية :

للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن شهاب الدين عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة - تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي / القاهرة سنة ١٣٧٤هـ .

٦٠ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب :

للامام المؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن العماد ، المتوفى سنة ١٠٨٩ من الهجرة ، مكتبة القدس / بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .

٦١ - صحيح البخاري :

للامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، المتوفى سنة ٢٥٦ من الهجرة - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٥هـ .

٦٢ - صحيح مسلم :-

للامام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى المتوفى سنة ٢٦١ من الهجرة - الطبعة الأولى / دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٧٤هـ .

٦٣ - الضوء اللامع :

للمؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، المتوفى سنة ٩٠٢ من الهجرة ، مكتبة القدس / بالقاهرة سنة ١٣٥٤هـ.

٦٤ - الطبرى :

للدكتور أحمد محمد الحوفى - مطابع الأهرام التجارية سنة ١٣٩٠هـ .

٦٥ - طبقات الحفاظ :

للحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة - الطبعة الأولى مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة سنة ١٣٩٣هـ .

٦٦ - طبقات الشافعية الكبرى :

للحافظ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر .

٦٧ - طبقات الفقهاء :

للامام ابراهيم بن على بن يوسف الشيرازى ، المتوفى سنة ٤٧٦ من الهجرة ، تحقيق الدكتور احسان عباس - دار الرائد العربى بيروت / لبنان سنة ١٩٧٨م .

٦٨ - طبقات المفسرين :

للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداؤدي ، المتوفى سنة ٩٤٥ من الهجرة - تحقيق علي محمد عمر ، الطبعة الأولى بمطبعة الاستقلال الكبرى سنة ١٣٩٢هـ .

٦٩ - طبقات المفسرين :

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ من الهجرة - تحقيق علي محمد عمر ، الطبعة الأولى مطبعة الحضارة العربية / الفجالة سنة ١٣٩٦هـ - القاهرة .

٧٠ - عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير :

للشيخ أحمد محمد شاكر - دار المعارف بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ .

٧١ - غاية النهاية في طبقات القراء :

للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري ، - المتوفى سنة ٨٣٣ من الهجرة - الطبعة الأولى بمكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٥٢هـ .

٧٢ - فتح الباري : " شرح صحيح البخاري " :

للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - الطبعة السلفية .

٧٣ - فتح البيان في مقاصد القرآن :

للشيخ صديق حسن خان - مطبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م .

٧٤ - فتح القدير : " الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير " :

للامام محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ من الهجرة - الطبعة الثانية طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٨٣هـ .

٧٥ - الفتوحات الالهية :

للشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشهير بالجمل ، المتوفى سنة ١٢٠٤ من الهجرة - طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

٧٦ - الفصل في الملل والأهواء والنحل :

للامام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري ، المتوفى سنة ٤٥٦ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم سنة ١٣٢٠هـ .

٧٧ - الفصول اختصار سيرة الرسول :

للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة - تحقيق محمد العيد الخطراوي ، ومحي الدين الطبعة الأولى / دار القلم دمشق سنة ١٣٩٩هـ .

٧٨ - الفهرست لأبي الفرج محمد بن اسحاق بن النديم ، المتوفى سنة ٣٨٥ من الهجرة / دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت لبنان .

٧٩ - القاموس المحيط :

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي - المتوفى سنة ٨١٦ من الهجرة ، طبع بالمطبعة الميمنية / بمصر .

٨٠ - القول المسدد في الذب عن مسند الامام أحمد :

للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - الطبعة الثانية / مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٨٦هـ .

٨١ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة :

محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ من الهجرة تحقيق عزت علي عيد عطية ، وموسى محمد علي الموشي - الطبعة الأولى / دار النصر للطباعة بالقاهرة سنة ١٣٩٢هـ .

٨٢ - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل :

للحافظ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، المتوفى سنة ٧٤١ من الهجرة - الطبعة الثانية دار الكتاب العربي / بيروت - لبنان سنة ١٣٩٣هـ .

٨٣ - الكامل في التاريخ :

للمؤرخ أبي الحسن علي ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ، المتوفى سنة ٦٣٠ من الهجرة - الطبعة الأولى بالمطبعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٨هـ.

٨٤ - كتاب العقائد :

للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، المتوفى سنة ٧٧٤ من الهجرة ، وهو مخطوط بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ومصور من الاصل بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

٨٥ - الكشاف "عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" :

للامام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت .

٨٦ - كشف الظنون :

لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ من الهجرة - طبع بالطبعة البهية سنة ١٣٦٠هـ .

٨٧ - لسان العرب :

لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ، المتوفى سنة ٧١١ من الهجرة ، مطابع كوستانسوماس / بالقاهرة .

٨٨ - لسان الميزان :

للحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى ، المتوفى سنة ٨٥٢ من الهجرة - الطبعة الثانية بطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية فى الهند سنة ١٣٩٠هـ .

٨٩ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز :

للامام أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطى ، المتوفى سنة ٥٤١ من الهجرة ، تحقيق الأستاذ أحمد صادق الملاح /مطبعة الاهرام التجارية بالقاهرة سنة ١٣٩٤هـ .

٩٠ - مختار الصحاح :

لمحمد بن أبو بكر بن عبد القادر الرازى ، المتوفى سنة ٦٦٦ من الهجرة - الطبعة الأولى / دار الكتاب العربى /بيروت لبنان سنة ١٩٦٧م .

٩١ - المستدرك على الصحيحين :

للحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابورى ، المتوفى سنة ٤٠٥هـ دار الفكر / بيروت - لبنان سنة ١٣٧٤هـ .

٩٢ - المسند للامام أحمد بن حنبل :

المتوفى سنة ٢٤١ من الهجرة - تحقيق أحمد محمد شاكر الدليمة الرابعة / دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣هـ .

٩٣ - المصعد الأحمد في ختم مسند الامام أحمد :

للامام شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري ، المتوفى سنة ٨٣٣ من الهجرة / مكتبة الخانجي سنة ١٣٤٧هـ .

٩٤ - معجم الأدباء :

للامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي المتوفى سنة ٦٢٦ من الهجرة - الطبعة الأخيرة بمطبعة دار المأمون بمصر .

٩٥ - معجم البلدان :

للامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي ، المتوفى سنة ٦٢٦ من الهجرة ، دار صادر للطباعة والنشر / بيروت - لبنان سنة ١٣٧٤هـ .

٩٦ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي :

رتبه ونظمه جماعة من المستشرقين - مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٣٦م .

٩٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :

لمحمد فؤاد عبد الباقي - مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٤ هـ .

٩٨ - مقدمة أصول التفسير :
لشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ من الهجرة ، تحقيق الدكتور / عدنان زرزور - الطبعة الأولى / دار القرآن الكريم - الكويت سنة ١٣٩١ هـ .

٩٩ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال :
للحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ من الهجرة ، تحقيق علي محمد البجاوي الطبعة الأولى - دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٨٢هـ .

١٠٠ - النجوم الزاهرة :
للامام جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ من الهجرة - الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٨هـ .

١٠١ - هدية العارفين : " أسماء المؤلفين وآثار المصنفين " لاسماعيل باشا البغدادي ، المتوفى سنة ١١٤٤ من الهجرة الطبعة الثانية / بالمطبعة البهية استانبول سنة ١٩٥١م .

١٠٢ - الوافي بالوفيات :
للامام صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، المتوفى سنة ٧٦٤ من الهجرة - الطبعة الثانية / دار النشر فرانز شتانير بفيسبادن سنة ١٣٨١هـ .

١٠٣ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، المتوفى سنة ٦٨١ من الهجرة - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٧هـ .

((فهرس الموضوعات))

الموضوع	رقم الصفحة
شكر وتقدير	أ
المقدمة :	١
سبب اختيار الموضوع	٧
خطة البحث	٨
الباب الأول : ترجمة ابن جرير الطبرى :	١٠ - ٦٣
ويشتمل على تسعة فصول : -	
الفصل الأول : نسبه ومولده	١٠
الفصل الثانى : حياته العلمية	١٢
الفصل الثالث : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه	١٧
الفصل الرابع : شيوخ ابن جرير الطبرى	٢٠
الفصل الخامس : تلاميذه	٢٤
الفصل السادس : مؤلفاته	٢٧
الفصل السابع : مذهبه	٣٥
الفصل الثامن : عقيدته	٤١
الفصل التاسع : تفسير ابن جرير ومنهجه فيه	٥٠
الباب الثانى : ترجمة ابن كثير	٦٤ - ١٣٠
ويشتمل على تسعة فصول : -	
الفصل الأول : نسبه ومولده	٦٤

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الثاني : حياته العلميه	٦٩
الفصل الثالث : مكانته العلمية وثناء العلماء عليه	٧٣
الفصل الرابع : أشهر شيوخ ابن كثير	٨١
الفصل الخامس : أشهر تلاميذ ابن كثير	٨٨
الفصل السادس : مذهب ابن كثير	٩٣
الفصل السابع : عقيدة ابن كثير	٩٨
الفصل الثامن : تفسير ابن كثير ومنهجه فيه :	١٠٢
أ - تفسير القرآن بالقرآن	١٠٦
ب - تفسير القرآن بالسنة	١١٠
جـ - تفسير القرآن بأقوال الصحابه والتابعين	١١٥
الفصل التاسع : المقارنة بين التفسيرين ...	١٢٠
الباب الثالث : استدراكات ابن كثير على ابن جرير في تفسيره	١٣١ - ٣٥٩
ما ورد في سورة الفاتحه :	
١ - عند تفسير قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين)	١٦٣
ما ورد في سورة البقرة :	
٢ - عند تفسير قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة..)	١٦٩
٣ - عند تفسير قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نار ...)	١٧٣
٤ - عند تفسير قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ..)	١٧٧

الموضـــوع	رقم الصفحـــة
٥ - عند تفسير قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين)	١٨٠
٦ - عند تفسير قوله تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم ..)الآيـة	١٨٢
٧ - عند تفسير قوله تعالى (فذبحوها وماكادوا يفعلون)	١٨٥
٨ - " " " " " (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمـون)	١٨٨
٩ - عند تفسير قوله تعالى (قل ان كانت لكم الدار الآخـرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت...)	١٩٢
١٠ - عند تفسيرقوله تعالى (وماانزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ..)	١٩٧
١١ - عند تفسيرقوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ...)الآيـة	٢٠٤
١٢ - عند تفسيرقوله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجـه الله ...)الآيـة	٢٠٩
١٣ - " " " " (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين ...)الآيـة	٢١٢
١٤ - " " " " (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمـة لك ...) الآية	٢١٦
١٥ - " " " " (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله..)الآيـه	٢١٩
١٦ - " " " " (ولا فسوق ولا جـدال فى الحج ..)	٢٢٣

الموضوع	رقم الصفحة
ماورد في سورة النساء	
١٧ - عند تفسير قوله تعالى (واذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى ...) الآية	٢٢٧
١٨ - " " " " " (وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ..)	٢٣١
١٩ - " " " " " (واتخذ الله ابراهيم خليلا..) الآية	٢٣٤
٢٠ - " " " " " (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة..)	٢٣٧
٢١ - " " " " " (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك...) الآية	٢٤٠
٢٢ - " " " " " (وكلمته ألقاها الى مريم ...) الآية	٢٤٣
ماورد في سورة المائدة	
٢٣ عند تفسير قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت ...) الآية	٢٤٧
٢٤ - " " " " " (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ...) الآية	٢٥١
ماورد في سورة الأنعام	
٢٥ - " " " " " (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن..) الآية	٢٥٥
ماورد في سورة الأعراف	
٢٦ - عند تفسير قوله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم..)	٢٦٠
٢٧ - " " " " " (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول..)	٢٦٢

الموضوع	رقم الصفحة
ماورد في سورة يونس	
٢٨ - عند تفسير قولة تعالى (فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم ..)	٢٦٦
ماورد في سورة يوسف	
٢٩ - " " " " " (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله ...)	٢٧٠
٣٠ - " " " " " (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ...)الآية	٢٧٤
٣١ - ماورد في سورة ابراهيم	
٣١ - " " " " " (ألم يأتكم نبوء الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ...)	٢٧٧
ماورد في سورة الحجر	
٣٢ - " " " " " (واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ...)الآية	٢٨٠
ماورد في سورة الاسراء	
٣٣ - " " " " " (نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ...)	٢٨٢
ماورد في سورة الكهف	
٣٤ - عند تفسيرقوله تعالى (ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا ...)	٢٨٦
ماورد في سورة النمل	
٣٥ - عند تفسيرقوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض ..)	٢٨٩

الموضـــوع	رقم الصفحـــة
ماورد في سورة القصص	
٣٦ - عند تفسيرقوله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة ..)	٢٩٢
٣٧ - " " " " " (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ولكن الله يبسط الرزق لمن يشاء ..)	٢٩٧
ماورد في سورة العنكبوت	
٣٨ - عند تفسيرقوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ..)	٣٠٢
٣٩ - " " " " " (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وماعلى الرسول الا البلاغ المبين ..)	٣٠٤
ماورد في سورة يس	
٤٠ - عند تفسير قوله تعالى (واذ قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا ...)	٣٠٨
ماورد في سورة الصافات	
٤١ - عند تفسيرقوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين ..)	٣١٢
ماورد في صورة ص	
٤٢ - عند تفسير قوله تعالى (فطفق مسحا بالسوق والأعناق ..)	٣١٩
ماورد في سورة فصلت	
٤٣ - عند تفسيرقوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما الهكم اله واحد ...)	٣٢٤
ماورد في سورة الذاريات	
٤٤ - عند تفسير قوله تعالى (ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم ...) الآية	٣٢٩

الموضوع	رقم الصفحة
ماورد فى سورة الرحمن	
٤٥ - عند تفسير قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان)	٣٣٣
ماورد فى سورة الواقعة	
٤٦ - " " " " " (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة)	٣٣٧
ماورد فى سورة المعارج	
٤٧ - " " " " " (فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم)	٣٤٢
ماورد فى سورة المدثر	
٤٨ - عند تفسير قوله تعالى (ولا تمنن تستكثر)	٣٤٦
ماورد فى سورة عبس	
٤٩ - " " " " " (ثم السبيل يسره ...) الآية	٣٥٠
٥٠ - " " " " " (كلا لما يقض ما أمره ..) الآية	٣٥٢
ماورد فى سورة التين	
٥١ - " " " " " (ثم رددناه أسفل سافلين)	٣٥٥
الخاتمة	٣٦٠
مصادر ومراجع البحث	٣٧٢
فهرس الموضوعات ...	٣٨٩